صخعتنان ألتغيثان

# الْبُرْبِي الْمُرْتِيْنِ الْمُرْتِيْنِ الْمُرْتِيْنِ الْمِنْ الْمِلْمِلْلْمِلْلِلْمِلْلْمِلْلْمِلْلِلْمِلْلِلْمِلْلِلْمِلْلِلْ











تأبف

مخدع بالكثرغينان

طبعة ١٩٩١ م

مزسه مختار النثر والتوزيع النامرة

## حقوق الطبع والنشر محفوظه للناشسر

الناشر : مؤسسة مختار (دار عالم المعرفة) لنشر وتوزيع الكتاب الإدارة والتوزيع : ۲۷ شارع الطيران مدينة نصر –القاهرة تليفون : ۲۰۲۱۷۸

## بسم الله الرحمن الرحيم

## مقدمة النساشي

الحد لله تعالى ، نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضل فلا هادى له ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد يُحيى ويُميت وهو على كل شيء قدير ، ونشهد أن سيدنا ومولانا ونبينا محملاً عبد الله ورسوله ، أرسله بالهمدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، فبلغ الرسالة وأذى الأمانة ونصح الأمّة ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ، صلاة وسلاما داءًين إلى يوم الدين .

### ويسعد:

فإنه مما أثر عن علاقتنا ، المؤرخ الثقة ، المرحوم الأستاذ « محمد عبد الله عنان » كتاب « وابن خالدون » - حيات وورائه الفكرى - ؛ الكتاب الذي تكررت طبعاته وترجم إلى الانجليزية أيضاً ؛ لما فيه من مادة تاريخية علمية قية ، غطت بشكل شامل وعميق أوسع مساحة فكرية يتطلع إليها المثقف العربي - وغيره - عن « ابن خلدون » - رحمه الله - .

ذلك أن « ابن خلدون » من أعلام علمائنا الجهابذة الذين طوتهم صغمة المؤت إلا أن آثارهم ونتاج قرائحهم ماتزال رغ مرور الدقور وتكرر العصور منارات يُهتدى بها ، وغذاء صافياً للعقول والأفهام ، وحية في الضائر .

خاصةً وأن « ابن خلدون » - رحمه الله - لم يكن مؤرخاً عادياً سارداً للأحداث والوقائع ،مسجلا لها ؛ بل كان مُحللا دراساً ، يغوص إلى أعماقها ثم يستخلص المدروس والعبر ، ويقمدهما في النظريات العلم الاستقرائية .

لذا ، غد بحق رائد علم الاجتاع وواضع أسسه ، خصوصاً فى مقدمته ، تلك المقدمة التى ماتزال إلى يومنا هذا صاحبة السبق والتفرد .

وإنه ليسعننا في مؤسسة « مختسار » لنشر وتوزيع الكتباب - أن نعيد طبع هذا الكتباب الفذ ، نخدم به قراء العربية من طلاب الثقافة العالية ، راجين من الله تعالى حُسُن الجزاء ، وَمَنْ قرائنا حُسُن القبول ؛ والله المؤسسق .

النباشر

## والعالقالية

## مقدمة الطسمة الثانية

ما زال تراث ابن خلدون فريداً بين آثار التفكير الإسلامي، ومازال محتفظ رغم كر العصور بكل قيمته وروعته وجدته ، ويتبوأ مقامه بين تراث التفكير العالمي. ولكن ابن خلدون الذي اكتشفه الغرب، وعكف منذ أكثر من قرن على دراسة آثاره ونقدها وتحليلها ، يغمط فى الشرق حقه ، ويكاد يغمر ذكره ، وينسى تراثه . وبيئا ظهرت فى الغرب عنه وعن تراثه ، تراجم وبحوث نقدية عديدة ، إذا به لايكاد يظفر فى الشرق موطنه وصاحب تراثه ، إلا بالقليل من البحوث العلمية الرصينة . ولما كان ابن خلدون فى مقدمة المفكرين المسلمين الذين عرقهم وقر أت لهم منذ الحداثة ، وطبعوا ذهبى بطابع عميق ؛ وكان فى مقدمة المؤرخين المدين أكبرت فهمهم التاريخ ونقده وقيمته ، فإن هذه الدراسة التي ظهرت طبعها الأولى منذ نحو عشرين عاما ، والتحست الكتابها يومئذ الذكرى السهائة لمولد المؤرخ الفيلسوف ، والتي أقدمها اليوم فى طبعها الثانية لمتعريف بابن خلدون وتراثه ، إنما هي عنوان الوفاء والتقدير المفكر العظيم .

وقد عنيت بأن أتتبع حياة ابن خلدون بإفاضة ، وأن أفصل الحوادث السياسية التي اشترك فيها و اتصل مها . ولما كانت حياته قطعة من تاريخ الدول المغربية، فى أواسط القرن الثامن ، فقد رأيت أن أفصل تاريخ هذه الدول وتقلباً ما في هذه الحقبة ، وأن أشرح أوضاعها السياسية . كذلك عنيت محياة ابن خلدون فى مصر عناية خاصة ، ففصلها تفصيلا وافيا ، وشرحت علائق المؤرخ بالمحتمع المصرى المفكر ، وما وقع بينه وبين الكتاب المصريين من صنوف الحصومة والحدل ، شرحاً ضافياً .

أما تراث ابن خلدون فقد رأيت أن أتناوله بطريق العرض والشرح المرسل ، ورأيت أن أجتنب الحدل والمقارنات المعقدة ، مع حرصى فى الوقت نفسه على مواطن التقدير والحدل المفيد . وقصدى مما كتبت فى فنك ، أن أقدم تراث ابن خلدون إلى الشباب المتقف بطريقة موجزة واضحة ، حى إذا وقف عليه واستطاع أن يسيغه وأن يقدره ، ارتد إلى أثر ابن خلدون نفسه يقرأه ويدرسه بإمعان وإفاضة . أما دراسة البحث الغربي لابن خلدون وما تناول به تفكيره ونظرياته من التقدير والتحليل والمقارنة ، فقد أفردت له فصلا خاصاً يضم خلاصة وافية لكل ماكتب في هذا الشأن

كذلك رأيت أن أضع بياناً فهرسياً عن كتاب العبر، يتضمن شرح الأدوار التي مر مها حتى ثم نشره وظهوره ، والمخطوطات التي رُجع إليها في نشره ، وما ترجم منه إلى مجتلف اللغات الأوربية، ومايوجد من مخطوطاته في مختلف المكتبات . وشفعت ذلك ببيان مفصل لحميع المصادر العزبية والغربية التي رجعت إلها ، والتي يُدرس فها ابن خلدون وأثره ، لكي يرجع إلها من شاء التوسع والمزيد .

وقد تناولت هذه الطبعة الحديدة بكثير من التنقيح والإضافة ، ورأيت أن أذيلها براجم الكتاب المصرين المعاصرين لابن خلدون ومعظمها لايزال محطوطاً ، وكذلك بالترجمة التي وضعها له صديقه ومعاصره المفكر الأندلسي العظيم ابن الحطيب ، وذلك زيادة في التعريف به وخلاله ممن عرفوا شخصه حق المعرفة .

وعرضت فى هذه الطبعة أيضاً عدة نماذج من خط ابن خلدون ، فى ختلف أدوار حياته ، فى شبابه ، وفى اكبال كهولته ، وفيها يرى القارئ أثراً مادياً من آثار المفكر الكبير ، هذا فضلا هما تدلى يه من وقائم وبيانات تارخية ذات شأن .

وأود أن أذكر هنا أن هذه الدراسة التي أقدمها عن ابن خللون قد ترجمت إلى الإنجليرية منذ أعوام طويلة ، وصدرت منها إلى اليوم عدة طمات(١)

إن ابن خلدون على قلمه من حيث الزمن ، يجب أن يكون أستاذاً خميع الشباب الذى ينطق بالعربية . ويجب أن يقرأ الشباب مقلمة ابن خلدون ، وأن يستعيدها مراراً وتكراراً ، لا ليعجب فقط بما حوت من رائع التفكير والبحث، ولكن أيضاً ليستقيمها أساليب البيان والتعبير عن كثير من الآراء والحواطر الاجهاعية التي تجول بذهنه وكثيراً مابعثر في التعبير عها ؛ ذلك أن مقلمة ابن خلدون إذا كانت ثروة

 <sup>(</sup>١) نشرت الرجمة الإنجليزية بمدينة لاهوره بستاية قاشر الكتب السيد عمد أشرف بمنوان
 «The Khaldam; his Life and Work" وظهرت الطهمة الرابعة منها في منة ١٩٩٣.

لاتقلىر فى تراث التفكير العربى ، فهى أيضاً ثروة لاتقلىر فى تراث البيان العربى .

فإلى الشباب المثقف فى مصر ، وفى جميع البلاد العربية ، أقدم هذه المدراسة ... فى طبعتها الثانية الشخصية ممتازة فى التفكير الإسلامى ، وذهن عظيم مبتكر ، سبق الغرب كله إلى وضع مبادئ الاجتماع ، وما زال موضع إعجاب التفكير الغربي وتقديره ، راجياً أن يجد الشباب فى هذه الدراسة ما يحفزه إلى قراءة ابن خلون ودرسه والانتفاع بنفيس ترائه .

محدع استدعنان

القاهرة في مايو سنة ١٩٥٣

شغلت طيلة هذه الأعوام العشرة الأخيرة بالعمل المتواصل لإخراج بقية كتب التاريخ الأندلسي ، عن إخراج الطبعة الثالثة من هذا الكتاب. أما الآن، وبعد أن أكلت سلسلة كتب تاريخ الأندلس، بإخراج كتاب و عصر المرابطين والوحدين في المغرب والأندلس ، ، فإنه بملأ نفسي غبطة أن أستطيع اليوم إخراج هذه الطبعة الجديدة من و ابن علمدون » .

وقد عنيت بمراجعة هذه الطبعة وتنقيحها عناية خاصة ، فرودتها يكتبر من المعلومات والشروح الحديدة ، التي وقفت على معظمها ، أثناء بحوثى في المكتبات المغربية ، ولاسيا خزانة جامع القروبين الحليلة، ومها الحديث عن أثر جديد لابن خلدون لم يكن معروفاً من قبل في دواثر البحث العلمي. ثم ذيلت هذه الطبعة أيضاً بترجات حربية لطائفة من البحوث الغربية الهامة التي وضعت عن ابن خلدون وعن تراثه ، من البحوث الغربية الهامة التي وضعت عن ابن خلدون وعن تراثه ، وهي عبارة عن رسالة للعلامة الإسباني رافائيل ألتاميرا ، وملخص عث الفيلسوف الإسباني أورتيجا إي جاسيت ، وقصل للمستشرق الألماني فون فيسندنك، وفصل للعلامة المؤرخ الإنجليزي المعاصر أرنولد تويغيى .

كذلك ، زودت هذه الطبعة ، إلى جانب ما تحتويه من لوحات محطوطة من كتب ابن خلدون ، مخريطة تبن معالم الدول المغربية فى عصر ابن خلدون ، ويفهارس أنجدية .

وإنى لأرجو أن تحقق هذه الطبعة بما اشتملت عليه من الإضافات والرسائل الحديدة ، بعض ما يطمع إليه الباحثون فى هذا المبدان.



صيفة الوقف التي مجملها الجزء ألحاس من نسخة ه كتاب العبره التي وقفها اين خلدون على طلبة العلم بخزانة جامع القروبين بفاس وهي محررة بالقاهر3 في صفرت ٧٩٦٩هـ

بسم الله الرحن الرسيم الحدد قد وحده وصلواته على سيدنا محدد رآ له وصحيه وسلم وقت و حبس وسيل و أبد و حرم و تصدق سيدنا و مولانا العبد الفقير إلى الله تمال أبو زيد الشيخ الإسام العالم العلامة الحافظ المفتى أوحد عصره و فريد دهره قانمى القضاة ولى الدين أبو زيد عبد الرحن بن الشيخ الإسام أبى عبد الله تحد بن خلدون الحضرى المالكي أمتم الله المسلمين بحياته و تفعهم بعلومه وبركاته و هو مؤلف هذا الكتاب حميع هذا الكتاب المسمى بكتاب العبر في أخيار العرب والعبم والبر بر المشتمل على سهة أسفار هذا أحدها وقفاً مرعياً وحباً مرضياً على طلبة العلم الشريف عدية فاس الحروسة قاعدة بلاد المغرب الأقصى ينتغمون بذلك قراءة ومطالعة و نسخاً و جعل مقره غيز انة الكتب التي بجامع القروبين من فاس أخماة وحبل مقره غيز انة الكتب التي بجامع القروبين من فاس أخماة موسعيم أكثر من شهرين وهي المئة أمين برهن وثيق لحفظ حت وأن لا يمكث عند مستعيره أكثر من شهرين وهي المئة أمين برهن لا النظر على خزانة الكتب المذكورة وقف قد على الوجه المذكور لوجه الله النظر على خزانة الكتب المناحي وره بجن الله المصنين و لا يضيع أجر الحسنين الشهد عليه بذك في اليوم المبارك الحامي والشعرين الشهر صفر المبارك عام النظر في والميارك علم المنادي المهمية من المهمية و المؤمن المبارك عام وأشهد عليه بذك في اليوم المبارك الحامي والشهرين الشهر صفر المبارك عام وأشهد عليه بذك في اليوم المبارك الحامي والشعرين الشهر صفر المبارك عام وأشهد عليه بذك في اليوم المبارك الحامي والشهرين الشهر صفر المبارك عام وأشهد عليه بذك في اليوم المبارك الحامي والشعرين الشهر صفر المبارك عام

أشهد في ميدنا ومولانا العبد الفقير إلى اشهد في ميدنا ومولانا العبد الفقير إلى الله تمال الشيخ الإسام العالم العالم المام الما

الحبد لله المنسوب إلى معيج ابن أبي القاسم .

تسعة وتسمين وسبمالة حسينا الله و نعم الوكيل .

وكتب عبد الرحن بن محمد بن خلدو ن

المواليس تصنيه الدراديني الله الموالية الموالية عنيه تستاه الماجي عنيه الموالية عني الموالية الموالية

صفحة العنوان من كتاب لباب المحسل في أصول الدين لابن خلدون وهو المحفوظ بمكتبة دير الإسكوريال ( باسبانيا ) برتم ١٦٦٤ الغزيري . والكتاب مكتوب بخط مؤلفه بمالله الوصرالزهم مالله علسواعرال

﴿ مَوْتَعِبُوْهِ بِعَلْمُنَّهُ وَكُشِّرِياتِهِ ۚ وَتَغْرِشُرِيصِاتُهُ والخمام وتنشره عرصنا مبة خلفه بعرمه ويقآيه ألطاله مِهِ آصَةُ مَن ا فِين مِن الفُسْمَة وَبِين لِلا لِمُ وَمِثْلُهِ مرسعت فررته المكنات بلاتبرج عز إثراعه كانشآب ودلخي وزنما وتغصما بربت وايجاء عل ازاءة وَمَفَايِّهِ وَأَصِيمُ عَلَامِكَ الْعُرْسُ لِلْفَرْسُيُّهُ الْعَجْمِ بتشرب كاعتباب كنمئوها عاسين يخاله فالمناه هام البيابة كالمراهان العابدة المالية ملاه ماية اعرف ليم لفآب و بعسر باز المان كينره والمعارف جنةعزره واشرهاالعلماله وأعرن لوللسم وزياه ه تعنف والمعمر اليعورا بيتغراليها وتعرز المعقرما تاعليه والعداع اليما كاخسرة كاذكاد لمثلي عنوازالفالية

السفحة الأولى من كتاب لباب المحصل وهي تموذج حسن من خط أبن خلمهون في شبابه

# الكثابث الأول

حيــاة ابن خلدور\_\_

فى المغرب والأندلس - C 1747 - 1777 : A VAE - VTY

# الفضلالأول

## 

بتو خلدون . نشأتهم بالأندلس وظهورهم فى ميدان الرياسة . نزوحهم إلى المغرب . محمد بن خلمون والله المؤرخ . نشأة ابن خلمون و دراسته الأولى . فقده لأسرته وصحبه أثناء الفناء الكبير . دعوته لتولى كتابة العلامة فى بلاط تونس .

كانت سنة ١٩٣٧ مبعث ذكرى خالدة فى التفكير الإسلامى : تلك هى انقضاء سيائة عام كاملة على ءولد ابن خلدون المؤرخ والسيامى والفيلسوف الاجتاعى . ولما كانت آثار هذا المفكر العظيم تتبوأ بين تراث العربية أسمى مكانة ، فقد كانت هذه الذكرى فرصة سائحة لدراسة حياته واستعراض آثاره ؛ فلم يحظ ابن خلدون رخم شهرته الواسعة ، ولم تحظ آثاره رغم نفاسها وطرافها ، من تفكيرنا المعاصر، عما يجب من درس ونقد واطلاع.

ترك لنا ابن خلدون ترجمة نفسه (۱۰)، ودون لنا بقلمه حوادث حياته منذ نشأته حتى مشرف خاتمته ، وصور لنا كثيراً من خلاله وخواصه ونواحى نفسه ؛ وقد نحسب لأول وهلة وتحن نتلو تلك السرة الفياضة التى تركها لنا المؤرخ عن نفسه ، أنه لم يترك لمترجمه كبير عجال البحث والتحقيق، وأن ليس عليه إلا النقل والتكرار؛ وفي هذا الفرض كثير من

<sup>( 1 )</sup> منتناول وصف هذه الترجمة هند الكلام على تراث ابن خلدون .

الصحة، فابن خلدون هو أخصب مصادرنا وأهمها في كل مايتعلق بسيرة حياته وحوادث عصره ؛ ولكن مهمة المترجم الحديث لاتقف عند تدوين الوقائع والحوادث المادية ؛ فإذا لم تك ثمة حاجة إلى تحقيقالوقائع والحوادث ، فهناك دائماً وجهة التقدير واستخلاص النواحي المعنوية ؛ ومتالك اختلاف الفهم والعرض . وإذا كان ابن خلدون يقدم لنا سيرة حياته وحوادث عصره التي ارتبطت بهذه السيرة ، فإنه يعرضها طبقاً لفهمه ووجهة نظره ، وقد يتأثر عرضه في كثير من الأحيان بالعاطفة والهوى . وتحرى الحقيقة خلال هذه الموثرات مهمة شاقة . فإذا كنا نغتبط بهذا الدراث الذي تركه لنا المؤرخ عن نفسه ، ونجد فيه مايسهل مهمة ترجمته ، فإنا قد نشعر من جهة أخرى بالحرج في كثير من المواطن.

وإذاً فسيكون تراث المؤرخ عمدتنا الأولى فى ترجمته ، ولكته لن يكون مصدرنا الوحيد ؛ فهنالك مصادر وتراجم عديدة أخرى جديرة بالبحث والمراجعة ، ولاسها عن حياته فى مصر . وسوف نستشيرها حيماً . وسنتنيم أدوار حياته خلال هذا الراث كله . ولكنا سنحاول أن نفهمها على ضوء الحقيقة المجردة، وأن نستخلصها من عملف الموثرات والأهواء .

-1-

ولد ابن خلدون بتونس فى غرة رمضان سنة ٧٣٧ هـ ( ٢٧ مايو سنة ١٣٣٧م ) فى أسرة أندلسية نزحت من الأندلس إلى تونس فى أواسط القرن السابع الهجرى . وهو ولى الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد ابن محمد بن الحسن بن جابر بن محمد بن إبراهم بن عبدالرحم بن خالدون. ويرُبع ابن خلدون أصله إلى العرب المحانية في حضر موت، ونسبه إلى وائل بن حُبع ، ويعتمد في ذلك على رواية العلامة النسابة الأندلسي ابن حرم (١) ، التي أوردها عناسبة الكلام عن نسب ببي خلدون الإشبيلين حيث يقول: « وكان من أكابرهم كريب وأبو عمان خالد، القائمان بإشبيلية ، اللذين قتلهما ابراهم بن حجاج اللخمي غيلة ، وها ابنا عمان بن بكر بن خالد المعروف مخالمون الداخل من المشرق » . وأما نسب جده خلدون هذا الله على الأندلس، فهو طبقاً لا بن حزم وأما نسب جده خلدون هذا الله على الأندلس، فهو طبقاً لا بن حزم ابن الحارث بن وائل بن حجر » ، فابن خلدون طبقاً لمذه النسبة أيضاً ه خالد بن عماني الأصول انجانية . ولكن ابن خلدون يشك في صحة المن أصل من أعرق الأصول انجانية . ولكن ابن خلدون يشك في صحة المنسلة لأنه إذا كان خلدون هو جده الداخل إلى الأندلس عند المنتع ، فإن عشرة أجداد لاتكفي لقطع الستة قرون و نصف التي انقضت منذ الفتح حتى مولده ، وفي رأيه أنه بجب لقطعها عشرون باعتبار ثلاثة منذ الفتح حتى مولده ، وفي رأيه أنه بجب لقطعها عشرون باعتبار ثلاثة منذ الفتح حتى مولده ، وفي رأيه أنه بجب لقطعها عشرون باعتبار ثلاثة

<sup>(1)</sup> في كتاب وجمهرة أنساب العرب » ( ص ٢٥٠ ) وقد نشر في سنة ١٩٤٨ ابتاهم قبيناية العلامة لمل جميد على بن أحمد المناهمة بعناية العلامة لملرحوم الانتخاذ ليثي بروقلسال . ولد بقرطة سنة ١٩٤٨ هو برع في النام صديد بن حزم الاندلسي . وهو فقيه ومفكر كبير ، ولد بقرطة سنة ١٩٤٨ هو برع في النامة والأصول ودراسة الأديان المقارنة والفرق الإسلامية واعتنق المذهب الظاهري واشهر به . وأشهر مؤلفاته كتاب و الأحكام في أصول الأحكام، ووالفصل في الملل والخمواء والفصل في الملل والأهواء والنحل » وو جوامع المديرة » ووطوق المجاهة » وغيرها . توفي سنة ١٩٥٦ ه ( ١٠٦٤ م ) . وقد خصه العلامة الإسباني آسين بلاثيوس بكتاب باللغة الإسبانية عنوانه وابن حزم القرطبي Abenhazum de Córdoba هاديم المحلمة العربانية المهنوس بكتاب باللغة الإسبانية النام بلاثيوس بكتاب باللغة الإسبانية عنوانه وابن حزم القرطبي، Abenhazum de Córdoba

أجداد لكل قرن . ومن جهة أخرى فهنالك مامحمل على الشك في صحة هذا النسب البعيد الذي يدونه ابن حزم لأول مرة في القرن الحامس الهجرى، ويقوىهذا الشك لدينا مانعرفه من ظروفالخصومة والتنافس بِن العرب والعربر في الأندلس ؛ فقد اشترك العربر في فتح الأندلس، . وقاموا بمعظم أعباثه، ولكن العرب انفردوا بالرياسة والحكم؛ واستمرت المصومة بينهما أحقاباً طويلة حتى اضمحلت العصبية العربية ، وبدأت غلبة الىربر منذ أوائل القرن الحامس . وكانت العروبة في الأندلس شرفاً برغب في الانتساب إليه، لما كان لهامن السيادة والنفوذ؛ ولكن الشك كان عميق بأنساب كثير من أهل العصبية والرياسة ؛ بل لقد تطرق هذا الشك إِلَى أُصول وأنساب زعماء الفاتحين أنفسهم ، فقيل مثلا عن طارق أبن زياد ، إنه من العربر من بطون نفزة ، وقيل إنه فارسي أوأنه من موالى العرب . وهنالك أيضاً ما يبعث على التأمل في تعلق ابن خلدون لهذه النسبة العربية، وهو أنه في مقدمته يضطرم نحو العرب بنزعة قوية من الحصومة والتحامل، بينا نراه في مكان آخر من تاريخه يمتدح البربر ويشيد بخلالم وصفاتهم(١) ،

وعلى أى حال فإن ابن خلمون ينتمى إلى بيت من بيوت الرياسة فى الأندلس يرجع إلى عصرالفتح ذاته . قدم جده الأكبر خالد المعروف مخلمون إلى الأندلس فى جند البمانية ونزل أولا فى مدينة فرمونة، ونشأ مها بيته . ثم انتقل بنوه إلى إشبيلية . ولم يظهر بنو خلمون على مسرح

<sup>(</sup>١) سنعرض إلى ذلك في فعمل قادم ,

الحوادث إلا في أواخر التمرن الثالث، في عهد الأمبر عبد الله بن محمد ابن عبد الرحمن الأموى ( ٢٧٤ – ٣٠٠ هـ ) ، فني عهده اضطرمت الأندلس بالفتن ، وامتدت الثورة إلى معظم النواحي ؛ وكانت إشبيلية ﴿ في مقدمة المدن الثائرة ؛ ثار مها أمية بن عبد العافر بن ألى عَبداً ه ، وعبد الله وابراهم ابنا الحجاج ، وكريب(١) وخالد ابنا خلدون ، وهم يومئذ زعماء البيوت الكبرة . وكان أمية حاكم المدينة من قبل الأمير محمد ، فخلع الطاعة واستبد مها ، ودس على عبد الله بن الحجاج من قتله ؛ فثار عليه بنو خلدون وبنو الحجاج ، واشتدوا فى مناوأته ، وقاتلوه حتى قتل ؛ واستبد كريب بن خلمون بالأمر ، واستقل بإمارة إشبيلية . ولكن ثار عليه بنو الحجاج . وتحالف زعيمهم إبراهيم مع عمر بنحفصون أعظم ثوار الأندلس يومنذ، والمتغلب على جنوبها ما بين مالقة ورندة ، فخشى كريب أمره وأشركه معه فى حكم إشبيلية . ولما اشتدت الفتنة أرسل الأمر عبد الله قواته إلى إشبيلية ، فقاتلت الثوار حتى هزموا ، وقتل منهم عدد كبير ، وأسر زعماء الفتنة . واتفق في النهاية على أن يشترك في حكم المدينة ابراهم بن حجاج وكريب بنخللون باسم الأمير وفي طاعته . وكان كريب صارما شديد الوطأة فانحرف عنه أهل إشبيلية ومالوا إلى إبراهيم لما ترأوه من رفقه ولينه ؛ واتصل إبراهيم ﴿ بالأمير عبد الله وحصل منه سراً على عهد بولاية إشبيلية ؛ ثم ثار في

<sup>(</sup>۱) وردت فی التعریف (کریت) –کتاب العبر ، ج ۷ ص ۳۸۰ . برهو تحریف واضح والصواب آنها کریب .

أهل المدينة بكريب وقتله ، واستقل بالإمارة وعظم أمره . واستمر بنو خلدون بإشبيلية ، طوال عهد الدولة الأموية ، ولكن دون زعامة أو رياسة ، حتى كان عهد الطوائف واستيلاء بني عباد على إشبيلية ؛ فعندئذ صطع نجم الأسرة ثانية ، ورقت إلى مراتب الرياسة والوزارة في دولة بني عباد ، وشهد زعماؤها موقعة الزلاَّقة الشهرة الَّي انتصر فيها المرابطون بقيادة أميرهم يوسف بن تاشفين اللمتونى ، وحلفاؤه الأندلسيون وعلى رأمهم المعتمد بن عباد ، على ألفونسو السادس ملك قشتالة ( ٤٧٩ هـ - ١٠٨٦ م ) واستشهد جاعة منهم في الموقعة . ثم دالت دول الطوائف سريعاً ، واستولى المرابطون على الأندلس وحكموها زهاء نصف قرن . ثم قام للوحلون بالمغرب وقضوا على دولة المرابطين ، وانتزعوا مهم سيادة الأندلس ؛ واستولوا على مدينة إشبيلية في سنة ٥٤١هـ ( ١١٤٦م ) ، ثم استولوا تباعاً على باقي القواعد ، وأقطعوا القرابة والزعماء من الموحدين رياسة الولايات والمدن ، واتخلوا من إشبيلية قاعلة لحكم الأندلس ، ووليها الأمراء من بني عبد المؤمن . واتصل بنو خلفون بالولاة الحدد ، واستعادوا قسطاً من الحاه والرياسة .

ولما اضمحلت دولة الموحدين فى أواثل القرن السابع الهجرى ، واضطربت شئون المغرب والأندلس ، وأخلت القواعد الأندلسية تسقط تباعا فى أيدى النصارى ، وأخلت الولايات والقواعد المغربية من جهة أخرى تنفصل عن خلافة مراكش الموحدية ، كانت إفريقية

(ولاية تونس) في مقلمة الولايات التي اعصلت عن الحلافة الموحدية، وذلك في سنة ٦٢٧ ﻫ ( ١٢٣٠ م ) ، وقامت بها دولة جديدة هياللـولة الحفصية ، وذلك حسما تفصل بعد . ولما تفاقمت الأحوال بالأندلس، واشتد علمها ضغط النصارى ، خشى بنو خلدون سوء العاقبة فغادروا إشبيلية موطنهم القديم قبل أن تقع في أيدي النصاري، ونز لوا حيناً بسبتة، فأكرمهم حاكمها الحفصي ، ثم لحق زعم الأسرة يومثذ وهو الحسن ابن محمد بنخلدون رابع جد للمؤرخ بالأمير أنى زكريا الحفصي أمير إفريقية في مدينة بونه ، فأغدق عليه عطفه ونعمه ؛ ثم توفي الأمر أبو زكريا وخلفه ابنه المستنصر ، فولده محيى ، فأخوه إسحاق ؛ وبنو خلدون خلال ذلك يتعمون بالحاه والسعة . وفي عهد ألى إسحاق، ولى أبو بكر محمد بنخلدون جد المؤرخ الثانى شئون الدولة ، وولى ولده محمد جد المؤرخ شئون الحجابة حيناً لأبى فارس ولد أبى إسحاق وولى عهده ، وكان قد استقل محكم بجاية . ثم اضطرب الك بني حفص ، وثار بهم زعم يدعى ابن أنى عمارة وتغلب على تونس، واعتقل أبا بكر ابن خالمون وقتله وصادر أمواله ؛ وبنَّى ولله محمد فى بلاط مجاية ، وخاض غمار المعارك التي نشبت يومثذ بن بني حفص والحوارج عليهم؟ ولبث يتقلب في ظل بني حفص في مراتب الدولة . ثم غلب على تونس الأمير أبو عني اللحياني سنة ٧١١ هـ ، فقربه وتولى حجابته حيناً . ثم اعتزل الحياة العامة، وبتى مع ذلك علىمكانته ونفوذه في الدولة حتى توفي سنة ٧٣٧ هـ ( ١٣٣٧م ) . أما ولده محمد وهو أبو للوَّرخ ، فقد زهد فى الحياة السياسية ، وآثر حياة الدرس والعلم ، وبرز فى الفقه وعلوم اللغة ، ونظم الشعر. وتوفى إيان الفناء الكبر (أوالطاعون الحارف) سنة ٧٤٩ هـ ( ١٣٤٩ م ) وله من الولد عدة : أبو زيد ولى الدين وهو المؤرخ ، وكان وتنتذ فنى يافعاً فى الثامنة عشرة ، وعمر وموسى ويحيى وعجد وهو أكبرهم ، ولم يظهر مهم إلى جانب المؤرخ سوى محيى الذى تولى الوزارة فها بعد(١)

#### - Y -

كان ابن خللون إذا سليل أسرة عريقة ناسة ، وبيت علم ورياسة ، فنشأ في مهد هذا التر اث الذي تلقاه عن أسرته ، أسديه جلودها وتقاليدها ، وحرج في حجر أبيه ، فكان معلمه الأول ؛ وقرأ القرآن وخفظه ، وتفقه في القراءات السبع ، وحرس شيئاً من التفسير والحديث والفقه ، وحرس النحو واللغة ، على أشهر أساتلة تونس . وكانت تونس يومثة أو اسط القرن السابع الهجرى منزل كثير من علياء الأندلس الذين شتتهم الحوادث أو ضاق بهم الوطن . ويذكر لنا ابن خللون أساء معلميه وأساتلته في كل علم وفن ، ويعني عناية خاصة بترجمتهم ووصف مناقبهم ؛ ويذكر لنا أبن خللون أسهاء معلميه مناقبهم ؛ ويذكر لنا أيضاً أسهاء بعض الكتب التي درس فيها ، ويبلو وعلوم اللغة واللهدة والفقه المالكي ،

<sup>(</sup>١) ذكر ابن خلمون إخوته هؤلاء في مواضع متفرقة من و التعريف ٥.

<sup>(</sup>٢) راجع التبريين –كتاب العبر –ج ٧ ص ٢٨٤ و ٣٨٠ .

العملية ؛ وينوه ابن خلدون بتفوقه فى درسهما<sup>(١)</sup> . وقد شهد له جميع أساتذته وأجازوه<sup>(٢)</sup> .

وعكف ابن خلدون على التحصيل والدرس حتى بلغ النامنة عشرة. وهنا طافت بالمغرب تلك الكارثة العظمى التي نكبت العالم الإسلامي كله من سمر قند إلى المغرب ، ونعي بها الفناء الكبير أوالطاعون الحارف كما يسميه ابن خلدون ؟ وهو نفس الوباء الفاتك الذي عصف يومئذ بإيطاليا ومعظم الأمم الأوربية ، والذي ترك لنا عنه معاصره وشاهده بوكاشيو أروع الصور (٣) . وقد وقعت هذه النكبة بالمشرق والمغرب مما سنة ١٣٤٩ م ( ٧٤٩ ه) ، وهلك فيها والله المؤرخ وحميع شيوخه ومعظم سكان تونس . ويشير ابن خلدون إلى تلك النكبة غير مرة في المجة مؤثرة فيقول إنها : و طوت البساط بما فيه ، ، وفها : و ذهب الأعيان والصلور وحميع المشيخة وهلك أبواى رحمهما الله » ، ثم يقول لنا إنه استوحش لذهاب أهله وشيوخه وتعذر عليه الاستمرار في الدرس ، فعول على النزوح إلى المغرب الأقصى حيث نزح بعض شيوخه وأصحابه ، فوره عن ذلك أخوه الأكبر محمد .

وتبدو روعة النكبة فيما ذكره ابن خاتمة الأندلسي فى رسالة له عن هذا الوباء الذيطافبالأندلسفى نفسرالوقت وعصف بمدنها و يجتمعاتها

<sup>(</sup>۱) كتاب العبر ج ٧ ص ٣٨٦ و ٣٩١.

<sup>(</sup> ٢ ) من الإجازة وهي شهادة الأستاذ لتلميذه بأنه أتم درومه بنجاح .

 <sup>(</sup>٣) تناولنا تاريخ هذا الوياه ووصف مناظره في الشرق والغرب في فصل خاص في كتابنا مصر الإسلامية ( ص ٨٨ -- ٩٥ ).

أيما عصف . فقد ذكر أن الوباء لبث فى بلده ألمرية أشهراً وأحصى من موتكل يوم بسبعين . ثم يقول : « وأين هذا العدد مما بلغنا عن غيره من بلاد المسلمين والنصارى فقد بلغنا على ألسنة الثقات أنه هلك فى يوم واحد بتونس ألف نسمة ومائتا نسمة ، وجلله بجزيرة ميورقة فى يوم أربعة وعشرين من شهر مائة ألف نسمة . وهكلا كان سائر البلاد صغيرها وكبيرها على ما تأتى إلينا هذا .

ولم يمض طويل على ذلك حتى سنحت لابن خللون فرصة النزول إلى ميدان الحياة العامة، إذ استدعاه أبو محمد بن تافر اكين طاغية تونس يومئذ، لكتابة العلامة عن محجوره وأسيره السلطان الفتى أني إسحاق ؟ وكتابة العلامة هى التوقيع باسم السلطان وشارته على المخاطبات والمراسم الملكية ؟ وكان المؤرخ يومئذ حدثاً دون العشرين .

 <sup>(</sup>١) اطلمنا على هذه الرسالة ضمن مجموعة خطية بمكتبة الإسكوريال وعنوائها
 وتحصيل غرض القاصة في تفصيل المرض الوافه و ورقم هذه المجموعة ١٧٨٥ الغزيري .

# الفضِلالثِّاني

## ابن خادون فی بلاط فاس

أو ضاح إفريقية السياسية في الترن الثانن . بنو حقص وبنوعبد المواد وبنو مرين .

السلطان أبو الحسن واستيلاؤه على تونس . أحوال الدول والتصور المفرية في هذا المصر .

" تأثر الحركة الفكرية بالمتلورات السياسية . أحية ابن خلدون في النزوج إلى المغرب .

فراده من تونس . اتصاله بالسلطان أيتمنان ملك المغربالأقصى . توليته الكتابة والتوقيع .

أطاعه ونفسه الوثابة . خوضه لنهار الدسائس . اتهامه بالتأمر . سبته و عبته . إفراج الوزير الحسن . عدوته السلطان أي وظائفه . أنهازه المفرص وانقاديه على الوزير الحسن .

دهوته السلطان أي سالم وتآمره على السلطان منصور . جلوس أبي سالم وتوليته كتابة المسر والإنشاء الابن خلدون . شعر ابن خلدون ونثره في هذا السهد . و لايته خلطة المظالم .

مقوط أبي سالم وصمرعه . تقلب الوزير عمر بن عبد الله على الدولة . انضواء ابن خلدون مقوط أبي سالم الردلة . انضواء ابن خلدون حمر تعد المقولة المسراء الله الإندلد

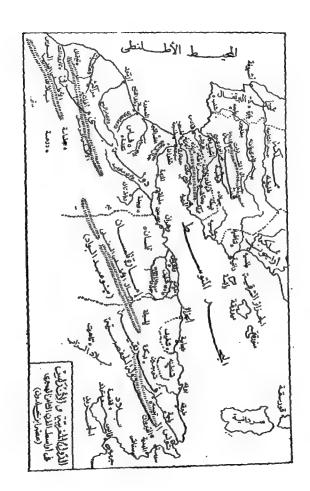
#### - 1 -

ويجدر ينا قبل أن نتتبع المؤرخ فى أدوار حياته العامة ، وتقلباته فى دول المغرب وقصوره ، أن نذكر كلمة عن أحوال هذه الدؤل والقصور فى عصر ابن خلدون .

كانت إفريقية والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى ، منذ أواسط القرن السابع الهجرى مسرحاً لطائفة من الثورات والانقلابات السياسية العنيفة . ومجب أن نذكر أولا أن إفريقية تعنى هنا مملكة تونس الممتلة بين خليج قابس شرقاً والحزائر وتاهرت غرباً . وكان مبعث هذه

الانقلابات العنيفة ، انهيار دعائم الدولة الموحدية الكبرى في المغرب والأندلس ، وظهور قوات سياسية جديدة ، أخذت في اقتطاع أطرافها، وإقامة دول وإمارات جديدة على أنقاض سلطانها . وكانت إفريقية أول قطر كبير من أقطار الحلافة الموحدية ، ينفصل عنها ، ويعلن استقلاله، وذلك في سنة ٦٢٧ هـ ( ١٢٣٠م ) ، على يد الأمبر أبي زكريا محيى ابن والى إفريقية السابق الشيخ أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص عمر ابن يحبي الهنتائى ، ومن ثم فقد عرفت الدولة الحديدة ، التي اتخذت من تونس عاصمة الولاية الموحدية القديمة ، مقرآ لإمارتها ، بالدولة الحفصية . واشتد ساعد هذه الدولة الحفصية الحديدة بسرعة وغلبت على سائر أمصار إفريقية القديمة . وحدث بعد ذلك بقليل ، أن تمكن بنو عبد الواد ، وهم بطن من بطون زناتة ، من الاستيلاء على تلمسان قاعدة المغرب الأوسط ، وأقاموا بها إمارة مستقلة ( سنة ١٣٣٣هـ) وأخذوا بقيادة زعيمهم الةوى يغمراسن بن زيان يعملون على توسيع إمارتهم ، حتى شمل سلطانهم معظم أراضى المغرب الأوسط . وظهر بنو مرين في نفس الوقت، وأخلوا في الإغارة على شمالي المغرب الأقصى، وانتزعوا أراضيه تباعا ، حتى استولوا على مدينة فاس فى سنة ١٤٨هـ (١٢٤٨ م) ، وجعلوها مقر إمارتهم . واستمروا بعد ذلك في صراع مستمر مع بقايا الدولة الموحدية المحتضرة ، حتى استولى عميدهم ، ومؤسس مجدهم الحقيقي السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق على حضرة مراكش ، عاصمة الحلافة الموحدية ، وذلك فى المحرم سنة ٣٦٦٨

( ١٢٦٩ م) ، وانتهت بذلك دولة الموحدين ، وقاءت على أنتاضها بالمغرب الأقصى ، دولة بني مرين القوية الزاهرة ، وحاضرتها فاس ، حاضرة المغربالعلمية . وهكذا كان أكبر غنم في تراث الدولة الموحدية المهارة لبي مرين . وكانت دولهم أعظم الدول الحديدة وأقواها ، تشمل المغرب الأقصى وسبنة ، وجزءاً من الغرب الأوسط ، وأحيانا جبل طارق في الضفة الأخرى من البحر . ذلك أن عامل بني مرين السلطان أبا يوسفيعةوب، عبر إلى الأندلس مرارًا ، نصرة لابنالأهمر صاحب مملكة غرناطة ، ولدولة الإسلام بها ، وغزا أرض النصارى، · وهزمهم أكثر من مرة ، مجددا بذلك عهد الحهاد المشترك بن المغرب والأندلس ، وتونى فى سنة ٦٨٥ ه ( ١٢٨٦ م ) . وتعاقب من بعده على العرش عدة من الملوك الأقوياء . وكان على عرش فاس فى العصر الذي نتحدث عنه السلطان أبو الحسن المريني ، تولى الملك بعد وفاة أبيه السلطان أبي سعيد سنة ٧٣١ ه ( ١٣٣٠ م ) . وكان بجيش بأطاع ومشاريع كبيرة . فني سنة ٧٣٣ هـ غز ا جبل طارق وافتتحها من أيدى الإسبان . ثم زحف على المغرب الأوسط ، وما زال يفتتح ثغوره تباعاً من يد بني عبد الوادحي استولى على تلمسان قاعدة ملكهم سنة ٧٣٧ هـ. وبذا امتدت دولة بني مرين شرقاً حتى حدود إفريقية (تونس) . وأخذ السلطان أبو الحسن بعد ذلك يتطلم إلى فتح إفريقية من يد بني حفص أصهاره وأصدقائه ؛ فسار إلها في أوائل سنة ٧٤٨ هـ بعد أن عقد لابنه السلطان أنى عنان على المغرب الأوسط . واستولى على



تونس من يد سلطانها عمر بن أبي يحيى ، ولبث نحو عامين في تونس يوطد شنومها ؛ ولكن الثورة سرت أثناء غيابه إلى المغرب الأقصى وخرج كثير من الثغور عن طاعته ، وبلغه تحفز ولده السلطان أبي عنان لانزاع العرش ، فاختار ولده الفضل لولاية تونس ، وغادرها سنة العرب الأقصى . وفي ذلك الحين كان ينو حفص قد استجمعوا أمرهم لاسترداد ملكهم ، وظاهرتهم الثغور وبايعتهم ؛ فلما غادر أبو الحسن تونس، زحف عليها المولى الفضل بن السلطان أبي يحيى ، واستولى عليها ، واستولى عليه الوزير أبو محمد عبد الله بن تافراكين ، وانتزع منه العرش ، وأقام فيه أخاه الطفل أبا إسحق بن أبي يحيى في كفالته وتحت استبداده ، وأقام فيه أخاه الطفل أبا إسحق بن أبي يحيى في كفالته وتحت استبداده ،

هكذاكانت أحوال الدول المغربية في منتصف القرن الثامن الهجرى: كانت الثورات والانقلابات السياسية دائمة لاتنقطع ؛ والدول تتعاقب بين مخطف المتغلبين والأسر ؛ وكانت تقوم إمارات صغيرة متعاقبة ، في القواعد والثغرر الوسطى مثل بجابة وقسنطينة ، وبونه ، وتامسان ، وتضطرم حول امتلاكها معارك لانهاية لها ، فكانت عروش المغرب يومئد تهيز كلها في يد القدر ؛ وكانت قصوره لذلك مهيط الأطاع ، ولمنافسات ، ومكن المنسائس والمكايد ، ومطمح أنظار المتغلبين والمتنافسين في طلب الرياسة والملك؛ وكانت العروش والإمارات دائمة المتغلب والتداول ، والحروب والمعارك الأهلية دائمة المضرام بين مختلف

الأسر أوفروع الأسرة الواحدة . ومع ذلك فقد كانت هذه القصور المضطربة تسطع في فترات السلم التمليلة . وتتنافس في العهاء والبلخ ، وتجتذب إليها رجال التفكير والأدب . وكان بنو حفص ، وبنو مربن بالأخصملاذ العلماء والأدباء، يلتفون-ولهم ويستظلون برعايتهم ويتقلبون في نعمهم ، ويتولون لديهم مناصب النفوذ والثقة . ونلاحظ في تاريخ المغرب في هذه الحقبة أن الحركة الفكرية تزدهر وتستقر، وتنتقل طبقاً لأحوال الدول وتقلباتهاء وأنها كانت كالدول دائمة الاضطراب والتنقل، وأنها لاتكاد تحتشد حول قصر معنن ، حتى تهرع إلى غيره كلما انتابه الوهن والانعلال . وكما أن الحركة الفكرية كانت يومئذ في المغرب دائمة الاحتشاد والتنقل حول دوله وقصوره ، فكذا كانت دائمة التردد بين المغربو الأندلس . وكانت غر ناطة لاتزال مهد حركة فكرية زاهرة ، ولكن الأندلس كانت تضيق يومثل بعلمائها وأدبائها ، خصوصاً بعد أن اقتطعت بملكة قشتالة النصر انية أطرافها، واستولت على كثير من أراضها وقواعدها ؛ ولذا نرى كثيراً من علماء الأندلس وأدبائها ينزحون إلى المغرب باعتباره أوسع آفاقاً ، وأوفى طمأنينة ، وأيسر رزقا .

فى معترك هذه الظروف والأحوال بدأ ابن خلدون حياته العامة . وكان بنوخلدون مذ نزحوا إلى إفريقية فى أواسط القرن السابع يستظلون برعاية يى حفص وينعمون فى ظل دولهم بمراتب الحاه والنفوذ . ولكن الدولة الحفصية كانت قد دخلت يومئذ فى دور اتحلالها ؛ وفقدت أسرة لمؤرخ كثيراً بما كانت تتمتع به من الحاه والرزق؛ وكان ابن خللون

يتطلع بلا ريب إلى اجتناء تراث أسرته ، وإحياء نفوذها الذاهب ، وكان رأسه الفتي يضطرم بلا ريب بكثير من الأطاع والمشاريع. وقد سنحت له أول فرصة النزول إلى ميدان الحياة العامة ، حيها استدعاه ابن تافراكن كما قدمنا لكتابة العلامة عن محجوره السلطان أبي إسحاق ، وذلك فى أواخر سنة ٧٥١ ﻫ (١٣٥٠م ) . ولكن ابن خلمون كان ينظر إلى ضعف حكومة تونس واضطراب أحوالها بعن التوجس والحزع. وكان بنو مرين قد غلبوا على تونس نحوعامين. كما قلمنا ، وشهد ابن خلدون قوتهم وضخامة سلطائهم؛ ولما غادر السلطان أبو الحسن تونس إلى المغرب الأقصى ، غادرها في ركبه معظم المفكرين والأدباء منشيوخ ابن خلدون وأقرانه، إيثاراً للعيش في ظل الدولة القوية الظافرة ، وطموحاً إلى اجتناء الحاه والرزق بعد أن نفقت سوقهما في تونس . وكانت مثل هذه الأمنية تجيش بنفس المؤرخ، ولكن أخاه الأكبر محمد صده حيناً عن تحقيقها ؛ فلما استدعى لكتابة العلامة أخذ يترقب الفرص للنزوح إلى المغرب الأقصى ليبحث وراء طالعه ، وليعالج تحقيق أطاعه حيثًا يلوح أفق المغامرة أوسع وأجدى .

#### - Y -

ولم يمض سوى قليل حتى سنحت هذه الفرصة ؛ فنى أوائل سنة ٧٥٣ ه ، زحف أمير قسنطينة أبو زيد حفيد السلطان محيى فى قواته وجموعه على تونس يريد الاستيلا عطما، واسترداد تراث أسرته من قبضة الوزير المغتصب ابن تافراكن فى جنده إلى لقائه،

وصحبه ابن خلدون في ركبه . ووقعت بن الفريقين عدة معارك كانت الدائرة فها علىجند تونس؛ وأنسل ابنخلدون خاسةمن المعسكر المهزوم ناجياً بنفسه ، وأقام حيناً في أبة عند بعض شيوخ المرابطين ؛ ثم قصد تبسَّة ،ثم ارتد إلى قفصة حيث وافاه بعض فقهاء تونس، وكان محاصرها عندئذ أمر قسنطينة؛ ومنهنالك سار معهم إلى بسكرة وقضى مها الشتاء : وفي ذلك الحين كان السلطان أبو الحسن ملك المغرب الأقصى قد توفي ( في ربيع الثاني سنة ٧٥٧ ) على أثر خروج ولده السلطان أبي عنان عليه واستيلائه على فاس . وكان أبوعنان أمراً وافر البأس والعزم ، فإكاد يستقر على عرش أبيه ، حتى أخذ بهيُّ العدة لافتتاح المغرب الأوسط واستعادة تلمسان التي افتتحها أبوه من يد بني عبدالواد ثم استعادوها لأعوام قلائل . فزحف علمها فى أوائل سنة ٧٥٣هـ واستولى علمها وقتل ملكها أبا سعيد؛ ثم استولى على مجاية بلخول صاحبها فى طاعته . وكان ابن خلدون يومئذ في بسكرة كما قلمنا ، فسعى إلى لقاء السلطان ألى عنان أثناء مقامه بتلمسان . ويقول لنا المؤرخ إن السلطان أكرمه بما لم يكن يحتسب ، ورده مع حاجبه ابن أبي عمرو إلى مجاية حيث شهد مراسم البيعة والتسليم . فلما عاد الحاجب إلى السلطان ، وهرعت معه الوفود إلى ركابه ، سار ابنخلدون معهم ، وحظى بلقاء السلطان ، وأكرم وفادته مرة أخرى . ثم ارتد السلطان إلى فاس عاصمة ملكه ، وارتد ابنخلدون مع ابن أبي عمرو إلى مجاية، وأقام هنالك عنده حتى أواخر سنة ٧٥٤هـ ( ۲۹۳۲ م) . ولبث ابن خلدون يسعى فى الالتحاق ببطانة السلطان أبى عنان حتى ظفر ببغيته . ويقول لنا ابن خلدون إن السلطان هو الذى استدعاه بعد أن جرى ذكره أمامه فى مجلس عقد لاختيار طلبة العلم ؛ فقدم إلى فاس سنة خس وخسين ، وعيته السلطان عضواً فى مجلسه العلمى ، وكلفه بشهود الصلوات معه . ومازال يدنيه ويقربه حتى عينه فى العام التالى ضمن كتابه وموقعيه . على أن ابن خلدون يقول لنا إنه قبل هذا المنصب على كره منه لأنه ليس من المناصب التى شغلها أسلافه ، أو بعبارة أخرى كان دونها مقاماً وخطورة . وفى ذلك مايدل على مبلغ ما كان مجيش به المؤرخ رغم حداثته من الأطاع الكبيرة . على أنه استعاع أثناء مقامه بفاس ، أن حسائف الدرس والقراءة ، على جهاعة من أكابر العلماء الوافدين إلها من الأندلس وباقى أقطار المغرب . ولاريب أنه استفاد كثيراً فى تلك الفترة ، وثبت معارفه نمواكبراً .

ومن ذلك الحين يغلو ابن خلدون شخصية ظاهرة في تاريخ الدول المغربية في هذا العصر ؛ تأخذ بقسط بارز في تطورات هذه الدول ، وتقلباتها ، وتشرك أحياناً في تدبر حوامل بهوضها أو سقوطها ، وأحياناً تتمر بينها ضرام الكيد والتنافس والقتال . وكان ابن خلدون لايز العندئذ في نحو الثانية والعشرين من عمره ؛ ولكن ذكامه ، وقوة نفسه وعرمه ، ووفرة أطاعه ، واعزازهبرات أسرته ، كانت تحفزه دائماً للمطلب المزيد من الحاه والنفوذ والرزق . وكانت أحوال الدول والقصور للخربية في ذلك العصر ، مما يفسح يجال المهوض والمتقدم للطامعن ذوى

الكفاية والعزم . وكانت صلة ابن خلدون بالسلطان أبي عنان ، وهو يومئذ أعظم سلاطين المغرب ، وانتظامه فى سلك ذلك البلاط العريض الزاهر ، مفتتح أفقه ، ويدأ ذلك النشاط السياسي الزاخر ، الذى لبث مدى ثاث قرن محمله بين دولة ودولة ، وبين قصر وقصر ؛ وبين الرفعة والسقوط ، والنم والمحن ، مراراً وتكراراً .

لم يمض على انتظام ابن خلدون فى بلاط فاس عامان حتى تحركت نفسه الوثابة إلى خوض غار الدسائس السياسية . ومع أن سيده وحاميه السلطان أبا عنان لم يدخر باعرافه وسماً فى إكرامه والعطف عليه ، ومع أنه ولاه رغم حداثته منصب الكتابة ، واختصه بمجلسه للمناظرة والتوقيع عنه ، فإنه لم يحجم عن التآمر عليه مع الأمير أنى عبد الله محمد صاحب عجاية الخلوع ، وكان يومند أسيراً فى فاس . ويروى لنا ابن خلدون تصمة هذه الموامرة فى عبارة غامضة (١١) ، ويعترف بما وقع بينه وبين أمير بحاية الأسير من التفاهم ، وأنه خرج فى ذلك التفاهم عن حدود المتحفظ . ولكنه يعتذر لنا بأنه حمل على ذلك بما كان بين أسرته وبين بي حفص الذين ينتمى إليهم الأمير الخلوع من الود القديم ، وأن السلطان أبوعنان يومند مريضاً فنمى إليه خير الموامرة ، وأن يوليه ابن خلدون يعمل لفرار أمير بجاية واسترجاع ملكه ، على أن يوليه ابن خلدون يعمل لفرار أمير بجاية واسترجاع ملكه ، على أن يوليه حجابته متى تم له الأمر (٢) . فأمر بالقبض عليه وألقاه فى غيابة السجن،

<sup>(</sup>١) كتاب العبر ج ٧ ص ٤٠٣.

<sup>(</sup>٢) كتاب السرج ٧ ص ١٧٤.

ومع أنه أطلق أمير بجاية فيها بعد ، فإنه أبق المؤرخ يرسف فى أغلاله . ونزلت بابنخلدون تلك المحنة التى ينسها إلى سعاية خصومه ، فى أوائل سنة ٧٥٨ ه (١٣٥٧ م) .

وقضى ابن خلدون فى ظلام السجن زهاء عامين طويلين ، وتضرع إلى السلطان أبى عنان مراراً أن يطلقه ، ولكن السلطان أعرض عن كل تضرع وشفاعة ؛ وأخيراً رفع إليه قصيدة طويلة فى نحو ماثى بيت يلتمس عطفه وصفحه ؛ وقد ذكر لنا منها الأبيات الآتية :

على أى حال لليـــالى أعاتب وأى صروف للزمان أغالب كنىحزناً أنى على القرب نازح وأنى على دعوى شهودىغائب وأنى على حكم الحوادث نازل تسلنى طوراً وطوراً تحارب

ملوتهم إلا ادكار معاهد لها فى الليالى الفايرات غرائب وإن نسيم الربح مهم يسوقى إليهم وتصيبى البروق اللواعب ويقول لنا ابن خلدون إن قصيدته وقعت من السلطان أحسن موقع. وكان أبو عنان يومئذ بتلمسان فوعد بالإفراج عنه . ولكن المرض اشتد به وتوفى قبل تحقيق هذا الوعد فى ذى الحجة سنة ٢٥٧ (أواخر ١٣٥٨ م) . فعندئذ بادر الوزير الحسن بن عمر القائم بأمر اللولة بإطلاقه مع جماعة من المعتقلين الآخرين ، ورده إلى سابق وظائفه ،

#### - r -

ولما توفى السلطان أبوعنان ، أقصى الوزير الحسن بن عمر، ولده وولى عهده أبا زيان عن الملك ، وأقام ولده الطفل السعيد على العرش ، واستبد بالدولة وقتلمنافسيه من الوزراء الآخرين ﴿ وَكَانَ أَبُوعَنَانَ حَيْهَا . انتزع العرش منأبيه قد قبض على أخيه المولى أبي سالم ونفاه إلى الأندلسي معرباقي إخوته؛ فلما توفي أبو عنان بادر أبوسالم بالسعى إلى استرداد العرش، وصر إلى المغرب بعد صعاب حمة، ونزل مجبال غُمَّارة ودعا بالملك لنفسه ، فاجتمعت إليه قبائل غارة وظاهرته على أمره ؛ وحدث فى الوقت نفسه انقلاب جدید بفاس ، وو ثب منصور بن سلمان وهو من عقب یعقوب ابن عبد الحق بالوزير الحسن فانتزع السلطة من يده ، وتوارى الوزير وسلطانه السعيد ، فحاصرهما المنصور . وألنى ابن خلدون في تلك الحوادث فرصة للعمل والظهور ؛ وقام خلالها بدور[لا محمد، وقدكان تصرفه فى حق السلطان أنى عنان بادرة سيئة تنم عن عواطف وأهواء ذميمة؛ بيد أنه لم يكن وليد خطأ مؤقت، بل كان بالعكس عنوان نزعة متأثلة في النفس ، وتمرة مبدا ٍ راسخ. كان ابنخلدون رجل الفرص ، ينهزها بأى الوسائل والصور ؛ وكانت الغاية لديه تبرركل واسطة ه ولايضره في ذلك أن بجزى الحبر بالشر والإحسان بالإساءة ، وهو صريح في تصوير هذه النزعة لا محاول إخفاءها ﴿ فَقَدْ أَطَلَقُهُ الْوَزَيْرِ. ابن عمر من الأسر، وأحسن إليهوأثابه؛ ولكنه ما كاد يرىوثوبالمتغلب منصور بن سلمان حتى ترك جانب الوزير إلى جانب خصمه ، وتولى

الكتابة للملك الحديد . بيد أن ولاءه لم يطل ؛ فإن السلطان أيا سالم نزل في غهارة وأخذ يدعو لنفسه ، فاتصل مبعوثه الفقيه ابن مرزوق باينخلمون سرًا، وسلمه من أن سالم كتابًا يرجوه فيه بث دعوته والتمهيد لعوده ، ويعده بأحمل خبر وحظوة، فقام ابن خلدون بالمهمة ، ومضى فى تحريض الزعماء والشيوخ حتى استجابوا لدعوة أبى سالم، وأحموا أَمْرِهُمْ عَلَى تَأْيِيدُهُ ؛ وَكَذَا وَافْقَ الْوَزِيْرُ ابْنِ عَمْرُ عَلَى طَاعَتُهُ بِعَدْ أَنْ أَجْهَلُمُ الحصار . ثم غادر ابن خلدون سيده فجأة مع نفر من الزعماء إلى معسكر السلطان أبى سالم ، وعرض عليه خطته لخلع منصور بن سلمان . وهنا يعتذر ابن خلدون عن تصرفه ، ويصرح لنا بأنه انحرف عن منصور لا رأيت من اختلال أحواله ومصر الأمر إلى السلطان (١٦). وسار أبو سالم في حموعه ، وابن خلدون في ركابه ، إلى فاس ، ففر منصور ابن سلمان عند مقدمه ؛ وجلس أبوسالم على عرش أبيه ( في شعبان سنة سنة ٧٦٠ ) وعن ابن خلدون كاتب السر والإنشاء ، وجعله موضع ثقته وعطفه . وينوه ابن خلدون بأنه نهيج يومئذ في كتابة الرسائل نهجاً جِلْمِيْدًا، إذْ تَحْرَر مَنْ قيود السجع وكان يومنذ قاعدة الكتابة، وعدل عنه إلى السهل المرسل؛ ويقول لنا أيضاً إن شاعريته تفتحت في هذه الفترة، فنظم الكثير من الشعر الذي 1 يتوسط بين الإجادة والقصور، وأنشد السلطان كثيراً من القصائد في مختلف المناسبات ، وكان من أشهر وأبدع ما نظمه في ذلك الوقت ، قصيدة طويلة رفعها إلى السلطان ليلة المولد

<sup>(</sup>١) كتاب العبرج ٧ ص ٢٠٥.

النبوى (سنة اثنين وستين ) يعلد فيها مناقب النبى الكريم ومعجزاته ، و تمتدح السلطان ، وهذا مطلعها :

أسرفن فى هجرى وفى تعسلىبى وأطلن موقف عبرتى ونحيبي وأبن يوم البن موقف ساعة لوداع مشغوف الفؤاد كثيب لله عهد الظاعنن وغــادروا للمي رهن صبابة ووجيب ر غربت رکائېم و دمعی سافح فشرقت بعدهم بمساء غروب سائل به طامی العباب وقد سری تزجیه ربح العزم ذات هبوب تهديه شهب أسنة وعزائم بصدعن ليل الحادث المرهوب حَى انجا ظلم الضلال بسعيه وسط الهدى بفريقها المغلوب ورفع إلى السلطان يوم وفدت عليه هدية ملك السودان ( سنة٧٦٧غ وفها الزرافة ، قصيلة أخرى ينوه فهابعهده ومآثره ، ويصف الزرافة عا يأتى 1 ورقيمة الأعطباف حالبة موشية بوشائح البرد وحشية الأنساب ما أنست في موحش البيداء بالقمود. تسمو بجبيد بالغ صمعدا شرف الصروح بغير ماجهد طالت رواوس الشامخسات به ولربمسا قصرت عن الوهد وقدكانت هذه الفترة بالنسبة لابن خلمون ، فيما يظهر ، عهد البيان والشاعرية ؛ فاشتهر أمر نثره ونظمه فى دواثر الأدب والشعر بالمغرب والأندلس يومئذ . ويصف لنا ابن الحطيب نثره ورسائله السلطانية بألما الحلج بلاغة، ورياض فنون، ومعادن إبداع يفرغ عنه يراعه الحرىء، شبهة البداءات بالحواتم فى نداوة الحروف وقرب العهد بجرية المداد ،

ونفوذ أمر القرمحة واسترسال الطبع. ويقول عن نظمه إنه ﴿ نَهْصُ لِهَا ا العهد قدماً في ميدان الشعر ونقده باعتبار أساليبه ، فانثال عليه جوه ، وهان عليه صعبه ، فأتى منه بكل غريبة ١٠٥٠.

ونلاحظ أن شعر ابنخلدون تبدو عليه مسحة من التصوف وأنه ينحو في كثير من قصائله منحي الشعراء الصوفيين في صوغ الغزل الروحي. وقد كان ابن خلدون على مايظهر يجيش بنزعة صوفية ؛ ويبدو مماكتبه في المقدمة عن التصوف وعن تجرد النفس من الاعتباراتالدنيوية والسمو إلى الملكوت الأعلى (٢) أنه قد درس التصوف وخواصه دراسة لابأس إَنْهَا، وسوف نرى فهابعد أن لابنخلدون رسالة خاصة فىالتصوف. ونحن : تورد خلال حديثنا نماذج من نظم ابن خلدون مما دونه في ١ التعريف، أو ترجمته لنفسه . وأما رسائله السلطانية فلم يدون لنا شيئاً منها ؛ غير أنه دون بعض رسائله الحاصة الى تبادلها مع ابن الحطيب، وفيها تبدو قوة بيانه ومقدرته في معالحة النثر المرسل (٣). على أنه يبدى مثل هذه المقدرة في البيان والتعبير بالأخص في مقلمته وحميع تاريخه حسما نبين بعد .

ولبث ابن خلدون فى كتابة السر والإنشاء والمراسم للسلطان أبيسالم زهاء عامين ، ثم ولاه و خطة المظالم ، (القضاء ) فأداها بقوة وكفاية . بيد أنحظوته لدى السلطان ضعفت واضمحل نفوذه ؛ وكانت المنافسات

<sup>(</sup>١) ابن الحليب في ترجمته لابن خلدون في والإحاطة في أخبار غرناطة و ونقلها المقرى في نقح الطيب ( بولاق ) ج ۽ ص ١٤ ۽ وما بعدها .

<sup>(</sup>٢) المقدمة ص ٣٩٠ وما بعدها وص ٤٢٧ .

<sup>(</sup>٣) تراجم هذه الرسائل فی کتاب العبر ، ج ٧ ص ٣٧٤ وما بعدها، و ص ٤٣٤ -

دائمة الاضطرام بينه وبنن رجال اللولة . وكان الخطيب ابن مرزوق صديق السلطان وزميله في المنفي متمكناً من حظوته ، يستأثر لديه بكل نفوذ ورأى ، حتى أصبح هو المتسلط على شئون الدولة والقابض على كل سلطة ، يتصرف بالأمر والنبي طبق هواه ؛ فكان هذا الطغيان يسخطرجال الدولة وأولى الرأى ،ويفسد ما بينهم وبين السلطان . وكان ابن خلدون ممن عمل ابن مرزوق على إضعاف حظوتهم ونفوذهم ، وكثرت منه الوقيعة والسعاية في حقه غبرة منه ، وخشية من نفوذُه ؛ وتمادى ابن مرزوق فى طغيانه حتى انفجر بركان السخط عليه وعلى السلطان من كل ناحية ، وأهم الزعماء والكبراء رأمهم على الخروج والثورة . وكان زعيمهم في ذلك الوزير عمر بن عبد الله صهر السلطان . وكان أبوه الوزير عيد الله بن على من قبله متمكناً في دولة بني مرين عجاهه وواسع ثراثه . فلما توفى سنة ستىن عند ولاية السلطان أنىسالم تطلع · الولد إلى تراث أبيه ، واستعان بابن مرزوق على تحقيق بغيته ، وزوجه السلطان بأخته ، وعينه كبير أمنائه ، وجعله موضع ثقته حيناً . ولكن استبداد ابن مرزوق بشئون الدولة كان خفظه ويذكى سخطه ؛ وكان السلطان مِن جهة أخرى يشك في صلته بأمير تلمسان وأنه يأتمر معه به حتى هم بنكبته غير مرة ؛ فلما تجاوز ابن مرزوق في طغيانه كل حد ، واختمرت فكرة الثورة، تفاهم عمر بن عبدالله مع قائد الحند،وو ثب بالقصر الملكى فى غيبة السلطان واستولى علىالبلد الحديد (العاصمةالحديدة )(١)

 <sup>(</sup>١) هى الشاحية الملوكية التي أنشأها بنومرين بجوار قاس من ناحيتها الثهالية لتكون مقرا لحكهم ، وما زالت أطلالها قائمة حتى اليوم .

ونادى بخلع أبي سالم وتولية أخيه تاشفين سلطاناً مكانه ؛ واضطرمت عندثذ نار الثورة فى كل ناحية ونهيت الخزائن الملكية ؛ وحاول أبو سالم أن ساجم الثوار لاسترداد عرشه ، ولكنه لما رأى تسرب أصدقائه من حوله إلى الظافر ، فر فى جاعة من صحبه ، فطارده الوزير عمر ، وقبض عليه وأمر بقتله؛ واستبد بالأمر واستأثر بكل سلطة ؛ وكان ذلك الانقلاب فى أواخر سنة ٧٦٧ هـ ( ١٣٦١ م )(1).

ماذا كان موقف ابن خلون إزاء ذلك الانقلاب الحديد ؟ كان كما عهدناه دائماً إلى جانب الخافر ينضوى تحت لوائه دون إحجام ولاتردد . فلما تم الأمر لعمر بن عبد الله أقره في وظائفه وزاد في إقطاعه ورزقه ولكن ابن خلدون لم ترضه هذه النتيجة . فقد كان على قوله ويسمو بطفيان الشباب إلى أرفع مماكان فيه » . وكانت له مع الوزير عمر منذ عهد السلطان أبى عنان صداقة قدمة ، وكان يعتمد على هذه الصداقة في التمكن لدى الوزير ويرى لها حقها عليه ، ويرجو أن تكون الفرصة قد منحت لتحقيق أمانيه في الظفر ممناصب الدولة العليا من حجابة أو وزارة . ولكن الوزير حمر لم محقق له أملا في ذلك . ولعله كان مخشى على مما تجيش به نفسه من المشاريع والحطط . فعندئذ غضب ابن خلدون واستقال من وظائفه ، واستاء منه الوزير وأعرض عنه وتنكر له ؛ فوجس ابن خطدون شراً ، واستأذن في السفر إلى بلده تونس ، فنعه الوزير من ذلك خشية أن عر في طريقه يعدوه أبي حدّو أمر تلمسان الى

<sup>(</sup>١) كتاب المبرج ٧ ص ٣١٧ - ٣١٤ .

اسرجهها بنو عبد الواد يومند؛ فاستفات ابن خلدون مسعود بن ماسى زميل الوزير عمر وصهره فأغاثه، وما زال بعمر، حتى أذن له فى السفر بشرط أن مجانب تلمسان، وألا يذهب إلها بأى حال ومن أى طريق. فاختار ابن خلدون الرحلة إلى الأندلس. وهنا محدثنا ابن خلدون لأول مرة عن زوجه وولده، فيقول لنا إنه صرفهم إلى أخوالهم فى قسنطينة. وإذا فقد كان ابن خلدون يومئذ منزوجاً وكان له أولاد. ولم يقل لنا أن هذا الزواج كان فى سنة ٤٧٥ ه، أعنى قبل ذلك بعشرة أعوام، فى الوقت اللى كان يتجول فيه فى المغرب الأوسط على أثر مفادرته لتونس سنة ٧٥٧ ه ؟ وكان عندئذ يقم ببجاية على مقربة من قسنطينة ، لوقس ما أسلفناه. وسنرى أن ابن خلدون يتتبع منذ الآن أسرته بالذكر فيشر إلى تقلامها معه فى مختلف المواطن ، بيد أنه لايقدم إلينا عها أو عن ولده أوحياته المزلية أى تفصيل آخر.

# الفصلالتيالث

### رحسلة الأندلس

عمد بن الأحمر ملك غرفاطة ووزيره ابن الخطيب . نكبة ابن الأحمر ووفوده مع وزيره المؤلف المنتجانس ملك المغرب لنصرة مليكه . ابن الخطيب وابن خلفون . استهاض طلك المغرب لنصرة مليكه . ابن الخطيب وابن خلفون . استرداد محمد بن الأحمر لعرشه ورده ابن الخطيب إلى وظائفه . سفه ابن خلفون إلى غرفالة . توثي الصلة بيته وبين ابن الأحمر . إرساله سفيراً إلى ملك قشتالة . وبن خلفون عن زيارته لإشبيلية موطن أجداده . فتور الملائق بيته وبين وبين

وكان ملك غرناطة ( الأندلس ) فى ذلك الحين محمد بن يوسف بن إسهاعيل بن الأحمر النصرى الملقب بالغنى بالله. ولى الملك عقب مقتل أبيه السلطان يوسف أنى الحجاج سنة ٥٧٥ه (١٣٥٤م) . وكان حدّ تا ضعيفاً فاستبد حاجبه أبو النعيم رضوان بشئون الدولة ؛ وكان من وزراته لسان الدين محمد بن الخطيب أعظم كتاب الأندلس وشعرائها يومئد ، وكان أي سللم من قبل . وكان السلطان أبو عنان قد قبض على أخيه السلطان أبى سالم وباقى أخوته ونفاهم إلى الأندلس كما قدمنا ، فأكرم السلطان عمد مثواهم ، وأحكمت بينه وبن السلطان أبى سالم صداقة متينة . فلما توفى السلطان أبوعنان ، واسترد أبو سالم عرشه فى شعبان سنة ستين، كانت الصلة بن الأمرين أوثيما تكون . بيد أنه لم تحض أسابيع قلائل على حلوس أنى سالم ، حتى تكب صديقه السلطان عمد وفقد عرشه فى أواخر حلوس أنى سالم ، حتى تكب صديقه السلطان عمد وفقد عرشه فى أواخر

رمضان سنة ستن. وكان أخوه امهاعيل توازره جهاعة من الزمماء في مقدمتهم صهر له من أبناء عمومته يدعى الرئيس عبد الله. فكان عبد الله يدعو لإمهاعيل سراً ويترقب الفرص الوثوب بمحمد. فانتهز فرصة غيابه ذات يوم عن غرناطة ، واستولى على قصبة الحمراء في جمع من أتباعه ، وقتل الحاجب رضوان ، ونادى بإمهاعيل أخى السلطان ملكاً مكانه. فقر محمد إلى وادى آش ، واعتقل وزيره ابن الحطيب (٢٠) وعلم أبوسالم بمحنة صديقه ، ورعى له عهد الصداقة والوقاء ، فأرسل إلى الأندلس

<sup>(</sup>١) لسان الدين بن الحطيب -- ذو الوزارتين - ، هو محمد بن عبد الله بن سعيه من أعظم كتاب الأندلس وشعرائها في القرن الثامن الهجرى . ولد بلوشة من أعمال غرناطة سنة ٰ۱۲۲۳ هـ ( ۱۳۱۳م ) و درس دراسة حسنة ، وبرز في النظم والإنشاء . ودرس العلب والفلسفة ؛ وعدم سلاطين غرناطة منذ حداثته فتولى ديوان الكتابة ثم الوزارة السلطان أبي الحجاج، ثم تولى الوزارة لولده محمد، وشاطره محنته ونفيه، فلها اسرَّ د محمد عرشه عاد إلى سابق مراتبه ، واستبد بشئون الدولة حيناً ، فلما أخذ نجمه في الأفول ، ونفوذه في الضعف، نزح إلى المغرب الأقصى و استظل بلواء سلطانها؛ و لكن خصومه سعوا إلى هلاكه، وماز الوا به حَيَّى اتَّهم بالزَّفدقة والكفر حسبما تفصل بعد ، فقبض عليه وأعدم وأحرقت جُنته سنة ٧٧٦ a ( ١٣٧٤م ) . و له ثبت حافل من الآثار أشهرها : الإحاطة في أخبار غرناطة ( ومنه جزءان بالإسكوريال ) . واللمحة البدرية في تاريخ اللمولة النصرية ( طبع بمصر) . ريحانة الكتاب(في الإسكوريال و الڤاتيكان) رقمِ الحاليف نظمُ الدول ( بالإسكوريالُ وطبع بتونس) . السحر والشعر ( بالإسكوريال) . الكُتيبة الكامنة في أدباء المائة الثامنة . أعمالُ الأعلام (أكاديمية التاريخ بمدريه) . مقتمة السائلءن المرض الهائل(بالإسكوريال) . كناسة الدكان بعد انتقال السكان ( بالإسكوريال ) . نفاضة الجراب (بالإسكوريال) . عمل من طب لمن حب ( بحز الله القرويين ) وغير ها . و له رسائل وقصائد لا تحصى . وقد أفرد له المقرى صاحب نفح الطيب من مؤلفه مجلدين كبيرين ألم فيهما بكثير من أخباره وآثاره . وراجم ماكتبناه عنه من ترجمة ضافية لحياته وآثاره في الحزء الأول من كتاب « الإحاطة ف أخبار غرناطة » المنشور بتحقيقنا ( القاهرة ١٩٥٦ ) ص ٣٠ – ٧٨

سفيراً يسعى لدى حكومة غرناطة فى إجازة السلطان المخلوع ووزيره المعتقل إلى المغرب . فنجح السفير فى مهمته ، وعاد إلى المغرب صحبة السلطان محمد والوزير ابن الحطيب ( المحرم سنة إحدى وستن )(١) واستقبلهما أبو سالم فى فاس أهمل استقبال، واحتفل بقدومهما فى يوم مشهود ، وأنشده ابن الخطيب يومئذ قصيدة رائعة، يدعوه فها لنصرة ملطانه وغوثه ، هذا مطلعها :

وهل أعشب الوادى ونميه الزهر عفت آيها إلا التوهم والذكر بأكنافها والعيش فينان مخضر فها أنا ذا مالى جناح ولا وكر

وشها :

قصدناك يا خير الملوك على النوى كففنا بك الأيام عن غلوائها وحدنا بذاك المجد فانصرم الردى ولما أتينما البحر نرهب موجمه ومنها :

سلا هل لدما من مخرة ذكر

وهل باكر الوسمىداراعلى اللوى

بلادى التي عاطيت مشمولة الهوى

وجوى الذي ربى جناحي وكره

وأنت الذي تدعى إذا دهمالردي وأنتالذي ترجى إذا أخلف القطر

لتنصفنا نما جنى عبدك الدهسر وقد رأينا منها التعسف والكبر ولذنا بذاك العزم فالهزم الشر ذكرنا نداك الغمر فاحتقر البحر

 <sup>(</sup>١) راجع فى تفصيل هذه الحوادث ، اللسخة اللبدية فى تاريخ اللمولة النصرية
 لاين الخطيب ص ١٠٨ وما يصدها، وإبن خلدون فى كتاب العبر ج ٧ ص ٣٠٦ و ما بعدها .
 وراجع كتابنا و نهاية الأندلس و تاريخ العرب المتنصرين » ص ١٣٦ و ١٣٠ .

ومثلك مزيرعىالدخيل ومن دعا يبالمرين جاءه العز والنصر وخذ يا إمام الحق بالحق ثأره فيضمنما تأتى به العز والأجر(١)

وكان ابن خلدون من شهود ذلك الحفل. ويقول لنا إن ابن الحطيب أركى سامعيه تأثراً وأسى . ويقول لنا ابن الخطيب نفسه إن القوم · كانوا يرتجفون تأثراً لأقواله . وكان هذا أول لقاء بن هذين الرجلن العظيمين اللذين تجمع بينهما مشامهات عديدة ؛ فقد كان كلاهما أستاد عصره وقطره في التفكير والكتابة ؛ وكان كلاهما شخصية بارزة في حوادث عصره يتصل منها بأوثق صلة ، ومحوض غارها متقلباً بن الظفر والمحنة؛ وكان كلاهما وزيراً ومستبداً ومستشاراً لأمراء عصره ، ومحرضاً لهم أوعليهم . كان ابن خلدون يشغل فى دول المغرب نفس المركز الذى كَان شَعْلُهُ ابن الحطيب في الأندلس؛ وقد استأثر في المغرب بزعامة التِمْكُمر والكتابة التي كان يستأثر بها ابن الخطيب في الأندلس . وقد جمعت بن الرجلين أواصر الحب والصداقة، وفرقت بينهما عوامل الغيرة والتنافس ؛ وكان كل منهما رغم ذلك يحترم صاحبه ويجله ، ويكبر مواهبه وخلاله . وقد ترجم كل منهما الآخر ، وذكره ما يُم عن خالص التقدير والإجلال ؛ فيقول لنا ابن خلدون في ترحمته لابن الخطيب إنه « بلغ فى الشعر والترسل حيث لامجارى فهما، وملأ الدولة عدامحه ، وانتشرت في الآفاق قلماه ﴾ ثم ينوه بعد ذلك بروعة رسائله السلطانية ، وبُعنْد همته في الإدارة والحكم (٢٣)؛ ويصف ابن الحطيب، ابن خلدون

<sup>( 1 )</sup> والقصيدة طويلة في نحو ثمانين بيتاً وقد ورد نصمها كاملا في الكتابين السابقين .

<sup>(</sup>٢) وردت هذه الترجمة خلال حديث ابن خلدون عن حوادث الأندلس 🛥

فى ترجمته إياه بأنه : دجم الفضائل باهر الخصل ، رفيع القدر ، ظاهر الحياء ، أصيل المحد ، ووق عن الضيم ، الحياء ، أصيل الحجد ، ووق عن الضيم ، صعب المقادة ، قوى الحاش ، طامح لقن الرياسة ، خاطب للحظ ، متقدم فى عدة فنون عقلية وتقلية ، متعدد المزايا ، سديد البحث ، كثير الحفظ ، صحيح التصور ... ي ( ) ويبدى كلا الرجلين فيا تبادلا من رسائل لصاحبه مثل هذا التقدير والإجلال .

وأقام السلطان محمد فى بلاط فاس حيناً ولم يلخر أبو سالم وسماً فى إكرامه . وتجول ابن الخطيب حيناً بالمغرب ، واستقر بسلا . وتوثقت بن ابن خلدون وهو يومئذ من أكابر رجال اللولة، وبين الأمر الخلوع روابط المحبة والصداقة ؛ وكان يقوم محلمته وقضاء مطالبه، فلما سافر الأمر إلى الأندلس ليحاول استرجاع ملكه تولى ابن خلدون أمرأسرته، ورعاية شئونها ومطالبها ؛ وتوفير راجتها . وعقدت أيضاً بينه وبعن ابن الخطيب أواصر صداقة بمت وتوثقت فيها بعد ؛ وحاول السلطان ابن الخطيب أواصر مداقة بمت وتوثقت فيها بعد ؛ وحاول السلطان شمتالة ، تنفيذاً لا مفاق عقد بيهما ؛ ولكن ملك قشتالة حيها سمع بمصرع السلطان أبي سالم ، أبدى فتوراً فى التنفيذ ، فاستغاث محمد عند ثلابالوزير عبد الله المتغلب على المغرب، ووسط لليه ابن خللون ، وكانت

والمغرب في كتاب العبر ج ٧ ص ٣٣٣ ومايعدها . وراجع حديث ابن خلدون عن مصرع ابن الحليب ج ٧ ص ٣٤١ .

 <sup>(</sup>١) وردت هذه الثرجمة فى كتاب و الإحاطة فى أخبار غرناطة ، و و و الله المقرى
 ن نفيح الطيب ( بولان ) ج ، ع س 112 وما بعدها .

له يومئذ لديه حظوة ، في أن يقطعه إحدى مدن الأندلس المغربية ، ليتخذها قاعدة للعمل والتأهب. فأقطعه رندة وأعمالها . وما زال يدبر أمره ، حتى استعاد ملكه من أيلتي خصومه ، ودخل غرناطة ظافر ٱ في حادى الآخرة سنة ٧٦٣ واستتب له الأمر ؛ واستقدم إليه أسرته من فاس ، واستدعىوزيره ابن الحطيب ورده إلى سابق مراتبه ونفوذه . ثم وقع الحفاء بن ابن خلدون وبن صديقه الوزير عمر ، فاعتزم الرحلة إلى الأندلس كما قدمنا . وإذ كانت بينه وبنن سلطانالأندلس ووزيرها صداقة حميمة ، وكان له علمهما أياد لا تنسى ، فإنا نستطيع أن نتصور العوامل التي دفعته إلى تلك الرحلة ، والآمال التي كان يعلقها. علها . فقصد إلى سبتة فيأو اثل سنة ٧٦٤ ه ، ثم جاز منها إلى الأندلس، وكتب إلى السلطان وابن الخطيب مقدمه . ولما أشرف على مرج غرناطة تلتِّي رسالة رقيقة من ابن الخطيب سهته فها بالقدوم . ووصل إلىغرناطة فى الثامن من ربيع الأول ، قاهم السلطان لقدمه، واحتى بلقائه وأكرم مثواه ، ونظمه في أهل مجلسه ، وقربه إليه ، وآثره بصحبته وأسهاره ، وعامله ابن الحطيب عمليي الإكرام والرعاية . وفي العام التالي ، أعيى سنة خمس وستين (١٣٦٣ م) ، أوفده السلطان سفيراً عنه إلى بيدرو القاسى (بَرَّة أو بطرة) ملك قشتالة(١) ، ومعه هدية فخمة ، لإتمام عقد الصلح وتنظم العلائق بينهما . فقصد ابن خلدون إليه في إشبيلية وكانت يومئذ عاصمة قشتالة ومستقر البلاط ؛ وتلقاه ملك قشتالة

 <sup>(</sup>۱) هو بيدرو أو بطرس القاسىملك قشتالة و لد سنة ١٣٣٤ و تونى سنة ١٣٦٩، و تولى
 العرش بعدوناة أيية الفونسو الحادى عشر سنة ١٣٥٠، وقد اشتهر بعمرات وطنياته و بطئه .

بالترحبب والإكرام . وهنا يقول لنا ابن خلدون ، إنه عاين آثار أسرته بإشبيلية ، وقدكانت كما رأينا منزل بني خلدون وفها سطع نجمهم حيناً؛ وإن ملك قشتالة وقف على تاريخ أسرته ؛ وعرفه به وبمكانته طبيب سهودی فی بلاطه یدعی إبراهم بن زرور ، وکان قد تعرف به فی مجلس السلطان أنى عنان من قبل حنن استدعاه لمعالحته ؛ ثم يقول لنا إن ملك قشتالة عرض عليه عندئذ أن يبقى في خلمته ، وأن يسعى لدى زعماء دولته لىر د إليه تراثأسرته بإشبيلية ولكنه أبى . ولا ريب أن ابنخلدون كان أذكى من أن يعتقد أن ملك قشتالة كان جاداً في عرضه . وأدى ابن خلدون مهمته بنجاح ، ووهبه ملك قشتالة ٩ بغلة فارهة عركب ثقيل ولحام ذهبين، فأهداهما إلى السلطان ؛ وأقطعه السلطان عند عوده قرية إلبىرة عرج غرناطة ، فزاد رزقه واتسعت أحواله ، واستأذن السلطان في استقدام أسرته من قسنطينة ، فبعث السلطان في استقدامها ، وعاش مدى أشهر أخر مع أسرته فى رغد وطمأنينة . ولكنه لم يلبث أن شعر بانقباض السلطان عنه ، وشعر بأثر ابن الخطيب وسعايته في ذلك من فتوره و إعراضه ؟ وكان الوزير نخشى بلاريب منافسته ومشاريعه. وأدرك ابن خلدون أنه لم يبق للبقاء موضع ، ووصلته فى الوقت نفسه وسالة من صديقه الأمبر أنى عبد الله محمد أمبر بجاية بأنه استرد ملكه ، وأنه يرغب في قدومه، فقرر مغادرة الأندلس عندئذ، واستأذن السلطان فأذن له ، وزوده بأعطيته ، وشيعه معززًا مكرماً ؛ فغادر الأندلس ، وركب البحر من ألمريّة إلى مجابة ، في منتصفسنة ٧٦٦هـ (١٣٦٤م) .

## الفصيل لرابع

### ذروة المنامرة

أبو هيد الله عبد أمير بجاية . استعادته لملكه و استدعائوه لاين علمون . تولى ابن محلمون الخميساية المطلقة في بجاية و مصرح الأمير محمد . الخميساية المطلقة في بجاية و مصرح الأمير محمد . انشواء ابن محلمون تحت لواء الظافر . الوحقة بينه وبين أبي العباس وفراره إلى بسكرة . المنظرة الموادث . استدعاء أبو حو سلطان تلمسان الابن خلمون ، اعتماره وقيامه بالمدود له . السلطان عبد العربز المريني يفتت تلمسان . اتصال ابز محلمون به وقيامه بلحرته . عمر ابن خلمون به وقيامه بلحرته . عمر ابن خلمون به وقيامه بلحرته . المعالمة بالمالمون به العرب وقيام المسلطان أبو المباس أحمد . الدمالس حول ابن محلمون ، سفر مإلى الأندلس . المعالمة بتسليمه . مصرح ابن المحليب .

لم ينس أمر بجاية إيان ظفره صديقه أيام محته ، ولم ينس أن هذا الصديق قد عانى من أجله عذاب الأسر والسجن . فكتب إليه يستدعيه ليشاركه فى أمره ، وليحق له الوحد الذى قطع على نفسه . وكانت بجاية من قبل من أعمال مملكة إفريقية ( تونس ) خاضعة للدولة الحفصية . فلما غلب على تونس الأمبر أبويحيى اللحيافى سنة ٧١١ ه كما قلمنا ، أقطع الثغور لأولاده، فتولى بجاية ايته الأمبر أبو زكريا، ولبث فى حكمها حتى وفاته سنة ٧٤١ ه ، وخلفه فى حكمها ولده الأكبر الأمبر أبوعبدالله عمد . ولما زحف السلطان أبو الحسن المريني على إفريقية ، خلع الأمير عمداً فيمن خلع من أمراء الثغور وننى إلى المغرب . ولما ثار السلطان

أبوعنان على أبيه أثناء غيبته في إفريقية، رد الأمراء المخلوعين ومهم الأمير محمد إلى ثغورهم لكي يعتر ضوا أباه عند العودة . فاستقر محمد حيناً آخر في حكم بجاية. ثم توفى السلطان أبو الحسن، وتم الأمر لأبي عنان . فانتزع مجاية من صاحبًا كرة أخرى، وأرغمه على النزول عنها إليه ونفاه إلى المغرب ، فأقام هنالك حتى قدم ابنخلدون على السلطان أبي عنان ودخل فى خلعته . وعندئذ توثقت أواصر الصداقة بين ابن خلدون والأمير المخلوع لماكان بن أسرتهما من سابق المودة ؛ والهم ابن خلدون بالتآمر مع صديقه ، وبأنه يدبر له سبل الفرار لكى يسترد إمارته ثم يوليه حجابته ، واعتقل ملت عامين حتى وفاة السلطان ألى عنان . فلما تولى السلطان أبوسالم ، سعى ابن خلدون لإطلاق الأمىر محمد وباقى الأمراء ا المنفين إلى ثغورهم، وكتب له الأمر محمد مخطه عهداً بأن يوليه حجابته متى استرد سلطانه . ثم سار الأمار إلى مجاية ومازال حتى انتزعها من يد خصومه ومنافسيه في سنة ٧٦٥ هـ ، واستوزر محمى أخا ابن خللون الأصغر ، وبعث إلى ابنخلمون وهو بالأندلس يستدعيه ليوليه حجابته وفاء بعهده . فاستجاب إليه وكان قد اعتزم الرحيل من الأندلس كما قلِمنا . ووصل إلى مجاية في منتصف سنة ست وستين .فاستقيله أمبر مجاية وأهلها أعمل استقبال . ويصف لنا ابنخلدون يوم مقلمه فى تلك العبارة الرنانة : ٥ فاحتفل السلطان بقدوى، وأركب للقائى ، وتهافت أهل البلد على من كل أوب مسحون أعطافى ، ويقبلون يدى ، وكان يوما مشهوداً ، وتولى ابنخلدون في الحال منصب الحاجب لسلطان بجابة، وقدكانت

الحجابة يومئذ في الدول المغربية حسب تعريفه هي: ﴿ الاستقلال بالدولة والوساطة بين السلطان وأهل مملكته لايشاركه في ذلك أحد ، . واستبد بشثون الدوَّلة ، ومضى يدبر الأمور بعزم ، ويعالج الفتن القائمة بحزم وذكاء ، ويتجول بين القبائل الحبلية يستخلص منها الحباية قسراً يقوة دهائه ونفوذه . ولكن الخصومة ما لبثت أن نشبت بنن أمير مجاية وبين ابن عمه السلطان أبي العباس صاحب قسنطينة . وكان أبوالعباس يتطلع إلى امتلاك بجاية ويشر على أمىرها القبائل والبطون المحاورة . ويقول لمنا ابن خلدون أيضاً إن الأمير عمداً لم محسن السيرة في أهل مجاية ، يل كان يرهقهم ويشدد الوطأة عليهم، حتى انحرفوا عنه واعترموا الحروج عن طاعته إجابة لتحريض أبي العباس . وفي سنة سبع وستين قصد أبو العباس في حموعه إلى مجاية ، وقاتل الأمير محمدًا بظاهرها وهزمه وقتله ، ودخل بجاية ظافراً . وكان ابن خلمون أثناء ذلك يلزم القصر في بجاية ، فلما كانت الدائرة على محمد ، خاطبه بعض الزعماء في تولي الأمر والدعوة لأحد أبناء السلطان ، فأبي وخرج كعادته إلى تحية الظافر، والانضواء تحت لوائه ؛ وسلم ابن خللون الملينة إلى أبي العباس، فأكرمه وأقره حيناً في وظيفته ؛ ولكن ابنخلدون شعر عما قليل بانحرافه ، فانصرف بإذنه إلى أحد الأحياء القريبة . ثم رأى أبو العباس بعد حين أن يقبض عليه، ففر ابنخلمون إلى بسكرة، فقبض أبوالعباس علىأخيه الأصغر محيى ، واعتقله ببونه ، وفتش بيومهم وصادر أموالم .

وهكذا اختنمت تلك المغامرة التي كان ابن خلدون مدبرها منذ البداية

وكانت من نفثات أطاعه؛ وكانت كسابقاتها دليلا على ما تجيش به نفسه من الأثرة، ونكران الصنيعة ، وانتهاز الفرص السانحة مهما كان انتهازها يتانى الوفاء والولاء والعرفان . كان ابن خلدون ينطق في خططه وأعماله عن احتقار عميق للعاطفة ، والأخلاق المرعبة ؛ وكان يسره مثل ذلك الروح القوى ، الذي أعجب به مكيافيللي فها بعد ، وتصوره في أميره الأمثل ؛ ذلك الروح الحرىء التابت الذي يقتحم كل ضعف إنساني ، ومحمل تواً إلى الغاية المرغوبة بأى الوسائل والخطط. ومحاول ابن خلدون أن يعرب عن ندمه وأسفه لتطور الحوادث على هذا النحو ، فيقول لنا في مكان آخر في حديثه عن أمبر مجاية التعس : ٥ فلما استدعائي هذا الأمر أبوعبد الله بادرت إلى امتثاله، ولو شاء ربك ما فعلوه، ولوكنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخبر، (١) . ولكن الذي لاريب فيه هو أن ابن خلدون كان مجوز في حوادث بجاية مغامرة من صنعه ، ومحاول اجتناء ثمار فرصة ترقبها وهيأها منذ بعيد ؛ ولاريب أن مقتل حليفه وسيده لم يضره ولم محزنه ، وقدكان معقد آماله أن ينضوى تحت لواء الظافر ، لولا أن أنكره الظافر ورغب عن خدمته تلك المرة .

وتحول ابن على عندئذ إلى بِسكرة لصداقة بينه وبين أميرها . ولبث هنالك يرقب الحوادث . وكان الأمير أبوحثُو موسى ين عبد الرحن سلطان تلمسان صهراً لأمير بجاية المقتول . وكان يطمح إلى فتح بجاية . فلما بلغه مقتل صهره بعث قواته إلى بجاية تحاول أخذها، ولكنها هزمت

<sup>(</sup>١) كتاب العبرج ٦ ص ٣٧٧.

هزيمة شيعة . وكتب أبو حمو على أثر ذلك إلى ابن خلدون يستلعيه من بسكرة ليوليه حجابته لما كان يعلمه من نفوذه فى مجاية وما حولها من القبائل . وأرسل إليه بالفعل مرسوم الحجابة ؛ وكتب إليه يرجوه فى السعى لبث دعوته واسيالة القبائل إليه . فاعتلر ابن خلدون عن قبول الوظيفة تلك المرة ، وأرسل أخاه يحيى ، وكان قد أطلق سراحه ، إلى سلطان تلمسان نائباً عنه ؛ ولكنه استجاب إلى بث الدعوة بين القبائل وتحويلها من جانب أبى العباس إلى جانب خصمه أن حمو . ويقول لنا ابن خلدون إن نفسه كانت قد سئمت يومئذ شاطر المغامرة وأهوال الوظيفة ، وزهدت فى غواية الرتب . واشتاقت إلى الدرس بعد أن الموس عن الميان السياسة والحدمات السلطانية . ولكن سترى أنه يعود إلى ميدان الحوادث وخوض المغامرات السلطانية مراراً أخرى .

وفى ذلك الحين وصلته رسائل منصديقه ابن الحطيب يعرب فها عن شوقه وحبه ، وبحدثه بأخبار الأندلس ، ثم عن جهوده الأدبية وكتبه الحديدة . فرد عليه ابن خلدون ، يعرب عن مثل شوقه وحبه، وبحدثه بأخباره ومحنته فى مجاية ، ثم عن أخبار المغرب وأخبار مصر كما وصلت إليد (11) . ويبلو فى هذه الرسائل ما يحمله كل من الرجلين للآخر من آيات التقدير والإجلال .

ولبث ابن طلون في يسكيرة يبث الدعوة لأبي حمو ويحشد القبائل في

<sup>(</sup>١) راجم هذه الرسائل في كتاب العبر ج ٧ ص ٤٢١ – ٢٥٠ .

جانبه . ويوالمها على أنى العباس؛ ويعمل من جهة أخرى على عقد أو اصر المتحالف بن أبى حمو وأبى إسحاق سلطان تونس . وكان بينه وبن أخيه أبى العباس جفاء وخصومة . وزادت متاعب أبى حمو مخروج أبن عمه أبى زيان عليه ، فضاعف ابن خلدون همته فى اسبالة القبائل إليه ؛ ثم خرج مع صاحب بسكرة وباقى الزعماء الذين اسبالهم فى قواتهم لنصرة أبى حمو ، وكان يتبيا لمحاربة خصومه (سنة ١٧٧١هم) ولكن أبا حمو هزم أمام خصومه مرة أخرى ؛ وارتد ابن خللون إلى بسكرة ، يستأنف جهوده لحشد القبائل إلى جانب أبى حمو ، وإحكام الصلة بينه وبن سلطان تونس . وفى العام الثالى، سار ابن خللون فى وقد من الرؤساء لزيارة أبى حمو والتفاهم معه على تدبير الحطة اللازمة . فاقيه بالحزائر ، وبتى لديه مدى والتفاهم معه على تدبير الحطة اللازمة . فاقيه بالحزائر ، وبتى لديه مدى حن ، وأنشده يوم الفطر قصيدة تهنئة يقول فها :

هذى الديار فحين صباحا وقف المطايا بينهن طلاحا لا تسأل الأطلال إن لم تروها عبرات عينك واكفا ممتاحا فلقد أخذن على جفونك موثقاً أن لايرين مع البعاد شحاحا ولكن ولاء ابن خلدون لأمير تلمسان لم يطل أمده ، وسرعان ما نحول عنه إلى عدوه ، يواب الحموع عليه بعد أن كان يوالها لتأييده ، فلك أن صاحب المغرب الأقصى السلطان عبد العزيز بن أبي الحسن خرج في جيوشه يومئذ يزمع غزو تلمسان ، وانتزاعها كرة أخرى من قبضة في عبد الواد . وكان الوزير عمر بن عبد الله قد استبد بشئون المغرب منذ مصرع السلطان أبي سالم سنة ٧٦٧ هـ كما قلمنا ، وأخذ يولي العرش منذ مصرع السلطان أبي سالم سنة ٧٦٧ هـ كما قلمنا ، وأخذ يولي العرش

ملوكاً وأحداثاً ضعافاً من بني مرين . فني سنة ٧٦٨ ه ولى السلطان عبد العزيز بن السلطان أبي الحسن ، وكان أسراً في اعتقاله ، وشدد عليه الحجر والاستبداد كعادته ؛ فأنف السلطان لذلك ، ووثب بالوزير عمر فقتله غيلة وفتك بذويه واسترد السلطة كاملة؛ ثم خرج بجيوشه للغزو فى تخوم المغرب الأوسط يقصد فتح تلمسان ، والقضاء على سلطة بني عبد الواد في المغرب الأوسط ؛ وكان ابن خلمون يقيم عندئذ في ضيافة أبى حمو . فلما بلغه مقدم ملك المغرب ، ورأى الطريق إلى بسكرة قد مُدت في وجهه ، وسرت الفتنة إلى كل ناحية ، خشى العاقبة على نفسه واستأذن أبي حمو في السفر إلى الأندلس ، فأذن له وبعث معه برسالة إلى ملك غرناطة ، وأسرع ابن خلدون إلى مرسى هنين ليركب البحر منها ؛ ولكن ملك المغرب أشرف عندئذ بجيوشه على تلمسان فغادرها أبو حمو إلى الصحراء لبحشد حموعه وأنصاره . ونمى إلى ملك المغرب أن ابن خلدون في هندن وأنه تحمل ودائع لأني حمو ، فأرسل في طلبه سرية من الحند ، فدهمته في المرسى وفتشته فلم تجد معه شيئاً ، وحملته إلى السلطان في ظاهر تلمسان ، فحقق في شأنه وعنفه على انسلاخه عن بني مرين وانضوائه تحت لواء أعدائهم . فاعتذر ابن خلدون بماكان بينه وبين الوزير عمر ، وشفع له أكابر اللولة الحاضرين ، ونوهوا بسابق خدماته لبي مرين ؛ ووعد السلطان بمعاونته على أخذ بجاية حين كاشفه برغبته فى فتحها ، فارتاح السلطان للملك وأطلق سراحه لليلة من اعتقاله ، فارتد إلى مكان في الصحراء يعرف برباط أبي مدين ونزل به حيناً يشتغل في عزلته بالقراءة والدرس .

و لما استولى السلطان عبد العزيز على تلمسان بعد أذ بقايل (سنة ٧٧٢هـ) استدعى ابن خلمون وعهد إليه بأن يبث دعوته بنن القبائل وأن بحملهم على مناصرته ومقاتلة عدوه أبي حو، فقبل ابن خالمون المهمة وأخذ يسعى لحشد القبائل واستهالتها لمحاربة صديقه بالأمس ، وانتظم فى سلك الحملة التي بعثها السلطان لمطاردة أبي حمو ، وأخذ يعمل تباعاً على سلخ القبائل عن أبي حمو بماكان له من النفوذ والدهاء بين الرؤساء والشيوخ؛ ولبثت جنود السلطان تقتني أثر أي حمو حتى دهمته في أعماق الصحراء ومزقت معسكره ، وفر أبوحمو وآله تحت جنح الظلام . وتخلف ابن خالمون بعدائذ لدى أسرته أياماً في بسكرة ، ثم قصد إلى السلطان عبد العزيز في تلمسان فأحسن استقباله وأكرم مثواء ؛ وأرساه ليعمل على تهدئة بعض الأحياء الخارجة في المغرب الأوسط وردها إلى الطاعة ؛ فصدع بالأمر ، ولكنه لم ينجبح فى مهمته فى تلك المرة ، فعاد إلى بسكرة واكتنى بمراسلة السلطان . وهنا وصلته الأنباء ممقدم صديقه ابن الحطيب على السلطان في تلمسان ، وقد غادر الأندلس فراراً من بطش مليكه سلطان غرناطة بعد ما فسدت بينهما العلائق . وكان ابن الخطيب حين استر د الغني بالله عرشه ، قد استأثر لديه بكل سلطة واستبد بشئون الدولة ، ونقم الغنى بالله منه هذا الاستئثارفعول على نكبته؛ وشعر الوزير بتجهم الحو مزحوله، فتحيل فى الخروج من الأندلس ، وعبر البحر إلى المغرب ، فاستقبله الــلطان عبد العزيز أحمل استقبال وأغدق عليه عطفه وعطاءه . وكتب ابن الخطيب إنى حديقه ابنخلدون فى بسكرة يقصعليه خبره ،ويعتب عليه فيها كان منه فى حقه حين مقامه بالأندلس , فرد عليه ابن خالمون برسالة موثرة يوكد فيها نقديره وحبه لصديقه . ويدفع عن نفسه مظنة الفتور والوقيعة وسهته ينجاته (١) .

ولبث ابن خلدون مقما فى بسكرة . والمغرب الأوسط يضطرم بالثورة في حميم نواحيه . فلم حشد السلطان حملة لمحاربة الثوار بقيادة وزيره أني بكر بن غازى ، عهد إلى ابن خلدون باسبالة القبائل كرة أخرى، فأدى ابن خلدون المهمة ، وقصد إلى الوزير عكانه بالصحراء في شيوخ ِ القبائل الموالية ، ونظم معه برنامج العمل ، ثم عاد إلى بسكرة ، ولكن مقامه بها لم يدم طويلا لأنه آئس في نفس أميرها تغيراً و نزوعاً إلى الثورة، فغادرها مع أسرته ليلحق بالسلطان في تامسان ، ولكنه ما كاد يصل إلى منتصف الطريق حتى بلغته الأنباء بوفاة السلطان وتولية ابنه السعيد مكانه في كفالة الوزير ابن غازي وقفول البلاط كله إلى فاس. (سنة ٧٧٤هـ)، فعول عندئذ على اللحاق بفاس واخترق الصحراء مع بعض البطانة ، والحند . واعترضت القافاة أثناء مسرها عصابة من الأشقياء بتحريض أبى حمو الذي عاد فاستولى على تلمسان على أثر وفاة السلطان ، ونهبت متاع المسافرين ؛ ولم ينج ابن خلدون وأسرته من الأسر إلا بصعوبة، ووصل أخيراً إلى فاس في حال سيئة ، فأكرمه الوزير ابن غازى وغمره برعايته ، وأقام في فاس موقراً مبجلا .

وفى ذلك الحن ساءت العلائق بن بلاط فاس و بلاط غر ناطة . وكان

<sup>( 1 )</sup> كتاب العبر ج ٧ ص ٢٢٤ - ٢٢١ د

الهزير ابن الحطيب قد التجأكما قدمنا إلى بلاط ببي مرين فطلب سلطان الأندلس محمد بن الأحمر الغني بالله إلى بلاط فاس إبعاده وتشريده ، فأبى الوزير ابن غازى ، وأطلق بعض اللاجئين من أسرة بني الأحمر لمناوأة حكومة الأندلس ؛ وأطلق ابن الأحمر زعيمين من زعماء المغرب كانا بالأندلس ، وهما عبد الرحن بن يفلوس من أمراء بني مرين والوزير مسعود بنماسي لمناوأة حكومة فاس ، ويعثهما في أسطوله إلى شواطئ المغرب، وحاصر جبل طارق وهي يومثذ من أملاك بني مرين . وبعث الوزير ابن غازى جيشاً لمقاتلة الخوارج بقيادة ابن عمه محمد . ابن عبان . فاسماله ابن الأحمر وحرضه على الحروج ، فأعلن الثورة ودعا للأمر أحمد ابن السلطان أبى سالم وكان يوسئذ معتقلا بطنجة ، وزحف لقتال ابن غازى . ونشبت بىن الفريقىن معارك طاحنة بقرب مكناسة ، وارتد ابن غازى إلى فاس وتحصن بها . فحاصره الحوارج حتى أذعن وخلع الملك السعيد . واستولى السلطان أبو العباس أحمد على فاس ( أوائل سنة ٧٧٦هـ) وعن ابن عثمان لحجابته . واستولى الأمير عبد الرحمن على جنوب المغرب تنفيذاً للاتفاق المعقود .

وكانابن خلدون أثناءهذه الحوادث مقيا بفاس؛ ظا وقع الانقلاب، وشى بعضهم فى حقه إلى الحكومة الجليلة، فقبض عليه حيناً ثم أفرج عنه بسعى صديقه الأمر عبد الرحمن سلطان الجنوب. وعندئذ أزمع الرحلة إلى الأندلس بعد أن أغلقت فى وجهه قصور المغرب كلها. ويقول لنا ابن خلدون إنه أراد اللحاق بالأندلس طلباً للاستقرار والدرس. والظاهر

أن فكرة الانقطاع إلى البحث والتأليف كانت قد اخسرت في ذهنه يومئذ، وقد رأيناها تساوره مرارآ منذ اضطربت شئون السياسة واكفهر أفق المغرب، فجاز البحر إلى الأندلس في شهر ربيعسنة ٧٧٦ه تاركاً أسرته بفاس . ولني في طريقه وزير ابن الأحمر أبا عبد الله بن زَمرك ذاهباً إلى بلاط فاس للمهنئة والمفاوضة ، فرجاه أن يسعى لإطلاق أسرته ولحاقها يه . ولكن ابن خلدون لم محسب حسابا للصائس خصومه ، ولم يلر مخلده أنه سيغدو موضعاً للمساومة في مفاوضات شائنة . ذلك أن بلاط فاس توجس شراً من استقراره بالأندلس، وألى أن تلحق به أسرته لما نمى إليه من أن ابن خلدون علىصلة مع الأمر عبد الرحمن ، وأنه محرضه على غزو المغرب . وقد جاء ابن زمرك من جهة أخرى إلىفاس ليسعى في تنفيذ عهد شائن قطعه سلطان المغرب الحديد على نفسه لابن الأحمر ضمن شروط التحالف بينهما ، وهو أن يعمل على نكبة الوزير ابن الخطيب ومصرعه ، وذلك لماكان يعتقده ابن الأحر من أن وزيره السابق كان محرض السلطان عبد العزيز على محاربته . وكان بالاط غرناطة قد مهد لنكبة الوزير السابق بتدبير أنهامه بالزندقة والحروج على شريعة الإسلام ، وسلوك مذهب الفلاسفة الملحدين في بعض رسائله . وكان تلميذه ومنافسه القديم الوزير ابن زمرك أكبر مروج لهذه الدعاية . وقد حل في بلاط فاس ليسعى إلى إتمام ما بدأ به من العمل على سحق ابن الحطيب وإهلاكه . وعندئذ رأى بلاط فاس الفرصة سانحة لمطاردة ابن خلدون ونكبته ، فطلبإلى ابن الأحمر تسليمه محجة أنه كان يسعى

لإنقاذ ابن الحطيب، فأبي ابن الأحمر، ولكنه ارتضى أن بجنز ابن خلدون إلى إفريقية . والواقع أن ابن خلدون سعى لإنقاذ صديقه . وكان ابن الحطيب حمن اضطرام الثورة قد لحأ إلى البلد الحديد (ضاحية فاس) مع الوزير ابن غازى ؛ فلما استولى السلطان الحديد على فاس قبض عليه وكان يرسف في سحنه حن قدم ابن زمرك على السلطان يسعى لإهلاكه . ويقول لنا ابن خلدون في و التعريف، . إنه خلال إقامته بفاس كتب إليه ابن الحطيب من محبسه مستصرخاً ومتوسلا ، وانه خاطب في شأنه أهل الدولة عن طريق بعض الوزراء ذوى النفوذ ، فلم ينجح المسعى(١) . وأصغى السلطان بالعكس إلى سعاية ابن زمرك ، وعقد مجلساً من رجال الدولة وأهل الشورى ، واستدعى الوزير السجن لمواجهة الهم المنسوبة إليه وأخصها الزندقة والحروج على شريعة الإسلام استناداً إلى بعض. رسائله . وذهب المفكر والكاتب والسياسي العظم ضحية المساومة الشائنة ، وضحية التعصب والحهل ، إذ أدين في تهمة الزندقة ، وعلب وأفتى بعض الفقهاء السفلة بقتله ، ودس عليه الوزير سلمان ابن داود بعض الأوغاد فقتل خنقاً في سحنه، وأحرقت جنته تجاه باب المحروق من أبواب فاس التارنخية ( جمادى الأولى سنة ٧٧٦ هـ ــ ١٣٧٤ م ) ودفن على مقربة منه حيث ما يزال يثوى فى نفس قبره

 <sup>(</sup>١) و التعريف و أو ترجمة ابن خلدون لنفسه الى سوف تتحدث عنها فيما بعد
 (القاهرة ١٩٥١) ص ٢٢٧ .

إلى اليوم<sup>(١)</sup>. وقد نقل إلينا ابن خلملون هذه الأبيات الموثرة من شعر كان ينشده ابن الحطيب فى سحنه يرثى به نفسه :

بعدنا وإن جاورتنا البوت وجننا بوعظ ونحن صموت وأنفاســــنا سكنت دفعة كجهر الصلاة تلاه القنوت وكنا عظاماً فصرنا عظماما وكنا نقوت فها نحن قوت وكنا شموس مهاء العــــلا غربن فناحت عليها البيوت فكم خدلت ذا الحسام الظبا وذوالبخت كم جدالته النجوت وكم سيق القر في خرقة فتى ملئت من كساه التخوت فقل للعدا ذهب ابن الخطيــــبوفاتومنذا الذي لايفوت فن كان يفرح منكم لــه فقل يفرح اليوم من لا يموت

 <sup>(</sup>١) كتاب العبر ج ٧ ص ٣٤١ ~ ٣٤٦ . وقد زرنا قبر ابن الحطيب مرراً خلال
 رحلانا المتوالية إلى المفرب . وقد عنيت حكومة المفرب أخيراً بأن تقيم فوق القبر ضريحاً الاثقاً .

# الفضالخامش

### العزلة والتأليف

هود ابن خلدون إلى المغرب وعود الصلة بينه وبين أبي حو . التجاؤه إلى أحياء بميءريف . بدؤه بكتابة مؤلفه التاريخي . كتابة المقدة وتاريخ العرب والبربر . سميه إلى العودة إلى تونس . السلطان أبو العباس يأذن له . عوده إلى وطته . إتمامه لمؤلفه ورفعه إياه إلى السلطان . قصيدته يوم الإهداء . العمائس من حوله . خروجه مع السلطان في الحداث الحربية . اعترامه الرحلة إلى المشرق وركوبه البحر . زهده في الحياة السياسية .

وهكذا كاد القدر مجمع بين الصديقين لآخر مرة في ظروف مماثلة ، وكاد بنكمهما بمحنة مشركة . ولكن أبن خلدون كان أسعد حظاً من صديقه ، إذ اكتنى سلطان غرناطة بأن يقصيه عن أرضه وأن يرده إلى إفريقية . فنزل في مرسى هُننَن على مقربة من تلمسان حاثراً جزعاً لايعلم أنى يقصد . وكان أخوه محيي قد عاد إلى خدمة أبي حمو أمير تلمسان، ولكن أبا حموكان ناقماً عليه أبما نقمة ، لما فعله في حقه مرة بعد مرة ، فتركه شريداً في هنن . ثم شفع في أمره صديقه محمد بن عريف من روساء بي عريف، وما زال حتى عفا عنه أبو حمو وأذن في قدومه إلى تلمسان ، فقدمها في عبد القطر سنة ٢٧٧ه ( ١٣٧٤م ) ، وأراد أن يتقطع للدرس والقراءة، ولكن أبا حمو انتدبه مرة أخرى ليدعوله بين القبائل ، فاضطر ابن خلدون أن يتظاهر بالقبول مرغماً . ولكنه كان على ما يظهر ، قد عاف غار السياسة بهائياً ، فاكاد يغادر تلمسان حتى

ولى شطر قبلة أخرى ، وسار إلى أحياء بني عريف فنزل لديهم، ولحقت به أسرته بعد قليل من تلمسان ، واعتذر له أصدقاؤه لدى السلطان أبى حمو، وأكرم بنوعريف مثواه أبما إكرام، وأنزلوه مع أسرته بأحد قصورهم في قلعة سلامة من أعمال توجين (١)؛ فقطع ابن خلدون في ذلك للقر النائى مدى أربعة أعوام ، ونعم لأول مرة بالاستقرار والهدوء للستمر ، بعيداً عن عمار السياسة والنسائس السلطانية ، ومحاطرالتجوال والحملات الحربية ، وألتى لأول مرة فرصة واسعة للبحث والندس. وفى تلك الفترة الحادثة بدأ ابنخلدون بكتابة مؤلفه التاريخي، وكان يومثذ في نحو الحامسة والأربعين من عمره، وقدنضجت مباحثه ومطالعاته، وكان قد قطع نحو ربع قرن مخوض معترك السياسة ، متقلباً في خدمة القصور والدول المغربية ، يدرس شئونها ونظمها ، ويستقصي سبرها وأخبارها ، وبجوس خلال الهضاب والصحارى المغربية ، متغلغلا بن القبائل العربرية ، يدرس طبائعها وأحوالها وتقاليدها في الحياة العامة والحياة الخاصة . وكان ذهنه الحصب ، فضلا عن هذه الدراسة العملية، يفيض بيَّار الاطلاع الشاسع ، الذي كان بجد في تحصيله كلما سنحت الفرص في مكاتب المقرب والأندلس . وكانت عزلة مباركة موفقة ؛ في ذلك المقام النائى المنعزل ، كتب ابن خلدون مقدمة تاريخه ، وألم تلك المباحث والنظريات التي تتبوأ مكانة رفيعة بنن ثمرات التفكير

 <sup>(</sup>١) تقع هذه المنطقة جنوب إقليم قسئطينة حول مدينة تاوغورت على نحو مائة ميل من حدود تونس الغربية .

البشرى ، ووهب تراث العربية ذلك الأثر الحالد الذى ما زالت تزهو يه وتفاخر ، وانهى ابن خلدون من كتابة مقدمته الرائعة لأول مرة في منتصف سنة ٧٧٩ه ( ١٣٧٧ م ) واستغرق في كتابتها خمسة أشهر فقط(١) ثم نقحها وهذمها بعد ذلك . وهو يقول لنا في دهشة من نفسه وإعجاب بتوفيقه: ﴿ وَأَكُمَاتَ المُقْدَمَةُ عَلَى هَذَا النَّحُو الغُريبِ الذَّى اهتديت إليه في تلك الحلوة ، فسالت فها شآبيب الكلام والمعانى على الفكر حتى امتخضت زبدتها ، وتألفت نتائجها الأ). ثم شرع بعد إتمام المقدمة فى كتابة تارمخه ، فكتب منه تاريخ العرب والىربر وزناتة ، أو بعبارة أخرى كتب منه أقسامه الأولى والأخبرة حسب النظام الذى انهى به إلينا . ولم يكن فى برنامج ابنخلدون أن يكتب تاريخًا عاماً للخايفة، بل كان قصده الأساسي أن يكتب تاريخ المغرب والدول البربرية ، وهو ما يشهر إليه في المقلمة بقوله : ﴿ وَأَنَا ذَاكُرُ فِي كِتَالِي هَذَا مَا أَمُكُنِّي مِنْهُ فى هذا القطر المغرن إما صريحاً أومندرجاً في أخباره وتلويحاً، لاختصاص قصدى فى التأليف بالمغرب وأحوال أجياله وأعمه ، وذكر ممالكه دون ما سواه من الأقطار ، لعدم اطلاعي على أحوال المشرق وأممه ،وأن الأخبار المتناقلة لاتوفى كنه ماأريده منه عهراً)، ولكنه عاد فعدل برنامجه، ورأى أن يكتب تارمخاً عاماً للخليقة . ولما كان ينقصه في مقامه المنعزل

<sup>(</sup>١) راجع ختام المقدمة ص ٣٤ه .

۲) كتاب السرج ٧ ص ١١٤٤.

<sup>(</sup>٣) القلمة ص ٢٧.

كثير من المراجع الضرورية ، فقد اعترم العودة إلى وطنه تونس حيث تهيئ له مكاتبها الغنية فرصة المراجعة والتحقيق . وكان ذلك في أواسط سنة ٧٨٠ هـ (١٣٧٨م) بعد أن أكمل المقدمة والأقسام المتعلقة بتاريخ العرب والعربر ع

وكان على عرش تونس يومئذ السلطان أبو العباس الذي عهدناه من قبل أمراً لقسنطينة ثم انتزع مجاية من يد ابن عمه الأمىر محمد ، وولى ابن خلدون له الحجابة حيناً ، ثم سخط عليه وحاول اعتقاله ففر منه إلى بسكرة ، فاعتقل عندئذ أخاه محيى في بونه وصادر أموالم . ولبث أبو العباس بعد ذلك يتحن الفرص للاستيلاء على تونس ؛ ولحأ إليه وزيرها ابن تافراكن الذي استبد حيناً بشئونها ، حينا جرده السلطان أبو إسماق من سلطته ، وأخذ يعمل لمعاونته على تحقيق مشروعه . وفي سنة ٧٧١ هـ زحف على تونس في قوات كبيرة واستولى علمها من يا. سلطانها الطفل ولد أنى إسماق، ثم استولى من بعدها تباعاً على حميم ثغور إفريقية ، وقامت الدولة الحفصية مرة أخرى قوية وطيدة الدعائم . وكانت العلائق سيتة بن السلطان أبى العباس وبن ابن خلمون منذ حوادث بجاية أعنى منذ أكثر من عشرة أعوام. فلما اعتزم المؤرخ العودة إلى تونس مسقط رأسه ومثوى أسرته ، محمله حب الوطن ورغبة البحث والمراجعة، كتب إلى السلطان أن العباس يرجوه الصفح والإذن بالعودة ، فرد السلطان بالقبول والصفح والدعوة بالقدوم ، فغادر ابن خلدون أحياء بني عريف في شهر رجب سنة ٧٨٠ ، واجتاز

الصحراء ومر في طريقه بقسنطينة ، فاستراح بها حينا في ضيافة الأسر إبراهم ابن السلطان أني العباس ، ثم قصد إلى السلطان أن العباس ، وكان يومثذ على رأس جيشه، يعمل على إخماد الثورة في بعض النواحي فلقيه بظاهر ثغر سوسة، فحياه السلطان أحمل تحبة وبالغرفي إكرامه وقربه وشاوره في أموره . ثم بعثه إلى تونس وأصدر أوامره بتوفير مامجب لراحته من المسكن والمعاش . ونزل ابنخلدون تونس، وطنه ومسقط رأسه ، لأول مرة مذ فارقها حدثا دون العشرين في سنة ثلاث وخسن ، واستقدم أسرته من أحياء بني عريف ، وأقام في دعة وأمن وسعة ، عاكفاً على الدرس والبحث ، حتى عاد السلطان من رحلاته الحربية بعد أشهر ؛ فقربه إليه واختصه تمجلسه وكلفه بإتمام مؤلفه . وهنا شعر ابن خلدون كرة أخرى بالدسائس القدعة تعمل حوله ، لما آثره السلطان به من الرحاية . وكان محور هذه النسائس خصمه الفقيه ابن عرفة شيخ الإفتاء . ويقول لنا ابنخلدون فيسبب هذه الحصومة ، إنه كان يتفوق على ابن عرفة في المحالس العلمية ، وإن تلامذة ابن عرفة هرعوا إليه يتلقون عليه دونه فأحفظه ذلك ، وأخذ يسعىمم رجال البطانة في حقه لدىالسلطان . ولكن هذه السعاية لبثت حيناً دون أثر لتمكن منز لته ومقامه. ولما توفرتِ لدى المؤرخ وسائل البحث والمراجعة ، عكف على إتمام مؤلفه وتنقيحه وتهذيبه، حتى أتم منهنسخة أولى رفعها إلى مولاه السلطان أبي العباس في أوائل سنة ٧٨٤ هـ ( أوائل ١٣٨٢ م ) . وكانت هذه النسخة الأولى تشمل المقدمة وأخبار العربر وزناتة، وتاريخ العرب قبل

الإسلام وبعده ، وتاريخ الدول الإسلامية المختلفة(١) ؛ وقد انهي ابن خلدون فيما كتبه عن أخبار اللول المغربية في عصره حتى استرجاع السلطان أبي العباس لتَـوزَر في سنة٧٨هـ٣٦. ولكن هذه النسخة الأولى أكملت بعدئذ، وأضيفت إلها أقسام كبرة أخرى فى تاريخ الدول الإسلامية في المشرق، وتاريخ الدول القديمة والدول النصرانية كما سنبين بعد .

ونى نفس اليوم الذي رفع فيه ابن خلدون النسخة الأولى من كتابه للسلطان أبي العباس ، أنشده قصيدة طويلة في نحو ماثة بيت ، يشيد فها بسبرته وأعماله ، ويستدر عطفه ورعايته ، وينوه بكتابه ؛ وهي من أشهر قصائده ، وهذا مطلعها :

أو عن جنابك للأماني معدل هل غير بابك الغريب موَّمـــل عزماكما شحذ الحسام الصبقل هي همة بعثت إليك على النوى والغيث حيث العارض المهلل متبوأ الدنيــا ومنتجع المنى ومنيا :

أرح الركاب فقد ظفرت بواهب

هذا أبو العباس خير خليفة سبق الملوك إلى العسلا متمهلا

بعطى عطاء المثعمين فيجزل كالروض حياه ندى مخضو ضل في الدين والدنيسا إليه الموثل شهدت له الشم التي لا تجهل لله منك السابق المتمهل

<sup>(</sup>۱) راجع کتاب آلعبر ج ۷ ص ۳٤٥ و٣٤١.

<sup>(</sup>٢) كتاب العبرج ٦ ص ٣٩١.

عبرا يدين بفضلها من يعدل غبروا فتجمل عنهم وتفصل وتمود قبلهم وعاد الأوآل مصر وبربرهم إذا ماحصلوا وأتيت أولها بما قد أغفــلوا شُرُد اللغات بها لنطقی ذلَّلُ ُ وجعلته لسوار ملكك مفخـرا يهيي الندى به ويزهو المحفل

فلأنت أعلى المالكان وإن غدوا ومنها فى ذكر الكتاب : وإليك من سبر الزمان وأهله

مُعِفًّا تَبْرجم عن أحاديث الألى تبدى التبابع والعالق سرها والقائمون علة الإسسلام من لحصت كتب الأولىن مجمعها وألنت حوشيّ الـكلام كأنما

وقد ما أسرفت فيها قلتـــه شيئاً ولا الإسراف مني بجمل على أن هذه الدعة التي تفيأ ابن خلدون ظلالها مدى حنن ، مالبث أن غشها الكدر . فما زال ابن عرفة وحلفاؤه خصوم المؤرخ في دسهم وسعايتهم ؛ ولم تشمر هذه السعاية في حرمان المؤرخ من عطف مليكه، ولكنها أثمرت في إزعاجه من طريق آخر . ذلك أن السلطان حينها تأهب للخروج مجيشه لمقاتلة الخوارج عليه فى توزر وأعمالها سنة ثلاثوثمانين، أمر ابن خلدون بالسفر معه ، فصدع ابن خلدون بالأمر مكرها . وكانت نفسه قد عافت أحداث السياسة ، وأضحى يرغب عن هذه المهام السلطانية الخطرة . ولما أتمت الحملة أعمالها أذن له السلطان بالعود قبله ، فقصد إلى ضيعته بجوار تونس وآقام بها حتى عاد الساطان ظافراً فصحبه إلى تونس . ولم تمض أشهر قلائل حتى تأهب السلطان للخروج في جيشه مرة أخرى. فخشى ابن خللون أن يعود السلطان إلى استصحابه في هملاته . وألا يستقر له قر اربعد . فاعترم عندئذ مغادرة تونس ، وخطرت له فكرة الحج ، يتوسل بها علمراً إلى السلطان . فتضرع إليه أن عنى سبيله وأن يأذن له في قضاء الفريضة ، فأذن ؛ وغادر ابن خللون وطنه ومسقط رأسه كرة أخرى ، فكانت الهجرة الأبدية ؛ وخرج إلى مرسى السفينة ، في حفل مؤثر من الأعيان والأصدقاء والتلاميذ يودعونه بين مظاهر الحزن والأمى ، وركب البحر إلى المشرق في منتصف شعبان سنة ٤٧٨٤ ( أكتوبر سنة ١٣٨٧ م ) .

و هكذا اختم ابن خللون بالمغرب حياة حافلة بصنوف المغامرات و الحوادث ؛ ولم تكن بما ربب خاتمة باهرة ؛ ولم تكن مما يرضى نفسه الكبرة . كان ابن خلدون بلاريب أعظم سياسى ومفكر عرفته إفريقية (١) و الأندلس فى القرن الثامن الهجرى ؛ وكانت تلك الحلال والمواهب المديعة التى حملته إلى فروة الحوادث ، وجعلت منه شخصية بارزة فى تاريخ المغرب وتطوراته السياسية مدى ربع قرن ، واستطاع بفضلها أن ينعم بالزعامة والنفوذ الواسم بين تلك القبائل الصحراوية ، التى عرفت دائماً بقوة الشكيمة وجفاء الذية ، خليقة بأن تهيى له مكانة رفيعة وطيدة فى دول العصر وقصوره . وقد أنفق ابن خلدون ربع قرن فى خوض غار السياسة ودسائس القصور ، وتقلب فى خلمة حميع الدول

<sup>(</sup>١) نستعملها هنا بمنى المغرب بجميع أتطاره .

للغربية . وتمتع مرارآ بمزايا الرياسة والحكم . وذاق مراراً محن النقمة ومرارة الاعتقال والأسر وخطر الهلاك ؛ ثم إذا به بعد طول العناء والحهد بجد نفسه حيث بدأ، ويصبح فإذا به قد فقد عطف حميم القصور والدول التي تقلب في خدمتها وأسدى إلها أجل الحدمات أحياناً ؛ ثم إذا به مجد نفسه في هذا الملاذ الأخبر الذي آوي إليه واستقر في ظلاله ، موضع السعاية والكيد . وكان يشعر منذ حين بمرارة هذه الحيبة ويلتمس السلوى في البحث والتأليف، وقد هدأت نفسه المضطرمة بشغف النضال والمغامرة ، وعاف أحداث السياسة ، وأخذ يتىرم بقضاء تلك المهام السلطانية الي كان يتخذ قضاءها وسيلة للنفوذ والرياسة . وكان ينشد الاستقرار والحياة الهادئة بعد طول التجوال، ويرجو أن يطوى مرحلة الحياة في وطنه ، ويثوى إليه الثواء الأخر إلى جانب آبائه وأجداده . ولكنه لم يظفر حتى بتلك الأمنية المتواضعة ، وأزعجه كيد خصومه في مقامه الهادئ ؛ وخشى أخراً عاقبة الكيد والسعاية ، ولم بجد فى تونس ماكان ينشد من هدوء وسكينة ؛ فاضطر أن يلتمس الحج عذراً للرحيل والتجاة ، وأن يودع الأهل والولد، وأن يغادر الوطن وحيداً فريداً ، إلى حيث لايعلم ماذا هيأت له الأقدار . -7-

این خلدون فی مصر ۷۸۱ – ۸۰۸ د : ۱۳۸۷ – ۱٤۰۳ م

## الفضرالنادس

### ولابة التدريس والقضاء

مقدم ابن خلدون إلى مصر . وصفه الهاهرة . جلوسه بالأز هر . اتصاله باالراط . ولايته التدريس بالمدرسة القميمية . الدرس الأول . ولايته القداء المالكية . اضطراب الأقل حوله . ولايته القديم . هلاك أسرته في البحر . ولايته القدريس في السرخندشية . ولايته التدريس في السرخندشية . المدرس الأول . تميينه شيخاً خالفاه بيرس . ثورة بليغاً الناصري وعزل السلطان برقوق . صقوط بليغا وعود برقوق إلى المرش . تأملات ابز خلدون عن الدول المحرية . انقطاعه الدرس والبحث . سميه إلى عقد الصلة بين بلاط مصر وقصور المغرب .

#### -1-

غادر ابن خلدون تونس فى منتصف شعبان سنة ٧٨٤ ه ( أكتوبر سنة ١٩٨٨ م) ، كما قدمنا ، فوصل إلى ثغر الإسكندرية فى يوم عيد الفطر بعد رحلة مجرية شاقة . ويقول لنا ابن خلدون إنه قدم إلى مصر ليتظم مها فى ركب الحاج وإنه لبث بالإسكندرية شهراً هيئ العدة لللك، ولكن لم يتح له يومثل أن محقى هذه الغاية ، فقصد إلى القاهرة (١). ولكن قضاء الفريضة لم يكن سوى حجته الظاهرة فى مغادرة تونس ؛ وكان مقدمه إلى مصر ، كما رأينا نوعاً من الفرار ، وخيفة البطش والمحنة . وكان مقدمه بلا ربب أن يقضى أيامه بمصر فى هدوء ودعة ، وأن ينعم

<sup>(</sup>١) كتاب المبرج ٧ ص ٤٥٤.

بذلك الاستقرار الذي لم "بهيئه له بالمغرب-حياة النضال والمغامرة ? وكان يومئذ فى الثانية والخمسين من عمره ، ولكنه كان وافر النشاط والقوة ، يتطلع دائماً إلى مراتب النفوذ والعزة ؛ وكانت القاهرة يومئذ موثل التفكير الإسلامي في المشرق والمغرب ، والبلاطها شهرة واسعة في حماية العلومُ والآداب . فكان يرجو أن ينال قسطه من هذه الرعاية والحاية . ووصل ابن خلدون إلى القاهرة فى أول ذى القعدة سنة ٧٨٤ ــ نوفمر سنة ١٣٨٢؛ فهرته ضخامتها وعظمتها ومهاؤها، كما مهرت سلفه ومواطنه الرحالة ابن بطوطة قبل ذلك بنصف قرن (١٠). وكما جرت على كر العصور كل من رآها من أعلام المشرق والمغرب . ولاغرو فإن المؤرخ لم ير بالمغرب سوى تلك المدن الصحر اوية المتواضعة، ولم ير بالأندلس حيث قضى ردحاً من الزمن مدينة في عظمة القاهرة وروعتها . وهو يهتف للقاهرة أثر مقدمه ومحيمها محاسة تنم عن عميق إعجابه وسحره وتأثره ، ويصفها في تلك الفقرة الرنانة: ﴿ فرأيت حاضرة الدنيا، ويستان العالم ، ومحشر الأمم ، ومدرج الذر من البشر ، وإيوان الإسلام ، وكرمبي الملك ؛ تلوح القصور والأواوين في جوه ، وتزهو الحوانق والمدارس والكواكب بآفاقه ، وتضيء البدور والكواكب من علمائه ، قد مثل بشاطئ النيل نهر ، ومدفع مياه السهاء ، يسقيه العلل والنهل سيحه ، وبجي إلىهم الثمرات والحبرات ثجه ؛ ومررت في سكك المدينة تغص بزحام المارة ، وأسواقها تزخر بالنجم ... ٠ .

<sup>(</sup>١) وقد أبن بطوطة على القاهرة سنة ٧٢٦هـ ١٣٢٦م في عهد الناصر بن قلاوون .

ولم يكن ابن خلدون نكرة في مصر ، فقد كان انحتمع القاهري يعرف الكثير عن شخصه وسيرته؛ وكان ذكر مؤلفه الضخم ولاسها مقدمته الشهيرة قد سبقه، وذاعت نسخه الأولى قبل ذلك بقليل في مصر وغيرها من بلدان المشرق ، وأعجبت دوائر العلم والتفكير والأدب ، يطرافة مقدمته وجد آمها وروعة مباحثها . فلم يكد محل بالقاهرة حتى أقبل عليه العلماء والطلاب من كل صوب . يقول ابن خلدون في كبرياء وتواضع معاً : ٥ وانتال على طلبة العلم بها يلتمسون الإفادة مع قلة البضاعة ، ولم يوسعوني عذراً ه (١٠). وهذا ماتشير إليه البراجم المصرية ؛ . فيقول أبوالمحاسن بن تغرى يردى فى ترحمته لابنخلدون : ﴿ وَاسْتُوطُنَّ القاهرة وتصدر للإقراء بالحامع الأزهر مدة، واشتغل وأفاده ٣٧). ويقول السخاوى: ( وتلقاه أهلها ( أَي أهل،مصر) وأكرموه، وأكثروا ملازمته والتردد عليه ، بل تصدر للإقراء بالحامّع الأزهر مدة ....،٣٦. جلس ابن خلمون التدريس بالأزهر، والظاهر أنه كان يدرس الحديث والفقه المالكي، ويشرح نظرياته في العمران والعصبية وأسس الملك ونشأة الدول، وغيرها مما عرض إليه في مقدمته . وكانت هذه الدروس خبر إعلان عن غزير علمه ، وشائق محثه ، وساحر بيانه . وكان ابن خلدون محدثاً

<sup>(</sup>١) كتاب المبرج ١ ص ٢٥١.

<sup>(</sup> ٢ ) كتاب المنهل الصّافى لابن تغرى بردى – نـــنة دار الكتب الحطية رقم ١١٣ تاريخ – ج ٢ ص ٢٠٠٠ .

<sup>(</sup>٣) كتاب الفتوء اللابم في أعيان القرن التاسع السناوى - نسخة دار الكتب الفوتوغرافية رتم ١٧٥ تاريخ الحبلد الثانى من القسم الثانى ، ص ٣٦٧ (وقد طبع بالقاهرة صنة ١٣٥٤ ه.ج ؛ ص ١٤٤).

يارعاً رائع المحاضرة. مخلب ألباب المعيم بمنطقه و ذلاقته و هذا ما محدثنا به جماعة من أعلام التفكير والأدب المصريين الذين سمعه و درسوا عليه ؛ ومهم المؤرخ الكبير تنى الدين المقريزى الذي سمعه و درس عليه في (١)، وكذا الحافظ ابن حجر ، فقد درس عليه وانتفع بعلمه ووصفه بقوله : « وكان لسنا ، فصيحاً . حسن الرسل وسط النظم ؛ مع معرفة تامة بالأمور خصوصاً متعلقات المملكة ٣٠٠. و نقل السخاوى عن الحال البشيشي أنه « كان فصيحاً مفوهاً حميل الصورة » ، وعن الركرا كى « أن محاضرته إلها المنتهى (٢).

وهكذا استطاع ابن خلدون لأول مقدمه أن مخلب أاباب المحتمع القاهرى ، وأن يستثير إعجابه وتقديره ؛ ولكن صفاء الأفق منحوله لم يدم طويلا كما سرى . وفى أثناء ذلك اتصل ابن خلدون بأمير منأمراء اللاط يدعى علاء الدين ألطنبغا الحوانى (")فشمله برعايته ، وساعده على التقرب من السلطان والاتصال به ؛ وكان السلطان يومنذ الظاهر برقوق، وقد ولى الملك قبيل مقدم ابن خلدون بأيام قلائل (أواخر رمضان سنة ٤٧٨) ، فأكرم وفادة المؤرخ واهم بأمره ؛ يقول ابن خلدون : هاأبر مقاى ، وآنس الغربة، ووفر الحراية من صدقاته ، شأنه ،ه أهل

<sup>(</sup>١) نعود إلى تقدير المقريزي لشيخه ابن خلدون فيما بعد .

<sup>(ُ</sup>۲) كتاب أنباء الفمر فى أنباء العمر لابن حجر الصقارق ( نسخة دارالكتب الخلية رقم ٢٤٧٦ تاريخ )ج ١ ص ٧١١.

<sup>(</sup>٣) الفموء اللامم – الحَبِلد الثاني من القسم الثاني ، ص ٣٦٩.

<sup>(</sup>٤) هكفا اسه في والمنهل الصافي برولكن السخاري يسميه و ألطنبنا الجوباني . .

العلم، وبذا تحققت أمنية للوَّرخ من الاستقرار والمقام الهادئ في ظل أمر محميه ويكفل رزقه . ولم بمض قليل على ذلك حتى خلا منصب للتُدريس بالمدرسة القمحية ، مجوار جامع عمرو ، وهي من مدارس المالكية ، فعينه السلطان فيه . ويعني ابن خلدون في تعريفه ، بوصف مجلسه الأول في هذا المعهد، فقد شهده حِمهرة منالأكابر أرسلهم السلطان لشهوده والتفوا حول المؤرخ . وألتى ابن خلدون فى ذلك الحفل خطابًا بليغاً ، يحرص على إيراده بنصه . وقد تكليم فيه بعد الديباجة عن فضل العلماء في شد أزر الدولة الإسلامية ، وعن تغلب الدول ؛ ثم أشاد مما . للول السلاطين المصرية من فضل في نصرة الإسلام ، وإعزازه ، ومن هم فى إنشاء المساجد والمدارس، ورعاية العلم والعاماء والقضاة؛ ثم دعا الملك الظاهر ، وأشاد بعزمه وعدله وعقله ؛ وعطف بعدئذ على نفسه، وما أوليه من شرف المنصب في تلك العبارة الشعرية : ٥ ولما سبحت في اللج الأزرق ، وخطوت من أفق المغرب إلى المشرق ، حيث نهر النهار ينصب من صفحة المشرق ، وشجرة الملك التي اعتز بها الإسلام تَهْزُ في دوحه المعرق ، وأزهار الفنون تسقط علينا من غصنه المورق، وينابيع العلوم والفضائل تمد وشلنا من فراته المغلق . . . أولونى عناية وتشرَّيْفًا ، وغُمرونى إحساناً ومعرواناً، وأوسعوا بهمتى إيضاحاً ونكرتى تعريفاً، ثم أهونى للقيام بوظيفة السادةالمالكية مهذا الوقفالشريف. الخ، وإنه لمنظر شائق ذلك الذي يقدمه إلينا ابن خلدون عن مجلسه في ذلك البوم ومن حوله العلماء والأكابر ، يشهدون الدرس الأول لذلك المفكر المبدع . وهو محرص على تدوينه كما محرص على تدوين الأثر اللـى يعتقد

أنه أحدته إذ يقول : ﴿ وَانْفُضْ ذَلْكُ الْحَلَّسُ وَقَلَّ شَيْعَتَى الْعِيونَ بِالْتَجَلَّةُ والوقار ١٧٥. و في ذاك مايدل على ماكان يشعر بهابن خلمو ن في كر ياءو ثقة من أنه كانشخصية ممتازة تجب إحاطها عظاهر خاصة من التكريم والرعاية . وهنا مجب أن نلاحظ أنه لم يرد وصف هذا المحلس العلمي ولانص هذه الحطبة في فصول و التعريف؛ الملحقة بكتاب؛ العر، في مهاية الحزء السابع من طبعة بولاق . فهذه الفصول تقف في ترحمة ابن خلدون عند مسهل سنة ٧٩٧ه ، حيث مختم ابن خلدون كلامه في التعريف بنفسه <sup>(٣)</sup>. ولكن ابن خلدون قد أتم فصول التعريف بنفسه فيا بعد ، وزاد علما تفاصيل سبرة حياته ، وماشهده من الحوادث في مصر والشام منذ صنة ٧٩٧ هـ إلى أو اخر سنة ٨٠٧ هـ ، أعنى قبيل وفاته بقليل . وتوجل من هذا والتعريف، في صورته المزيدة الكاملة نسخة خطية بدارالكتب المصرية (٣) ، هي التي اعتمدنا علمها فيما دونه ابن خلدون بعد ذلك من أحداث حياته وعصره ، وهي تحتوى على عدة فصول أخرى عن حياة ابن خلدون في مصر ، وسفره إلى الشام في ركب السلطان ، حيثًا زحف علمها التتار ، ولقائه عاهل التتار تيمورلنك في دمشق ، ثم عوده بعد ذلك إلى مصر ، وما تلا بعد ذلك من حوادث حياته حَمَى قبيل وفاته ،

<sup>(</sup>١) راجم وصف ابن خلدون تحاضرته الأولى وخطيته في هذا الحفل في التعريف بابن خاون (١٩٥١) ص ٢٨٠ – ٢٨٥ . وهي النسخة الكاملة من التعريف الني يجر. ذكرها ووصفها بعد .

<sup>(</sup>۲) رائیم کتاب المبر ج ۷ ص ۴۶۲.

<sup>(</sup>٣) نحفظ هذه النسخة بدآر الكتب رقم ١٠٩ م تاريخ .

وسوف نعود إلى الكلام عن ( التعريف ) في فصل خاص(١) .

ثم كانت الحطوة الثانية في ظفره عناصب اللولة ، وتعيينه قاضياً لقضاة المالكية في أو اخر حمادى الآخرة سنة ٧٨٦ه (أغسطس ١٣٨٤م) مكان القاضى المعزول حمال الدين بن خير السكندى . وكان ارتفاعه إلى هذا المنصب الذى هو رابع أربعة تعتبر من أهم مناصب اللولة إبذاناً بوثوب العاصفة من حوله ، واضطرام تلك الحصومات التي كدرت صفو مقامه ، وأدالت نفوذه ، واقتلعته من المنصب غير مرة . يقول ابن خلدون في سخرية : « وأقمت على الاشتغال بالعلم وتدريسه إلى أن سخط السلطان قاضي الممالكية يومئذ في نزعة من النزعات الملوكية ، فعز له واستدعاني للولاية في مجلسه وبين أمرائه ، فتفاديت من ذلك ، وأبي إلا مضاءه عص . وقد عرف ابن خلدون هذه « الزعات الملوكية »، وعرف

<sup>(</sup>۱) هذا رقد عنى الأديب المغربي الأستاذ محمه بن تاريت الطنبيي بإخراج نسخة التحريف الكاملة ، ورجع في إخراجها بالأخص إلى نسختين أصليتين تحفظ إحداهما بمكتبة أياصوفيا والأخرى بمكتبة طبوقيوسراى باستانيول . وظهرت هذه الطبعة الكاملة المحققة من التعريف بعناية بلخة التأليف والترجمة والنشر (سنة ١٩٥١) بعنوان : و التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً » في مجلد كبير في نحو أربعمائة صفحة حسنة التعليقات والشروح . وسوف تكون هذه النسخة مرجعنا منذ الآن .

<sup>(</sup>۲) يذكر أين خلدون أن تسيئه فى هذا النصب وقع لأول مرة فى رجب سنة ١٠٨٦. ولكن الروايات الممرية كلها متفقة على أن هذا التميين كان فى جمادى الآخرة ( السناوى فى الفوء اللاسم ، وابن تعرى بردى فى المهل الصافى كل فى ترجمته لابن خلدون – والسيوطى فى حسن المحاضرة ج ٣ ص ١٦٣ ) . ولكن يبدو من رواية ابن خلدون أله بدأ بمباشرة وضيفته فى رجب ، وأنه يحمل من التمييز وبده الممل واقعة واحدة .

<sup>(</sup>٣) التعريف بابن خلدون ص ٣٨٥.

أمها تبطن من الشر والنقم في معظم الأحيان أكثر مماتسيغ من العطف والنعم . ولكنه يريد أن نفهم أن ارتفاعه إلى منصب القضاء لم يكن نزعة ملوكية فقط، وإنما اختار هالسلطان كما يقول، « تأهيلا لمكانه وتنويهاً بذكره » .

- Y -

ونستطيم أن نقدر أن ولاية ابن خلدون لحطة القضاء لم تكن حادثاً عادياً . فقد كان أجنبياً ، وكان تقدمه في حظوة السلطان ، وفي نيل المناصب ، سريعاً . وكانت مناصب التدريس والقضاء دائماً مطمح حمهرة الفقهاء والعلماء المجلين ؛ ولم يكن مما محسن وقعه للسهم أن يفوز مها الأجانب الوافلون دونهم . وإذاً فقد تولى العلامة المغربي منصبه في جو يشوبه كنىر الخصومة والحسد . وجلس بمجلس الحكم فى المدرسة الصالحية محى بين القصرين، فلم يمض سوى قليل حتى ظهرت من حوله بوادر الحقد والسعاية . ويقول لنا ابن خلدون في سبب هذه العاصفة التي ثارت حول توليه القضاء ، كلاما طويلا عما كان يسود القضاء المصرى يومثذ من فساد واضطراب ، ومايطبع الأحكام من غرض وهوى، وعماكان عليه معظم القضاة والمفتن والكتاب والشهود منجهل وفساد فى الذمة ؛ وأنه حاول إقامة العدل الصارم المنزه عن كل شائبة، وقمع الفساد بحزم وشدة ، وسمق كل سعاية وغرض . يقول : « فقمت مما دفع إلى من ذلك المقام المحمود ، ووفيت جهدى بما أمنني عليه من أحكام الله لا تأخلنى في الله لومة ، ولايرغبني عنه جاه ولاسطوة ؛ مسوياً بن الحصمن ، آخذاً محق الضعيف من الحكمن ، معرضاً عن

الشفاعات والوسائل من الحانين ؛ جائماً إلى التثبت في ساع البينات ، والنظر في عدالة المنتصين لتحمل الشهادات ؛ فقد كان البر مهم مختلطاً بالفاجر ، والطيب متليساً بالحبيث ؛ والحكام بمسكون عن انتقادهم ، متجاوزون عما يظهر عليهم من هناتهم ، لما يموهون به من الإعتصام بأهل الشوكة ؛ فإن غالهم مختلطون بالأمراء ، معلمون القرآن وأثما الصلوات ؛ يلبسون عليهم بالعدالة فيظنون بهم الحبر ؛ ويقسمون لهم الحظ من الحاه في تزكيهم عند القضاة والتوسل لهم ؛ فأعضل داوهم، الحظ من الحاه في تزكيهم عند القضاة والتوسل لهم ؛ ووقفت على بعضها فعاقبت فيه بموجع العقاب ، وموثم النكال . . . » . ثم يعدد نواحي الفساد التي شهدها ، وجد في إصلاحها وقمعها ، وكيف مضى وأحي الشعات في سبيله « من الصرامة وقوة الشكيمة » وكيف احتفر شفاعات في سبيله « من الصرامة وقوة الشكيمة » وكيف احتفر شفاعات وي ثار عليه السخط من كل ناحية ، وسلقته حميع الألسن ، وكثرت في ثار عليه السخط من كل ناحية ، وسلقته حميع الألسن ، وكثرت في قال السعاية لدى البلاط (١) .

وهذا التعليل الذي يقدمه لنا ابن خلدون عن سبب الحفيظة عليه ، واضطرام الحصومةمن حوله، معقول محملطابع الصراحة والصدق. بل هذا ما تسلم به التراجم المصرية المعاصرة والقريبة من عصره . فيقول أبو المحاسن مثلا مشراً إلى ولايته للقضاء : « فباشره محرمة وافرة ، وعظمة زايدة ، وحمدت سيرته ودفع رسائل أكابر الدولة ، وشفاعات

<sup>(1)</sup> كتاب العبر ج ٧ ص ٥٥٪ و ١٥٤ . وفي التعريف ص ٢٥٤ و ٢٥٠ .

الأعيان ، فأخلوا فى التكلم فى أمره ه(١). ويقول ابن حجر وينقله السخاوى : « فتنكر ( أى ابن خلون) للناس عيث لم يقم لأحد من القضاة لما دخلوا السلام عليه مع اعتذاره لمن عنب عليه فى الحملة، وفتك فى كثير من أعيان الموقعين والشهود ، وصار يعزر بالصفع ، ويسميه الزج ، فإذا غضب على إنسان قال زجوه ؛ فيصفع حتى تحمر رقبته (١٠)، وفيا ينقل السخاوى قصد إلى التعريض والانتقاص . وسنرى أنه شديد الموطأة على ابن خلدون يشتد فى نقده وتجريحه ؛ ولكن فى قوله مايؤيد أن ابن خلدون كان يصدر فى قضائه عن نزاهة وحزم وصرامة ؛ بل هو يشهد لابن خلدون بذلك صراحة ، حيا يقول عنه فى موضع آخر: يشهد لابن خلدون بذلك صراحة ، حيا يقول عنه فى موضع آخر:

انقضت العاصفة على ابن خللون إذاً لأشهر قلائل من ولايته ، وكثر السعى فى حقه والإغراء به حق و أظلم الحو بينه وبين أهل الدولة ، على حد تعبره ، وفقد حظوته وماكان يتمتم به من عطف وموازرة ، وأصابته فى ذلك الحين نكبة أخرى هى هلاك زوجه وولده وماله ، وكان منذ مقلمه ينتظر لحاق أسرته به ، ولكن سلطان ثونس حجزها عن السفر لرغمه بذلك على العودة إلى تونس ، فتوسل إلى السلطان الظاهر أن يشفع لديه فى تخلية مبيل أسرته فقعل ، وأطلق سراح الأسرة

<sup>(</sup>١) المبل الصافي ج ٢ ص ٣٠١.

 <sup>(</sup>٢) ابن حجر في رفع الإصر عن تضاة مصر ( نحطوط دار الكتب) في ترجمة ابن خلدون ص ٥٩، وفي النسخة الملبوعة ( القاهرة ١٩٦١ ) ص ٩٤٤ ، و السخاوي في الضوء اللاسم المجلد الثاني من القسم الثاني ص ٣٦٧ . وطبح مصر ج ٤ ص ١٤٦ .

وركبت البحر إلى مصر . ويروى لنا ابن خلدون نبأ الفاجعة في قوله : وووافق ذلك مصابي بالأهل والولد . وصلوا من المغرب في السفين ؛ فأصامها قاصف من الريح، فغرقت، وذهب الموجود والسكن والمولود؛ فعظم المصَّاب والحزع ، ورجح الزهد ، واعتزمت على الحروج عن المنصب، . ولم عض سوى قليل حيى أقيل المؤرخ من منصب القضاء، أُو بِعبارة أخرى حتى عزل . بيد أنه يريد أن نفهم أن هذا العزل جاء نحققاً لرغبته إذ يقول : ﴿ وَشَمَلتُنَّى نَعْمَةُ السَّلْطَانُ أَيْدُهُ اللَّهُ فِي النَّظُرُ بِعَثْ الرحمة ، وتخلية سبيلي من هذه العهدة التي لم أطق حملها ، ولاعرفت فها زَّعُوا مصطلحها ، فردها إلى صاحبها الأول ، وأنشطني من عقالها ، فانطلقت حميد الأثر ، مشيعاً من الكافة بالأسف والدعاء ، وحميد الثناء ، تلحظني العيون بالرحمة ، وتتناجى الآمال في بالعودة » . والحلاصة أن ابن خلدون يو كد لنا أن عز له كان نتيجة التحامل و الحقد والسعاية فقط، وأنه أثار استياء" وأسفا في المحتمع القاهري، وأنه غادر منصبه موفور الكرامة والهيبة . بيد أننا سنرى ، حسما يشر في قوله المتقدم ، أنه كان يرمى نجَهل الأحكام والإجراءات، وبأنه لم يكن بذلك أهلا لتولى . القضاء ، وبأنه كان مشغوفاً بالمنصب أشد ما يكون حرصاً عليه .

وكان عزل ابن خلمون عن منصب القضاء لأول مرة فى السابع من حمادى الأولى سنة ١٨٧٧ ( يوليه ١٣٨٥ م ) ، أعنى لنحو عام فقط من ولايته ، فانقطع إلى المعرس والتأليف كرة أخرى .

على أن هذا العزل لم يكن إيذاناً بسخط السلطان ونقمته؛ فقد لبث .

ابر خلدون في منصب التدريس بالقمحية ؛ ولم يمض سوى قليل حيى عينه السلطان أيضاً لتدريس الفقه المالكي عدرسته الحديدة التي أنشأها في حي بنالقصرين ( المدرسة الظاهرية العرقوقية ) . واحتفل ابنخلمون أ كعادته بَالدرس الأول ، وألتى خطاباً بليغاً يدعو فيه للسلطان ، ويعتلس عن قصوره في تواضع ظريف(١) . واشتغل بالدرس في المعهدين حتى كان موسم الحبج عام تسعة وثمانين ، فاعتزم عندئلًا أداء الفريضة . وأذن له السلطان وغمره بعطائه . وغادر القاهرة في منتصف شعبان ؛ وقصد إلى الحجاز بطريق البحر ؛ ثم عاد بعد أداء الفريضة ، بطريق البحر أيضاً حتى القصير ؛ ثم اخترق الصعيد بطريق النيل ، فوصل القاهرة في حمادى الأولى سنة تسعين ( ٧٩٠ هـ ) ؛ وقصد الى السلطان تواً وأخبره بَّأنه دعا له في الأماكن المقلسة ، فتلقاه بالعطف والرعاية . ثم خلا كرسى الحديث بمدرسة صرغتمش ٢٦ ، فولاه السلطان إياه بدلا من تدريس الفقه بالمدرسة السلطانية ؛ وجلس التدريس فيها في المحرم سنة إحلى وتسعن ، وألتي خطاب الافتتاح كعادته في حفل فخم ، وأعلن أنه قد قرر للقراءة في هذا اللـرس كتاب الموطأ للإمام مالك ؟ ويعرفنا ابن خلفون بموضوع درسه الأول فى ذلك اليوم ، فقد تكلم فيه عن مالكونشأته وحياته وكيفية ذيوع مذهبه، ثم يقول لنافى كبريائه المعهود : و وانفضذاك المحلس، وقد لاحظتني بالتجلة والوقار العيون، واستشعرت

<sup>(</sup>١) راجع التعريف بأبن خلدون ص ٢٨٦ .

 <sup>(</sup>٢) كان موقع هذه المدرمة ثبال الجامع العاداوق على مقربة من القلمة .

أهليني للمناصب القلوب، وأخلص النجا في ذلك الحاصةو الحمهور (١). - ٣ -

ثم عن المؤرخ في وظيفة أخرى هي مشيخة (نظارة) خانقاه بيىرس، وهي يومئذ أعظم الحوانق أو ملاجيء الصوفية(٢) ، فزادت جرايته ، واتسعت موارده . ولكن أمد سكينته لم يطل ، فقد نشبت فتنة خطيرة أودت بعرش الظاهر برقوق ، بطلها ومديرها الأمر يلبغا الناصري نائب حلب ؛ وكانت نظم البلاط القاهري وظروفه ، ومايضطرم به من اللصائس والحيانات، مما يسمح بتكرار هذه الفنن؛ وكان يلبغا الناصري نائب السلطنة من قبل ، وزعم عصبة قوية من الأمراء والفرسان؛ وكان الظاهر برقوق من جملة أمرائه وتابعيه ؛ ولكنه استطاع في فتنة سايقة (رمضان سنة ٧٨٤ ) أن يظفر بالعرش دونه ، وأن بجرده من سلطته ونفوذه، وأن يقصيه إلى الشام . ثم سنحت فرصة الخروج ليلبغا ، فسار إلى القاهرة في أتباعه وتحول أنصار برقوق عنه ، ففر من القلعة ، ودخل يلبغا الناصري القاهرة ، وأعاد الصالح حاجي السلطان المخلوع إلى العرش، وقبض على برقوق وأرسله سميناً إلى الكَرِّك ( حمادي الأولى سنة ٧٩١) . ولكن ثورة أخرى نشبت بقيادة أمبر آخر يدعي منطاش، فقبض على الناصري ، وسار إلى دمشق لمحاربة برقوق الذي استطاع أن يفر من سحنه ؛ فهزمه برقوق وعاد إلى القاهرة ظافراً منصوراً ،

<sup>(</sup>١) التعريف بابن خلعون ص ٢٩٤ – ٣١٠ حيث يورد نص محاضرته كلها .

<sup>(</sup>٢) كانت هذه الحانقاء الشهيرة تقم في طريق باب النصر على مقربة منه .

واسرَّد عرشه في صفر سنة ٩٢ ، لبضعة أشهر فقط منعزله . ومخصص ابن خلدون في ۽ تعريفه ۽ فصلا طويلا لهذه الحوادث(١) ويمهد له بشرح فلسني اجتماعي يتحدث فيه عن نهوض اللول بقوة العصبية واتساع ملكها ،ثم طغيان الحضارة والرفاهية علمها ، وخروج الأقوياء منها ، وبثهم فها روحاً جديداً من القوة ، وتكرر هذه الظاهرة ، ثم يطبق نظريته على دول الماليك المصرية منذ صلاح الدين، ويقص تاريخها باختصار، وهنا يبدو ابن خلدون كما يبدو في مقدمته ، ذلك الفيلسوف الاجتماعي الذي يعني بتعليل الظواهر والكاثنات ، واستقرائها في حوادث التاريخ . والظاهر أن ابن خلدون قد عانى من جراء هذه الفتنة ، ففقد مناصبه وأرزاقه كلها أوبعضها بسقوط الحزبالذي يتمتع بعطفهورعايته ف فلما عاد الظاهر برقوق إلى العرش ردت إليه . يدل على ذلك قوله في التعليق على عود الظاهر : ﴿ ثُمُّ أعاده إلى كرسيه النظر في مصالح عباده ، وطوقه ! القلادة التي ألبسه كما كانت ، فأعاد إلى ماكان أجراه من نعمته ، ٣٠. ولبث ابن خلدون على ذلك أعواماً ينقطع للبحث والدرس . وهو يقف بالتعريف ينفسه عند هذه المرحلة ، حتى مستهل سنة سبع وتسعين (٧٩٧ه )، في الترحمة المتداولة الملحقة بتاريخه؛ ولكنه بمضى في هذا التعريف مراحل أخرى، في النسخ المخطوطة الَّتي أتينا على ذكرها والَّيي نشرت محققة حسبا تقدم باسم 🛭 التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً ٤؛ وفها يفصل حوادث حياته حتى محتم سنة ٨٠٧ﻫ ، أعنى قبل

 <sup>(</sup>۱) راجع هذا النصل فی التحریف باین خلدون ص ۲۱۶ – ۳۳۰، وراجیم خطط
 المقریری (پولانی) ج ۲ ص ۲۶۲.
 (۲) کتاب العبر ج ۷ ص ۲۶۲.

وفانه ببضعة أشهر . ونسخة التعريف هذه أكثر تفصيلا وإسهاباً حتى في تتفق فيه مع فصول كتاب العبر من مراحل الترحمة ؛ ولهذا آثرنا الرجوع إليها إلىجانب كتاب العبر في كل ماهو أوفى وأثم مما تقدم ذكره من المراحل . غير أن نسخة • التعريف • الحديدة ستكون منذ الآن وحدها مرجعنا فها سيأتى من تفاصيل حياة المؤرخ حتى وفاته .

ليس في حياة ابن خلدون في هذه القبرة مايستحق الذكر سوى سعيه إلى عقد الصلات بين البلاط القاهرى وسلاطين المغرب . ويجمل اين خلدون ذكر هذه المصلات الملوكية ، ويصف المراسلة والمهاداة بين صلاح الدين وبني عبد المؤمن خلفاء المغرب ؛ وبين الناصر قلاوون وملوك بني مرين ؛ ويصف الهدايا المصرية والمغربية ؛ ثم يعطف على مساعيه في عقد الصلة بين الملك الظاهر وسلطان تونس ؛ وملخصها أنه كتب إلى سلطان تونس عثه على إهداء ملك مصر ، فأرسل إليه هدية من الحياد النادرة ، ولكنها غرقت مع السفينة التي كانت محمل أسرة تسع وتسعين إلى المغرب ليشترى عدداً من الحياد ، فزود ابن خلون تسع وتسعين إلى المغرب ليشترى عدداً من الحياد ، فزود ابن خلون المرسل بالإرشاد والتوصية . ولكنهم عادوا مهدية فخمة كان سلطان تونس قد أعدها وتأخر إرسالها ؛ وعده هدايا أخرى قدمها أمراء المغرب ، ومها خيل مسومة ، وعدد وسروج ذهبية . ويصف لنا ابن خلدون يوم ومها خيل مسومة ، وعدد وسروج ذهبية . ويصف لنا ابن خلدون يوم القدم المدايا وعرضها ، ثم يقول لنا إنه شعر يومئذ بالفخر وحسن الذكر عملا المدايا وعرضها ، ثم يقول لنا إنه شعر يومئذ بالفخر وحسن الذكر

<sup>(</sup>١) راجع الفصل الخاص بقلك في والتعريف، ص ٣٣٥ – ٣٤٦.

## الفضاالتيابع

### في دمشق وفي معسكر تيمورلنك

عود ابن خلدون إلى منصب القضاء . وفاة السلطان برقوق وولاية التاصر فرج . وحلة ابن خلدون إلى فلسطين . عزله عن القضاء . غزو التتار الشام . صبر الناصر فرج إلى لفاه الغزاة . استصحابه لابن خلدون إلى دمشق . عوده فياة إلى مصر . نزول ابن خلدون من أسوار دمشق وسره إلى مصكر تيمورلنك . وصفه القائم مع الفاتح . حديثه ابن خلدون لتيمورلنك . وصفه القائم . حديثه ابن خلدون لتيمورلنك . ومفاوضاته في الصلح . رواية المقريق وابن إياس وابن عربشاه عن هام المفاوضاته في السلح . رواية المقريق وابن إياس وابن عربشاه عن هام المفاوضات . أستخلان ابن خلدون الفاتح في السفر . عوده إلى مصر . سعى ابن خلدون المامركة بيت وبين خصومه . ولايته المرة الثالثة . اضطرام الدسائس من حوله . ذروة المركة بيت وبين خصومه . تعاقب الولاية على القضاء والمزل منه . وفاة ابن خلدون .

-1-

لبث ابن خلدون بعيداً عن منصب القضاء زهاء أربعة عشر عاما ، عول بينه وبين توليه ، على قوله ، ذلك الحناح من البلاط الذى شغب فى حقه ، وأغرى السلطان بعزله ؛ فلما ضعف ذلك الحزب وانقرض رجاله ، انهز السلطان أول فرصة لرده إلى منصبه . وكان ذلك فى منتصف رمضان سنة إحدى و ثمانمائة ( مايو سنة ١٣٩٨ م ) على أثر وفاة ناصر الدين التنسى قاضى المالكية . وكان ابن خلدون عندئذ بالفيوم يعنى بضم قمح ضبعته التى يستحقها من أوقاف المدرسة ١ القمحية ٤ ؛ فاستدعاه السلطان وولاه القضاء المرة الثانية . ثم توفى السلطان بعادئاد بالشاء بقليل ، فى منتصف شوال ؛ فخلفه ولده الناصر فرج ؛ وسرى الاضطراب إلى شئون الدولة، واضطرامت الفتن والثورات المحلية حيناً . فلما استقرت الأمور نوحا ، استأذن المؤرخ فى السفر إلى بيت المقدس، فأذن له ؛ وجال ابن خلون فى المدينة المقدسة ، يتفقد آثارها الحالدة ؛ وشهد المسجد الأقصى ، وقبر الحليل ، وآثار بيت لحم ، ولكنه أبى المنحول إلى كنيسة القيامة (قبر المسيح ) . يقول لنا: « وبناء أمم النصرانية على مكان الصليب بزعمهم ، فنكرته نفسى ، ونكرت الدخول إليه » . هماد من رحلته ، ووافى ركاب السلطان أثر عوده من الشام فى ظاهر مصر ، ودخل معه القاهرة فى أواخر رمضان سنة ١٩٠٧ه .

وفى المحرم سنة ثلاث ، عزل ابن خللون من منصب القضاء للمرة الثانية . وسنرى أن هذا العزل كان نتيجة لسعى منظم من خصوم المؤرخ وأن تكراره كان مظهراً بارزاً لذلك النضال الذي كان يضطرم بينه وبين خصومه داخل البلاط وخارجه . ولم يمض قليل على ذلك حتى جاءت الأنباء بأن تيمور لنك قد انقض بجيوشه على الشأم واستولى على مدينة حلب فى مناظر هائلة من السفك والتخريب ( ربيع الأول سنة ٩٠٨هـ حلب فى مناظر هائلة من السفك والتخريب ( ربيع الأول سنة ٩٠٨هـ الأنباء ، واضطرب البلاط أيما اضطراب ، وهرع الناصر فرج بجيوشه للاقاة الفاتح الترى ورده ، واصطحب معه القضاة الأربعة وجماعة من للاقاة الفاتح الترى ورده ، واصطحب معه القضاة الأربعة وجماعة من

 <sup>(</sup>١) راجع تفاصيل الاستياد، على حلب في المقريزي: السلوك في دول الملوك (مخطوط دار الكتب المصرية) ج ٣ ورقة ٣٣.

الفقهاء والصوفية ومنهم ابن خلدون . ولا ريب أن المؤرخ لم ترقه هذه المفاجأة التي ذكرته بما عانى بالمغرب من تلك المهام السلطانية الحطرة ؛ بل هو يقول لنا صراحة إنه حاول الاعتراض والتماص ، لولا أن غمره يشبك حاجب السلطان و بلىن الةول ، وجزيل الانعام ٥١٠٠ . ويفرد المؤرخ فصلا لحوادث هذه الحملة ، وعمد له بتعريف عن نشأة التتار والسلاجقة ٣٠ . وكان سفر الحملة في ربيع الثاني سنة ٨٠٣ ، فوصلت إلى دمشق في حمادي الأولى ، ونزل ابن خلدون مع حمهرة الفقهاء ، والعلماء في المدرسة العادلية ، واشتبك جند مصر توا مع جند الفاتح في ظاهر دمشق في معارك محلية ثبت فها المصريون ؛ وبدأت مفاوضات الصلح بن الفريقين. ولكن خلافاً حدث في معسكر السلطان، وغادره بعض الأمراء خفية إلى مصر ؛ وعلم السلطان أنهم دبروا مؤامرة لخلعه، وتولية أمىر آخر يدعىلاچين ؛ فترك دمشق لمصيرها ، وارتد مسرعاً إلى القاهرة فوصلها في حمادى الآخرة ٣٦. وعلى أثر ذلك وقع خلاف بنالقادة والروَّساء حول تسليم المدينة . وهنا تغلبالمؤرخ نزعة المغامرة كما تغلبه الأثرة . فقد خشى أن تقع المدينة فى يد الفاتح فيكون نصيبه الموت أو النكال؛ ورأى أن يعتصم بالحرأة ، وأن يغادر حماعة المرددين إلى معسكر الفاتح ، فيستأمنه على نفسه ومصيره . ويحدثنا المؤرخ عن

<sup>(1)</sup> انتمریف ، ص ۳٦٦ . ویقول المقریزی إن أوامر السلطان لیشبك كانت صریحة فی لرغام ابن خلنون علی السفر ( السلوك --ج ۳ ورقة ۲۶ ) .

<sup>(</sup>٢) يراجع هذا الفصل في التعريف ص ٢٥١ – ٣٦٠ .

<sup>(</sup>٣) السلوك ، ج ٣ ورقة ٢٦ .

ذلك بصراحة، فيقول معلقاً على ماشجر بـنالقادة من خلاف: ﴿ وَبِلَّغَيْ الحبر ، فخشيت البادرة على نفسي ، وبكرت سحراً إلى حماعة القضاة عند الباب ، وطلبت الحروج ، أو الندلي من السور لما حدث عندى من توهمات ذلك الحر، (١<sup>)</sup>. وانتهى المؤرخ بإقناع زملائه فأدلوه من السور ، وألني عند الباب حماعة من بطانة تيمورلنك وابنه شاه ملك الذي عينه لولاية دمشق عند تسليمها فانضم إليهم، والتمس منهم مقابلة تيمور؛ فساروا به إلى المسكر وأدخل في الحال إلى خيمة الفاتح. ويصف لنا ابن خلدون ذلك اللقاء الشهر في قوله : ﴿ وَدَخَلْتُ عَلَيْهُ نَجْيُمُهُ جَلُوسُهُ ، متكثاً على مرفقه ، وصحاف الطعام تمر بن يديه تشربها إلى عصب المغل ، جلوساً أمام خيمته حلقاً حلقاً . فلما دخلت عليه ، فانحنيت بالسلام وأوميت إيماءة الحضوع ، فرفع رأسه، ومد يده إلى فقبلها ؛ وأشار بالحلوس فجلست حيث انتهيت ، ثم استدعاني من بطانته الفقيه عبد الحبار بن النعان من فقهاء الحنفية نحوارزم فأقعده يترجم بينناه ٢٦٠ وتحدث الفاتح طويلا إلى المؤرخ وسأله عن أحواله وأخباره وسبب مقدمه إلى مصر وما وقع له بها ، ثم سأله عن المغرب ومدنه وأحواله وسلاطينه ، وطلب إليه أن يكتب له رسالة في وصف المغرب. وحدثه المؤرخ بأنه كان يسمع به ويتمنى لقاءه منذ أربعين سنة أعنى مذ تألق نجمه وبزغ مجده ، وشرح له طرفاً من آرائه ونظرياته الاجتماعية في

<sup>(</sup>١) التعريف ص ٣٦٨.

<sup>(</sup>۲) ألتعريف ص ۲۲۸ و ۲۲۹.

العصبية والملك . ولاريب أن مفاوضة في شأن المدينة وقعت أيضاً بين المؤرخ والفاتح ، واستطاع المؤرخ أن يقنع الروساء والفقهاء بالنسلم ، فقد فتحت دمشق أبوامها المفاتح على أثر ذلك ، وجاء القضاة والروساء وعلى رأمهم المؤرخ إلى محسكر تيمور لنك يقلمون له الخضوع والطاعة. ويقول لنا ابن خللون إن تيمور لنك صرفهم واستيقاه حيناً ؟ ثم انصرف واشتغل أياماً بكتابة رسالة في وصف بلاد المفرب حتى أتمها، وبلغت على قوله اثنى عشرة كراسة صغيرة ، ثم قلمها إلى تيمور لنك فأمر برحمها إلى اللغة المغولية (١) .

وكان المفهوم أن دمشق قد نجمت بالتسليم من بطش الفاتح ، ولكن التتار احتجوا باستمرار القلعة فى المقاومة ، فشددوا عليها الحصارحي سلمت ، ثم اقتحموا المدينة وصادروا أهلها وأوقعوا فيها السفك والعيث والنهب ، وأضرموا النار فى معظم أحيائها ؛ وتكررت المناظر المروعة التى وقعت فى حلب . على أن ابن خلدون لم يقطع صلته بالفاتح بل لبث متصلا به يتردد لزيارته خلال المحنة ؛ وحدثه تيمورلنك ضمن ماحدث بأمر شخص تقدم إليه مدمياً الحلاقة وأنه سليل بنى العباس، وجرت سناقشات فقهية طويلة فى شأنه ، اشترك فيها المؤرخ وأدلى فيها بآرائه ونظرياته فى الحلاقة . وقدم ابن خلدون أيضاً إلى الفاتح هدية هى

<sup>(</sup>١) لم تصل إلينا هذه الرسالة التي كتبها ابن خانون في وصف بلاد المغرب ، ولكن للرجح أنها لم تكن سوى صورة مفسلة ماكتبه عن ذلك في تاريخه الكير في القم اللعي يخسمه لتاريخ البر بر ويمهد له بوسف عام في جغرافية هذه البلاد ( راجح كتاب العبر – ج ٦ ص ٩٨ وما بدها) .

و مصحف رائق وسجادة أنيقة ونسخة من البردة وأربع علب من حلاوة مصر الفاخرة » . ولما قدمها إليه وضع تبمورلتك المصحف فوق رأسه بعد أن عرف أنه القرآن الكريم ، ثم سأله عن البردة وذاق الحلوى، ووزع منها على الحاضرين في مجلسه . والتمس المؤرخ منه في هذا المحلس أماناً للقضاة والروشاء والعال ، فأجابه إلى طلبه وأصدر الأمان .

هذه هي رواية ابن خلدون عن صلته بالفاتح التري ، وما وقع له معه من المحادثات والمقابلات ، وقد كان فيها يؤدى دور السياسي القديم . ولكن مؤرخاً مصرياً كبيراً معاصراً هو المقريزي يفصل هذه الحوادث تفصيلا آخر ، فيقول لنا إن الذي فاوض تيمورلنك في تسليم دمشق هو القاضي تتي الدين بن مفلح الحنبلي ؛ أرسله الزعاء إلى الفاتح ابنا مفلح بلن نفوذه لإقناع الزعاء بالتسليم ، وأنه هو الذي تدلى بعد ابن مفلح بلن نفوذه لإقناع الزعاء بالتسليم ، وأنه هو الذي تدلى بعد ذلك من السور مع جماعة الأعيان والفقهاء ، واقتادهم إلى معسكرالفاتح وعقد معه الصلح واستصدر منه الأمان ، ثم تولى بعد ذلك تنفيذ حميم رغائبه في جمع المال والأسلاب . ولكن تيموراً نكث بعد ذلك عهده ، وقبض على ابن مفلح وزملائه ، واقتح جنده المدينة ونهوها وأضرموا النار فيها لن إياس ، ويؤيد هذه الرواية مؤرخ مصرى آخر هو ابن إياس ، ويقول لنا إن الزعماء اختاروا ابن مفلح المفاوضة لأنه كان يعرف ويقول لنا إن الزعماء اختاروا ابن مفلح المفاوضة لأنه كان يعرف الركية (؟ على أن المقريزي يؤيد رواية ابن خلدون في مكان آخر

<sup>(</sup>۱) السلوك، ج ٣ ورقة ٢٧.

<sup>(</sup>٢) ابن إياس في ه تاريخ مصر، (بولاق) ج ١ ص ٣٣١ و٣٣٢.

فيقول لنا إنه ٥ لما علم بتوجه السلطان تدلى من سور المدينة وسار إلى تيمورلنك، فأكرمه وأجلسه وأنزله عنده؛ ثم أذن له بالمسر إلى مصر فسار إلها ، ثم يقول بعد ذلك إن تيمورلنك أصدر له مرسوم السفر وأطلق معه هماعة بشفاعته(١). وابنخلدون صريح فىروايته فى أنه هو المفاوض والوسيط في عقد المهادنة بين الفاتح وأهل دمشق كما قدمنا ، وأنه كان ممثل الروساء والقضاة لدى تيمورلنك ، ولاشك عندنا في صحة روايته . وهي من جهة أخرى رواية ابن عربشاه اللمشيّ مؤرخ تبمورلنك الذي كتب تارخه قريباً من هذه الحوادث، فهو يصف لقاء ابن خلدون للغاتج تحت أسوار دمشق على رأس العلماء والقضاة ، ويصور لنا في عبارة شعرية ساحرة منظر هذا اللقاء وما تخلله من أحاديث ومناقشات (٢) . على أن صحة هذه الرواية لاتمنع من جهة أخرى أن يكون ابن مفلح قد اشترك في المفاوضة وتولى تنفيذ شروط التسليم. ولعل ابن خلدون كان يعلق على صلته بالفاتح آمالا أخرى غبر ما وفق إليه فى شأن دمشق وشأن زملائه العلماء والقضاة ؛ ولعله كان يرجو الانتظام في بطانة الفاتح والحظوة لديه والتقلب في ظل رعايته ونعائه . على أنه لم يوفق بلا ربب إلى تحقيق مثل هذه الأمنية ؛ فلم تمض أسابيع قلائل حتى ستم البقاء في دمشق ، وذهب إلى تبمور يستّأذنه في العود إلى مصر ، فأذَّن له وطلب إليه فى تلك المقابلة أن يقدم إليه بغلة إذا

<sup>(</sup>١) المارك، ج ٣ ورقة ٢٨.

<sup>(</sup> ۲ ) ابن عربشاء فى كتاب وعجائب المقدورو (مصر) ص ۱۲۳ وما بعدها . وراجع كتاني ومصر الإسلامية ، ص ۱۲۱ .

استطاع فأهداه المؤرخ إياها ، وبعث إليه تيمور ثمنها فيا بعد عقب وصوله إلى مصر. وغادر المؤرخ دمشق فى شهر رجب (سنة ٨٠٣) لنحو شهرين فقط من مقدمه إليها ؛ ودهمه اللصوص أثناء الطريق فسلبوه ماله ومتاعه ؛ ولكنه وصل سالماً إلى القاهرة فى أوائل شعبان سنة ثلاث وثمانمائة .

وهنا يهتف المؤرخ مغتبطاً بنجانه: و وحملت الله على الخلاص » ويقول لذا إنه كتب إلى سلطان المغرب مولاه السابق ، يصف همله الحوادث وما وقع خلالها بينه وبين تيمورلنك ، ويصف له الفاتح وعظم بأسه وشاسم ملكه وروعة سلطانه .

#### - Y -

وماكاد ابن خلدون يستقر فى القاهرة حتى أخذ يسمى العود إلى منصب القضاء . وقد رأينا أنه كان محتفظ دائما بكرسى التلديس فى ملموسة أو اثنتين . ولكن القضاء من مناصب السلطة والنفوذ ؛ وكان ابن خلدون يشعر وهو فى ذلك الحو المشوب بكدر الحصومة والمنافسة ، أنه محاجة إلى ذلك النفوذ المدىاعتاد أن يتمتع به فى حميع علائقه السلطانية ، وكانت المعركة التى تضطرم حول ذلك الكرسى ، والتى شهدنا مظاهرها فى تكرار تعيينه وعزله ، تذكى بلا ريب فى نفسه شهوة الظفر بذلك الكرسى ، فيكون ذلك آية نصره على خصومه ومنافسيه . وكان المؤرخ قد بلغ فيكون ذلك آية نصره على خصومه ومنافسيه . وكان المؤرخ قد بلغ الرابعة والسبعين يومئذ ، ولكن نفسه الوثابة كانت تتطلع أبدا إلى مستد النفوذ والحاه . ويصور لنا هذه النفسية مؤرخ مصرى نزيه المقة فى إشارة

موجزة إذ يقول لنا فى خاتمة ترحمته المورخ و رحمه الله ، ماكان أحبه فى المنصب (١) . وكان ثمة شىء آخر إلى جانب هذا الشغف بالمنصب ؛ فقد كان بين ابن خلدون وبين خصومه نضال ، وكان منصب القضاء كا سرى محور هذه المعركة . يرتفع ابن خلدون إليه كلما استطاع أن يسرد مكانته فى القصر وأن يتغلب على كيد خصومه ، ويفقده كلما في حقه .

عزل ابن خللون من منصب القضاء للمرة الثانية فى المحرم ستةثلاث كما قلمنا، وذهب معزولا فى ركب السلطان إلى الشام ؛ فاتخذ خصومه بعده عن القاهرة فرصة للدس فى حقه ، وزعم بعضهم أنه هلك فى حوادث دمشق (٧). ويريد المؤرخ هنا أن نفهم أن المنصب كان محفوظاً له أو أنه وعد على الأقل برده إليه من أولى الأمر، فيقول لنا إنه على أثر هذا الإرجاف فى حقه عين مكانه فى قضاء المالكية ، حمال الدين الإقفهسي (حمادى الثانية سنة ثلاث) فلما عاد إلى مصر عدل عن ذلك، وعزل الإقفهسي ، وولى ابن خللون المرة الثالثة فى أواخر شعبان أو أوائل رمضان (٣) فلمث فى منصبه زهاء عام يعمل فى جو يفيض بالأحقاد والحصومة، ولكنه يقول لنا إنه لم يحفل كعادته بمصانعة الأكابر بالأحقاد والحصومة، ولكنه يقول لنا إنه لم يحفل كعادته بمصانعة الأكابر

<sup>(</sup>١) ابن تغرى بردى ، في المبل الصافى ج ٢ ورقة ٢٠١ .

<sup>(</sup>٢) التعريف ص ٣٨٣.

 <sup>(</sup>٣) یذکر این خلدون فی التعریف أن تعییته هذه المرة کان فی و أو اخر شعبان ه
 (س ٣٨٣) . ولکن این تغری بردی یؤوخ هذا التعین بیوم السبت ٣ رمضان ستة ٨٠٣
 ( المجل الصافی ج ٢ ورقة ٣٠١ ) ویقول این ایاس إنه کانف ١٣ رمضان ( تاریخ مصر ج ١ س ٣٣٧) .

وإنه استمر كما كان 1 من القيام بالحق والإعراض عن الأغراض 2 . فاضطرمت من حوله الدسائس القدممة ، واشتدت في حقه المطاعن والمثالب ، وأسفرت المعركة عن النتيجة المعتادة ، وعزل المؤرخ كرة أخرى في ١٤ رجب سنة أربع (٨٠٤) ، وولى مكانه حمال الدين البساطي في أواخر رجب، وهو ممن شغلوا المنصب من قبل . والظاهر أن المعركة كانت هذه المرة أكثر وضوحاً وصراحة ، وأن ابن خلدون عاتى من حملات خصومه ما لم يعان من قبل ، حتى إنه طلب بعد العزل أمام الحاجب الكبر ، ووُجه إليه كثير من النهم . ويقول لنا ابن حجر والسخاوي في هذا الموطن : ﴿ وادعوا عليه ﴿ أَي عَلَى ابنَ خَلَمُونَ ﴾ أموراً كثيرة أكثرها لاحقيقة له ، وحصل له من الإهانة ما لامزيد عليهه<sup>(1)</sup> . وهنا اشتلت المعركة بين المؤرخ وخصومه ، واستحالت إلى نضال عنيف سريع الأثر ، وبنَّى مظهرها التداول على المنصب ، ولكنه انحصر حيناً بن ابن خلدون والبساطى ، مما يدل على أن البساطى كان ممثل الحزبالذي يناوئ المؤرخ في هذا الدور من المعركة . والظاهر أيضاً أن ابن خلدون كان يعتمد في مقاومة خصومه علىعوامل وقوى ليست أقل أثراً مما يعتملون عليه ؛ فإنه لم يمض على ولاية البساطي نحو ثلاثة أشهر ، حتى عزل فى أوائل ذى الحجة ، وعين ابنخلدون للمرة

 <sup>(</sup>١) ابن حجر نی کتاب و رفع الأصر عن قضاة مصر ع (مخطوط دار الکتب البالف الذکر و رقة ١٥٩) و في النسخة المطبوعة ص ٣٤٦ ، و ينقله السخارى في الضوء اللام (طبع مصر) ج ٤ ص ١٤٦.

الرابعة في ١٦ ذي الحجة ، واستمر في المنصب عاماً وشهرين ؛ ثم رجحت كفة خصومه فعزل في السابع من ربيع الأول سنة ست(٨٠٦) وأعيد البساطي في الشهر نفسه ، ثم عزل في شهر رجب سنة سبع، وأعيد ابن خلدون للمرة الحامسة في شعبان سنة سبع ، ثم عزل بعد ثلاثة أشهر في ٢٦ ذي القعدة من نفس العام ؛ وأعيد خصمه القديم حمال الدين الإقفهسي فلبث ثلاثة أشهر ؛ ثم عزل وخلفه حمال الدين التنسي لمدة يومن فقط ؛ ثم أعيد البساطي في ربيع الأول سنة ثمان (٨٠٨) وعزل في شعبان من العام ذاته ؛ ثم أعيد ابن خلدون المرة السادسة ، فلبث في منصبه بضعة أسابيع فقط (١). وفي السادس والعشرين من رمضان صنة ثمان وثمانمائة (١٦ مارس سنة ١٤٠٦م) توفى المؤرخ والمفكر للكبير ، قاضياً للمالكية، وقد بلغ الثامنة والسبعين من حياة باهرة حافلة بجليل الحوادث، ورائع التفكير والابتكار،ودفن ممقيرة الصوفية خارج باب النصر ٢٦) وهي يومئذ من مقابر العظاء والعلماء . ويصل ابن خلدون في تدوين أخبار هذا النضال العجيب في التعريف، حتى عزله للمرة الخامسة فى ذى القعدة سنة سبع أعنى إلى ما قبل وفاته بعدة أشهر فقط.

<sup>(</sup>١) راجع فى أدوار هذه الممركة وسوادث التعيين والعزل - ابن خلدون نفسه فى التعريف ( مس ٣٨٦ ) م ١٢٣ ، فى التعريف ( مس ٣٨١ ) م و حسن المحاضرة للسيوطى ( مصر ) ج ٢ ص ١٢٣ ، و المبار السانى ( ج٢٠ و وقد ١٣٥ ) . و توجد مفارقات يسيرة فى التواريخ فى مختلف الروايات . ( ٢ ) السخارى فى الضوء الملاح ، المجلد الثانى من القسم الثانى مس ٣٧٠ . و فى المنطوعة ج ٤ مس ٣٧٠ . و فى المنطوعة ج ٤ مس ١٤٠٠.

# الفضالاثامن

### ان خلدون والتفكير المصرى

ابتماد ابن خللون في مصر عن أحداث السياسة . إنتاجه الأدني في هذه الفترة . حكم ابن خللون على المصريين . بغور الحصومة بينه وبين المجتمع القاهري . حملات الكتاب المصريين عليه . موقف الحافظ ابن حجر منه ومن مؤلفه . مطاعن الركراكي والبشيشي والسي في حقه . حملة السخاوي عليه . الجناح الذي يؤازره من الكتاب المصريين . تقدير المقتريزي له ولتفكيره . تأثر المقريزي بضكيره ونظرياته . ظهور هذا التأثير في كتابات المقريزي . نظريات المقريزي في أسباب محن مصر . شهادة أبي الهامن لابن خلدون . وتعباس القلقشندي من آثاره . حياة ابن خلدون في مصر . عزلته وآلامه الممنوية . أين كان

#### - 1 -

قضى ابن خلدون نى مصر ثلاثة وعشرين عاماً ( ٧٨٤ ــ ٨٠٨ هـ) ولكنها كانت بن مراحل حياته أقلها حوادث وأقلها إنتاجاً .

فأما عن الحوادث فإن الحياة السياسية العاصفة التي قضاها ابن خللون بالمغرب ، والتي جاز خلالها معتركاً شاسعاً من المغامرات واللسائس الحطرة، وعانى كثيراً من الخطوب والمحن، كما نعم مراراً بمراتب النفوذ والسلطان ، والتي هي في الواقع صفحة قوية شائقة من تاريخ المغرب في أواسط القرن الثامن ؛ هذه الحياة المضطرمة العاصفة ، استبدلها المؤرخ في مصر بحياة أكثر هدوءاً ودعة . وفي مصر يعيش ابن خلدون شخصية عادية لاعلاقة لها بشئون الدولة العليا ، بعد أن لبثت بالمغرب ربع قرن روح هذه الشئون ؛ ويتجرد من ثوب السياسي المغامر ليتشع بئوب العالم المقتدر ، وليستوحى نفوذه المحلود من هذه الناحية . على أن المؤرخ لتى في هذه الفرة حادثين من أهم حوادث حياته ، هما فقد أسرته ، ولقاؤه الفاتح الترى تيمورلنك .

وأما عن الإنتاج الأدنى، فقد رأينا أن المؤرخ حقق أعظم أعمال حياته، أعنى كتابة تاريخه الضخم ومقدمته الرائعة قبل مقدمه إلى مصر. ولانعرف أن ابن خلدون وضع أثناء مقامه عصر مؤلفاً جديداً ؛ غير أن الذي لاربب فيهمو أن وجوده بمصر علىمقربة منالمكاتب والمراجع الشاسعة، قد أتاح له فرصة التنقيح والتهذيب والإضافة في التاريخ والمقدمة ؛ وسنرى في فصل قادم أنه استمر في مراجعة مؤلفه والزيادة فيه في مواطن كثيرة ، ولاسها في أنباء الدول الإسلامية بالمشرق ، وأنباء الدول المغربية والأندلس في عصره ، وأنه وصل في رواية حوادث عصره حتى خاتمة القرن الثامن بعد أن كان يقف بها عند سنة ٧٨٣هـ ، عام الفر اغ من وضع مؤلفه .كذا استمر المؤرخ فى كتابةترحمة حياته أثناء إقامته بمصر، واستمر فها إلى قبيل وفاته ، وضمنها فصولا جديدة عن خواص دول الماليك المصرية ، ونشأة التتار . وكتب أثناء مقامه بالشأم وصفاً لبلاد المغرب ورفعه إلى تيمور لنك كما قدمنا .كذلك لاريب في أن ابن خلدون كان يعنى في دروسه ومجالسه بيث مبادئه وآرائه الاجباعية وشرحها ي غير أن ابن خلدون لم يستطع على مايظهر أن ينشئ له عصر مدرسة

حقيقية ، يطبعها بآرائه ومناهجه ، وقدكان حرياً أن ينشئ مثل هذه المدرسة فى بلد انقطع فيه للبحث والدرس أعواماً طويلة . نعم إن النفكر المصرى المعاصر ليس خلواً من تأثير ابن خلدون كما سنرى ، ولكن هذا التأثير الذي كان حرياً أن يزدهر عصر وأن ينبث في مدرسها التاريخية التي كانت يومئذ في أوج قوتها ، كان ضئيلا محدود المدى . ونستطيع أن نرجع ذلك إلى الروح الذى استقبل به المؤرخ من المجتمع المصرى المفكر ، وهو روح نفور وخصومة ؛ فقد جاء ابن خلدون إلى مصر يسبقه حكمه على المصريين في مقدمته بأنهم قوم؛ يغلب الفرح علمهم والحفة والغفلة عنالعواقب، (١). ويورد ابن علدون هذه الملاحظة فى معرض كلامه عن أثر الهواء في أخلاق البشر، ويعتبر ها نتيجة لوقوع مصر في المنطقة الحارة . على أنه مهما اتخذت هذه الملاحظة سمة البحث العلمي ، فإنها لامكن أن تقابل ممن قبلت في حقهم ، بغير الإستياء والحفيظة . وكان طبيعيّاً أن يحدث هذا الغرسالسبيُّ أثره في شعور المجتمع المصرى المفكر نحو المؤرخ . وكان هذا المحتمع نفسه يجيش عندئد بكث من عوامل الخصومة والمنافسة ، وزعامته يطبعها لون من الحفاء والقطيعة . وكان اضطرام المنافسة بن أعلام النفكير والأدب يومئذ سواء في ميدان التفوق والنبوغ ، أو في تحصيل ما تسبغه الزعامة الأدبية من الحاه والرزق ، ظاهرة هذه الحصومة . وكان المحتمع القاهري الأدبي ينقسم عندئذ إلى شيع وطوائف تنحاز كلشيعة أوطائفة إلى زعيم أوجناح

<sup>(</sup>١) المقدمة ص ٧٣.

معين من الزعماء ، فتوئيد جهوده الأدبية وتناجز خصومه في ميدان الحدل . فلم يكن من السهل على أجنبي مثل ابن خلدون ، جاء ينتظم في سلك هذا المحتمع منافساً في طلب الحاه والرزق ، أن ينعم بصفاء الأفق، أو يلقى خالص المودة والصداقة . هذا إلى ماكان يغلب على خلاله من حدة وصرامة وكرياء ، "تزيد من حوله الحفاء والقطيعة .

كان طبيعياً أن تلتي آراء ابن خلدون ودروسه في هذا الأفق الكدر من الإعراض و الانتقاص أكثر مما تلق من الإقبال والتقدير، وأن تكون علودة الذيوع والأثر. ومع ذلك فقد درس على ابن خلدون جمهزة من أعلام التفكير والأدب المصريين و انتفعوا بعلمه، وظهر أثر مجلياً في بعض تمرات التفكير المصرى المعاصر. وتمن درس عليه و انتفع بعلمه الحافظ ابن حجر العسقلاني المحلث والمؤرخ الكبير ؛ فهو يقول لنا في كتابه ونع الإصر عن قضاة مصرى إنه اجتمع بابن خلدون مراراً وسمع من فوائده ومن تصانيفه خصوصاً في التاريخ ، وإنه «كان لسناً فصيحاً حسن الرسل وسط النظم مع معرفة تامة بالأمور خصوصاً متعلقات المملكة»، وإنه كان جيد النقد الشعر وإن لم يكن بارعاً فيه (١٦). بيد أن ابن حجر عمل على ابن خلدون بشدة وينقل في ترحته كثيراً مما قيل في ذمه وتجرعه ، فهو يقول لنا في تاريخه إن ابن خلدون مؤرخ بارع و ولكنه لم يكن مطلعاً على الأخبار على جليما والاسيا أخبار المشرق (٢٠)، ويعارض المقريزى على الأخبار على جليما والاسيا أخبار المشرق (٢٠)، ويعارض المقريزى

 <sup>(</sup>١) رفع الإصر ( المحلوط المشار إليه ) ورقة ١٦٠ ، رقى النسخة المطبوعة
 ص ٣٤٤ ، ونقله السخارى في الضوء اللام ( مصر ) ج ؟ ص ١٤٧ .

<sup>(</sup>٢) أنباء النمر في أنباء العمر (مخطوط دار الكتب) ، ج ١ ص ٧١١ .

في مدح المقدمة ويرى أنها لاتمتاز بغير ﴿ البَّلاعَةِ والتَّلاعِبِ بِالكُّلامِ عَلَى الطريقة الحاجظية » وأن محاسمًا قليلة ، ﴿ غُمْرُ أَنْ الْبِلاغَةُ تَرْيِنَ بَرْحُرْفُهَا حتى برى حسناً ما ليس بحسن ه(١). وأماً ابن خلدون كقاض ، فإن اين حجر يقول لنا إنه باشر القضاء بعسف وبطريقة لم تألفها مصر، وإنه لما ولى المنصب تنكر للناس وفتك في كثير من أعيان الموقعين والشهود ، وإنه عزل لأول مرة بسبب ارتكابه التدليس في ورقة(٢) ؛ ثم ينقل في هذا الموطن كثيراً مما قيل في ذم المؤرخ وتجريحه . من ذلك و أن أهل المغرب لما بلغهم ولايته للقضاء تعجبوا ونسبوا المصرين إلى قلة المعرفة محيث قال ابن عرفة<sup>(٢)</sup> وكنا نعد خطة القضاء أعظم المناصب فلما وليها هذا عددنا بالضد من ذلك » . ومن ذلك قول الركراكي أحد الكتاب الذين عملوا سم ابن خلدون و إنه عرى عن العلوم الشرعية ، بل ينقل ابن حجر أيضاً بعض المطاعن الشخصية والأخلاقية التي قيلت في حق المؤرخ ؛ مزذلك مانقله عزالعينتاني وهو أنه كان يتهم بأمور قبيحة (٢٠)؛ وما نقله عن كتاب القضاة لليشبيشي ، وهو ﴿ أَنَ ابنِ خَلَمُونَ كَانَ فِي أعوامه الأخيرة يشغف بسماع المطربات ومعاشرة الأحداث، وأنه تزوج إمرأة لها أخ أمر د ينسب للتخليط ، وأنه كان ﴿ يِكُثُّر مِنِ الاز دراء بالناس وانه حسن العشرة إذا كان معزولا فقط ، فإذا ولى المنصب غلب عليه

<sup>(</sup>١) رفع الإصر ، ورقة ١٦٠ ، وفي النسخة المطبوعة مُن ٣٤٧ .

<sup>(</sup>٢) رَفَّمَ الإِمْرِ ، وَرَقَةَ ١٥٩ ، وَفَى النَّسَخَةُ الطَّبُوعَةُ مِنْ ٣٤٠ .

<sup>(</sup>٣) ابنَ عرفه مفتى تونس ، وكان خصها لابن خلدون كما قدمنا .

<sup>(</sup>٤) أنباء النس ع ج ١ ص ٧١١ .

الحفاء والنرق فلا يعامل بل ينبغى أن لايرى . . وهذه أقوال تم عن خصومة مضطرمة ، ومبالغة فى الانتقاص تنحدر إلى معترك السباب والقذف. وقد كان البشييشي (١) بلا ريب من ألد خصوم المؤرخ وأشدهم وطأة عليه . وقد دون حملاته على المؤرخ فى كتاب ألفه فى تاريخ القضاة ولم يصل إلينا ، ولكن ابن حجر ينقل إلينا منه تلك الفقرات الشخصية اللاذعة . وأخيراً يقول ابن حجر إن ابن خلون كان يتمسك بزيه المغربى وبأبي أن يرتدى زى القضاة لا لشيء سوى حبه المخالفة فى كل شيء (١)

على أن ذلك كله لم بمنع الحافظ ابن حجر من أن يستمع إلى دروس ابن خللون وأن ينتفع بها حسها تقدم . بل لم تمنعه هذه الحصومة الأدبية المضطرمة من أن يطلب إلى ابن خلدون أن يمنحه الإجازة العلمية التقليدية الى كان الظفر بها من أكابر العلماء والأساتذة شرفاً يُحرص عليه . وقد وصلت إلينا هذه الإجازة بشطر بها — ويرى القارئ صورتها الفتوغرافية منشورة فيا يلى (الاستدعاء) منشورة فيا يلى (الاستدعاء)

<sup>(</sup>١) وهو الجمال عبد الله البشيشي . ولد سنة ٢٩٦ ه بقرية بشييش من أعمال النوب والله . الغربية ، وتونى سنة «٨٢٠ . وكان من أكابر فقها، الشافعية ومن أقطاب الأدب والله . وقد ولى الحمية بالقاهرة حينا «ترجعه في الضوء اللام – اللهم الثالث المجلد الثانوس ١١٥ه . (٢) وفع الإصرف مواضع مختلفة من ترجمة أبن خلدون – الورقة ١٥٨ إلى الورقة ١٩٨ إلى الورقة ١٩٨ .

<sup>(</sup>٣) حصلت على صورة هذه الوثيقة من الأستاذ محمد برتاويت الطنجى. وقد حصل عليها هو يدوره من الأستاذ المستشرق الألماني ه. ريتر الأستاذ السابق مجامعة فرنكفورت متقولة عن مصنف ابن حجر «التذكرة الجديدة» (الجزء السادس) وهو الذي تُوجِه مته ندخة محطوطة في مكتبة أياصوفيا بامتانبول (رقر ١٣٣٧ أياصوفيا).

الذي كتبه ابن حجر بخطه و توقيعه مؤرخاً في أوائل شعبان سنة ١٩٧٩ ، وفيه يطلب إلى ابن خلدون أن يصدر له ولعدة من زملائه وإخوانه هذه الإجازة . وفي جانبها الأيسر نرى نص الإجازة التي أصدرها ابن خلدون مخطه و توقيعه في منتصف شعبان سنة ٧٩٧ ه لابن حجر و زملائه الذين تُقدم بأسائهم معه .

وموقف الحافظ ابن حجر من ابن خلدون وأثره يدعو إلى التأمل ؛ فهو على رغم اتزانه واعتداله وتحفظه ، ينساق هنا إلى نوع من التجريح والانتقاص ليس مألوفاً في كتاباته . ولاريبأن في لهجته وأقواله مبالغة وتحاملا. ولكن لاريب أيضاً أن لها قيمها في تقدير الرأى المصرى المعاصر لابنخلدون ، بل نستطيع أن نعتبر ها ممثلة لرأى الفريق المفكر الذي كان مخاصم المؤرخ ويشتد في تجر محه والحملة عليه ؛ وقدكان الفريق الأقوى بلا ريب ، لأنه كان يضم كثيراً من المفكرين والفقهاء البارزين مثل ابن حجر، والحال البشبيشي، والركراكي، وبدر الدين العيني (العينتاني). وقد امتنت آثار هذه الحصومة الأدبية طوال القرن التاسع الهجرى ، حتى جاء السخاوى فى أواخر هذا القرن يرددكل ماذكره ونقله شيخه ابن حجر فى ذم ابن خلدون وتجريحه والانتقاص من أثره ، ولكن فى لهجة مرة لاذعة تنم عن التحامل وقصد التشهير والهدم ، أكثر مما تنم عن قصد النقد الصحيح . وهذه الروح المرة اللاذعة تبدو في معجمه (النموء اللامع)في معظم تر اجم الشخصيات البارزة؛ بيد أنه يعترف في كتاب آخر له ( بنفاسة ؛ مقلمة ابنخللون ، ويبدو أكثر اعتدالاوتقدير أ(١).

- Y --

على أن ابن خلدون كان من جهة أخرى محظى بتقدير فريق قوى من الرأى المصرى المفكر . وكان على رأس هذا الفريق المؤرخ الملامة ، تقى الدين المقريزى . فقد درس المقريزى فى فتوته على ابن خلدون وأعجب بغزير علمه ، ورائع محاضراته ، وطريف آرائه ونظرياته . ويتحدث المقريزى عن شيخه ابن خلدون بمنهى الحشوع والإجلال وينعته و بشيخنا العالم العلامة الأستاذ قاضى القضاة ه (٢٠٠) ويتتبع أخياره فى مصر والشام فى كتابه والسلوك ، ويترجمه فى كتابه « دور المقود الفريدة» يرمهاب وإعجاب ، ويرتفع فى تقدير مقدمته إلى الذروة فيقول : « لم يعمل مثلها ، وإنه لعزيز أن ينال مجتهد منالها ، أذ هى زبدة المعارف والعلوم ، ونتيجة المقول السليمة والفهوم ؛ توقف على كته الأشياء ، وتعرف حقيقة الحوادث والآنباء، وتعر عن حال الوجود ، وتنبئ عن أصل كل موجود ، بلفظ أمهى من الدر النظيم ، وألطف من الماء مرى به النسم ، (٢٠٠) . وهو تقدير يعارضه فيه ابن حجر كما قدمنا . ويأخذ ابن حجر وتلميذه السخاوى على المقريزى موقفه من ابن خلدون ،

<sup>(</sup>١) كتاب الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ ( مصر ) ص ١٥١ .

<sup>(</sup>۲) راجع خطط المقریزی ، ج ۲ ص ۷۹ و ۱۹۰ .

 <sup>(</sup>٣) لم يَصْلنا من « درر العقود الفريدة » موى قطعة صغيرة . واعادنا هنا على
 ما نقله السخاوى و ابن حجر عن المقريزى ، في الضوء اللاسم السخاوى ، وفي رفع الإصر وأنباء النمر الابن حجر .

صورة لإجازة التي أصدرها ابن خلدون Michael Strains and all Copies of Base yage بخطه لابن حمجر وزملاته inthous Solution ای اور مسی می می می ماد حسیاسی می اولولود می درد. می دروسی می می ماد حسیاسی می دود اولولود می درد. می دروسی می ماد حسیاسی می این می اولولودد معدوه والرافاجة فانزل والماكلاه والعدوة مرحمها والدأة والإندائد بها ومثله الاصلادة marcal hours of the same of the ميرة الى الاستاذ محدث كاورت الطيني الله يراد いちにないしている とれる 一日からかからから لابن خلدون かんなり

نص الاستدعاء اللي قدمهُ أين. حجو

السادة والطاءالقادةأهل التحصيل والإفادة، والفضل والإجازة، الحمد قه والصلاة والسلام على رسول الله أجزت لهؤلاه

نفض الإجازة التي أميدرها بن خلدرن

أما بعد حمد الله اللهم لا يخيب عوّال سؤاله . ولا تعتشع مسعايب كرمه مع كثر ةأفضاله . والصلاة والسلام على أشرف الإستدحاء منالسادة العلماء والأعمة الفظهاء ونقلة الأخبار وحملة نللق عمد وآله . فالمسئول من إحسان كل وأقف على هذا بسم أنته الرحمن الرحيم

والإيداء فى الكمال والإمادة ، جسيع مامالوه ورجوه من الإجازة وأسلوء ، على شروطه المعتبرة عند الطماء البررة. وأخيرهم أن مولدى فى غرة ومضان عام أثنين وللائين ومسح مائة. واقد تدال يتفعنا وإياخم بالعلم والمطه، ويجعلنا مزمالكى سيله . وكتب يذلك عبد الرحن بن محمد بن خلدون الحضرمى ألمالكي في منتصرن شعبان عام سبقة وتسمين وسبعانه .

الآثار وناظمی الأشعار ، إجازة صاحب هذا الاحتداء أبي القاسم على بن أحمد بن على بن بشير ألبالسي ، ومحممه وفوز

إنى غمه بن مر بن مبه النزيز بن عمه الفروق . وعمه

وحسين ابني الشيخ نجم الدين عمد بن طل بن أتفسى المقداء نجم الدين عمد بن عقيل البالسي . رغمه وست العراق ابني شهاب الدين أحد بن عمد بن مسلم . وأن بكر بن قسسالدين عمد بن طبيع ومن عاصرهم من آبائهم وأمهائهم واخوتهم في العشر انثاني من رجبالفرد سنة سبع و تسمين وسبعهائة. وصلى القه حجر و لإيني عمه أبيالطيب أحمد شمبان بن محمد بن-حجر .وكتب الاستدعاء أب الفضل أحمد بن على بن عممه العسفلافي الشهير بابن وإغوائهم جميع مايصيع عنه روايتهمن مسموع رمجاز وسنظوم ومنثور وتأليف إجازة هامة بشرطها المعتبر . ولكاتب هذا على سيدنا محمد وآله وسلم وحسينا آلة تعالى وكني .

ويرميانه بالمبالغة والإفراط فى تعظيمه وإجلاله ؛ ويقدم إلينا ابن حمير تعليلا لهذا الموقف ، هو أن المقريزى كان ينتمى إلى الفاطمين ، وابن خلدون يجزم بإثبات نسهم ، ثم يقول لنا ، إن المقريزى غفل فى ذلك عن مراد ابن خلدون ، فإنه كان لانحرافه عن آل على ، يثبت نسب الفاطمين إلهم ، لما اشهر من سوء معتقد الفاطمين ، وكون بعضهم نسب إلى الزندقة وادعى الألوهية (٢).

وقد تأثر المقريزى فوق تعظيمه وتقديره لابن طلون، بنظرياته تأثراً كبيراً. وظهر هذا الأثر واضحاً فى كتابه وإغاثة الأمة بكشف الغمة ، الذى انتهت إلينا نسخة وحيدة منه تحتفظ مها دار الكتب المصرية <sup>(۲)</sup>.

في هذا الكتاب الذي يقول لنا المقريزي إنه كتبه في ليلة واحدة من ليللى المحرم سنة ٨٠٨ ، والذي يتحدث فيه عن محن مصر مند أقدم العصور إلى عصره ، ينحو المقريزي في الشرح والتعليل منحي شيخه وأستاذه ابن خلدون في مقدمته . فيقدم لرسالته بمقارنة موجزة بين الماضي والحاضر ، وملخص لما جازته مصر من محن الغلاء والشرّق منذ الطوفان إلى عصره ، ثم يفرد لنا فصلا يتحدث فيه عن الأسباب التي

 <sup>(</sup>١) رفع الإسر، الورثة ١٦٠، وفي النسخة المطبوعة ص ٣٤٨، ونقله السخارى
 في الضوء اللاسم.

<sup>(</sup>٢) توجد هذه النسنة ضمن مجموعة خطية محفوظة برقم (٧٧ مجاميع م) وتشغل فها من الورقة ١٤ إلى ٤٣ . وقد قام بتحقيق هذا المؤلف الأستاذان محمد مصطفى زيادة وجهال ألدين الشيال و شر بعناية لجنة التأليف و الترجمة و النشر (سنة ١٩٤٠).

نشأت عنها هذه المحن وأدت إلى استمرارها طوال هذه الأزمان. وفي هذا الفصل نرى مهج ابن خلدون في البحث والتعايل واضحاً ، بل نرى المقريزى يستعمل ألفاظ شيخه وعباراته مثل و أحوال الوجود وطبيعة العمران ، وما إليها ، وفي رأى المقريزى أن أسباب الحراب والمحن ، ترجع أولا : إلى تولية الحطط السلطانية والمناصب الدينية بالرشوة ، واستيلاء الظلمة والحهلاء عليها ، وثانياً : إلى غلاء إيجار الأطبان ، وزيادة نفقات الحرث والبلر والحصاد ( نفقات الإنتاج ) على الغلة ، وثالثاً : إلى ذيوع المتقد المنحط ؛ ويتبع ذلك بنبذة في تاريخ العملة في الدول الإسلامية ومصر . ثم يحدث عن طبقات المحتمع وأوصاف الناس ، ويقسم المجتمع المصرى إلى سبعة أقسام :

- (١) أهل النولة .
- (٢) أهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوى الرفاهية .
- (٣) الباعة وهم متوسطو الحال من التجار، وأصحاب المعاش، وهم السوقة.
  - (٤) أهل الفاح وهم أرباب الزراعة والحرث وسكان الريف.
    - (٥) الفقراء وهم جُل الفقهاء وطلاب العلم .
    - (٦) أرباب المصالح والأجر وأصحاب الهن .
    - (٧) ذوى الخصاصة والمسكنة الذين يتكففون الناس.

ويذكر المقريزى أحوال كل فريق بالتفصيل . ثم يتحدث عن أسعار عصره وبخاصة أسعار للواد الغذائية ، ويختم بشرح رأيه في معالجة هذه المحن ، وهو أن يغير نظام العملة ، فلا يستعمل منها إلا المكن الثابت من ذهب وفضة ، وهي فكرة تثبيت النقد بعينها .

هكذا ينحو المقريزي في الشرح والتعليل . وهكذا نلمس أثر المؤرخ واضحاً في منهج تلميذه ؛ ونستطيع أن نجد كثيراً من أوجه الشبه بن ما يعرضه المقريزي في رسالته ، وبن ماكتبه ابن خلدون في مقدمته عن طبيعة الملك وعوامل فساده ، وعن السُّكة ، وعن أثر المكوس في الدولة ، وأثر الظلم فى خراب العمران ، وكيف يسرى الحلل إلى الدولة ، وتغلما وفرة العمران والغلاء والقحط ، وغير ذلك مما يتعلق بانحلال الدول وسقوطها(١) ؛ بل نستطيع أن نلمح مثل هذا الأثر في بعض ماكتبه السخاوى نفسه فى كتابه « الإعلان بالتوبيخ » عن قيمة التاريخ وأثره فى دراسة أحوال الأمم ، فهنا يبدو السخاوى أيضاً رغم خصومته لابنخلدون متأثراً بفكرته الفلسفية في شرح التاريخ وفهمه ٠ وهنالك مؤرخ مصرى آخر هو أبو المحاسن بن تغرى بردى يشاطر شيخه المقريزي تقديره لابن خلدون، ويشيد مقدرته ونزاهته في ولاية القضاء، ويقول لنا إنه باشر القضاء محرمة وافرة وعظمة زائدة وحمدت سيرته ٣٠٠. ويظهر أثر ابن خلدون أيضاً في اعتماد بعض أكابر الكتاب المصريين المعاصرين عليه والاقتباس من مقدمته وتاريخه . ومن هوًلاء أبوالعباس

 <sup>(</sup>١) راجع هذه الفصول في مثدة ابن خلدون ، ص ١٤٠ – ١٤١ و١٥٧ –
 ١٥٨ و ٢١٧ – ٢٧٠ و ٢٤٦ و ٢٥٠ .

<sup>(</sup>۲) المنهل الصائي ، ج ۲ ورقة ۲۰۰ .

التملقشندى صاحب كتاب ٥ صبح الأعشى، فإنه يقتبس من ابن خلدون فى مواضع شتى من موسوعته(١) .

· - " -

هذه صورة دقيقة شاملة لحياة ابن خلدون فى مصر، وصلاته بحيائها العامة ، وأثره فى حركها الفكرية المعاصرة .

وهذه الحقبة من حياة المؤرخ ، وهي حقبة طويلة امتلت ثلاثة وعشرين عاماً ، تخالف في نوعها وظروفها حياته بالمغرب ؛ في المغرب عاش ابن خلدون بالأخص سياسياً يتقلب في خدمة اللول والقصور المغربية ، ويحوض غمر دمائس ومخاطرات لأنهاية لها . ولكنه عاش في مصر عالماً وقاضياً ؛ وإذا استثنينا مفاوضاته مع تيمورلئك في حوادث دمشق ، وسعيه إلى عقد الصلة بن بلاط القاهرة وسلاطين المغرب ، فإنه لم يتح له أن يودي في سر السياسة المصرية دوراً يذكر . وإذا كان ابن خلدون قد خاض في مصر معرك الدسائس أيضاً ، فقد كان هذا المعرك علياً عدود المدى ، شخصياً في نوعه وغاياته .

وكانت حياة ابن خلدون فى مصر أكثر استقراراً ودعة ، وأوفر ترفاً ونعاء من حياته بالمغرب. ولكن الظاهر أن سحباً من الكآبة والألم المعنوى كانت تغشى هذه الحياة الناعمة . فقد كان ابن خلدون فى مصر غريباً بعيداً عن وطنه وأهله ، وكان يعيش فى جو يشوبه كدر الخصومة وجهد النضال . ونسطتيع أن نلمس ألم البعاد فى نفس المؤرخ فى بعض

<sup>(</sup>١) راجع ۽ صبح الأعشي ۽ ج ۽ و ہ و ٢ فقيما أمثلة كثيرة من هذا الاقتباس .

المواطن، فهو يذكر غربته حين يتحدث عن اتصاله بالسلطان أثر مقدمه ويقول إن السلطان « أبر مقامه وآنس غربته » ، وهو يكشف لنا عيم هذا الألم فى مواطن كثعرة ::

ولا رب أن هلاك أسرة المؤرخ كانت عاملاً في إذكاء هذا الألم المعنوى ، وهو محدثنا عن هذه الفاجعة بلهجة الحزن والبأس حينيقول ! و فعظم المصاب والحزع ورجع الزهد ، »

وكان المؤرخ يوثر حياة العزلة في فترات كثيرة ؛ وهو يشعر إلى ذلك في بعض المواطن ، حيث يقول لنا إنه : « لزم كسر البيت ممتعاً بالعافية لابساً برد العزلة » . وتشعر التراجم المصرية إلى هذه العزلة فيقول لنا السخاوى : « ولازمه ( أى المؤرخ ) كثيرون في بعض عزلاته ، فحسن خلقه معهم وباسطهم ومازحهم » . وكان المؤرخ يشتغل في هذه الفترات عراسلة أصدقائه بالمغرب والأندلس ، من السلاطين والأمراء والفقهاء ، وهو يشعر إلى ذلك في عدة مواضع .

وقد يكون من الشائق أن نعرف أين كان يقيم المؤرخ بالقاهرة . ولدينا عن ذلك نصان نقلهما ابن حجر عن الجال البشبيشى ؛ ويقول الجال في أولها : • إنه كان يوماً بالقرب من الصالحية فرأى ابن خلدون وهو يريد النوجه إلى منزله وبعض نوابه أمامه ... ، • فيلوح من هذه الإشارة أن المؤرخ كان يقيم مدى حين على مقربة من الصالحية في الحي الذي تقع فيه هذه المدرسة أعنى حي بين القصرين أوفى أحد الأحياء القرية منه، وذلك لأن مركز وظيفته كقاض لقضاة كان سذه المدرسة ،

ولأن إيوان الفقهاء المالكية كان يقع بجوارها(١). وأما في النص الثانى فيقول لنا الحال ما يأتى مشراً إلى ولاية ابن خلون القضاء عقب عوده من دمشق سنة ثلاث وثما عائة : 1 إلا أنه (أي ابن خلدون) تبسط بالسكن على البحر وأكثر من ساع المطربات ... الخه (٢). ويستفاد من ذلك أن المؤرخ كان يقم في هذا الحين في أحد الأحياء الواقعة على النيل، ولعله جزيرة الروضة أولعله بالضفة المقابلة من الفسطاط ، حيث كانت لاتز ال بقية من الأحياء الرفيعة ، التي قامت هناك مذ خطت الروضة وعرت، وصارت منزل البلاط في أو اسط القرن السابع، وسكن الكراء والسراة في الضفة المقابلة لها من القسطاط. ويرجح هذا القرض أن المدرسة القمحية التي كان يدرس فيها ابن خلدون بلا انقطاع كانت تقع على مقربة من هذا الحي :

هذا وأما عن مثوى المؤرخ الأخبر ، فقد ذكر لنا السخاوى أنه دفن ع بمقابر الصوفية خارج باب النصر، ومحدثنا المقريزى عن موقع هذه المقابر (٢)، وقد كانت تقع بن طائفة من الترب والمدافن المى شيدها الأمراء والكراء فى القرن الثامن خارج باب النصر فى اتجاه الريدانية (العباسية). ومقرة الصوفية هذه أنشأها صوفية الخانقاه الصلاحية فى

<sup>(</sup>۱) راجع محلط المقريزي ، ج ۲ ص ۲۷۱ و۲۷۲ .

 <sup>(</sup>٢) سبق آن أشرقا إلى هذا النص . ويراجع النصان في كتاب رفع الإصر لاين حجز في ترجعة ابن خلدون . ( النسخة المطبوعة ص ٣٤٦ و٣٤٧) .

<sup>(</sup>٣) المطل ، ج ٢ ص ١٦٤ .

أواخر القرن الثامن فى هذا المكان . وخصصت لدفن الصوفية ، وقد كان المؤرخ كما نذكر ، مدى حن شيخاً لحانقاه بيبرس .

فهل يكشف لنا الزمن يوماً عن مثوى رفات المفكر العظيم ، فيغدو قمره أثراً جليلا ، عج إليه المعجبون برائم تفكره و خالد آثاره ١٩٤٠

<sup>(</sup>۱) علمت من صديق العلامة الأثرى الأستاذ حسن عبد الوهاب أنه قام ببحوث لتحديد موقع مقبرة الصوفية ، وانتهى بالاستناد إلى بعض القر ائن الأثرية ، واستكشاف بعض معالم قبور لبعض الأعلام الإخرين الذين دفنوا جا ، إلى أن المقبرة المذكورة ، كانت تقع فى الشرف العالى الواقع تجاء باب المصر عل قيد نحو مائة متر منه ، وتحد شرقاً بشارع نجم الدين الحالى ، وغرباً بقبة وصيفى عني الحواص »

# الكنائب إيثاني

تراث ابن خلدون الفكرى والاجتاعي

## الفضِلالأول

### علم الممران كما يمرضه ابن خلدون

فهم ابن خلدون التأريخ . علم العمر ان أو الاجباع البشرى . كيف يعتبر ه أساماً لفهم التاريخ . تحليله لظواهر المجتمع . تقسيمه لعلم العمر ان محديات المقدمة . نقد ابن خلدون لكتاب التاريخ . استعراضه لموضوع علمه . نظريته في العمبية . ابن خلدون والعرب . حلته عليم . بعض أصواء على أسباب هذه الحملة . حديثه عن الدولة والملك . نظريته في عمر الله وأسنافه . نشأة المدن والأمصار . الماش ووجوه الرزق . أفواع العلوم .

عتاز ابن خلدون عن حمهرة المؤرخين المسلمين بل عن حميم المؤرخين قبله، بأنه نظر إلى التاريخ كعلم يستحق الدرس لارواية تدون فقط. وقد أراد أن يكتب التاريخ على ضوء مهج جديد من الشرح والتعليل ، فانتهى به التأمل والدرس إلى وضع نوع من الفلسفة الاجماعية ؛ وكتب مقلمة موافعه التاريخي لتكون شرحاً وتمهيداً يُقرأ على ضوئها التاريخ وتفهم وقائعه ، فجاءت وحدة مستقلة من الابتكار الفائق ، تسجل منهماً جديداً في فهم الظواهر الاجماعية وتعليلها ، وفي فهم التاريخ ونقده وتحليلها ، وفي فهم التاريخ

ويصف لنا ابن خلمون هذا البحث الحديد الذي وفق إليه بأنه علم مستقل بنفسه ، وأنه ذو موضوع خاص ووهو العمران البشرى والاجماع الإنساني ، وذو مسائل دهي بيان مايلحقه من العوارض والأحوال لذاته واحدة بعد أخرى، ويقول لنا إن هذا العلم ومستحدث الصنعة غريب النزعة غزير الفائدة ، انهى إليه بالبحث الحاص ، وقم يقف لأحد قبله على كلام فيه ، اللهم إلا إذا كان القدماء الذين عفت آثارهم ولم تصلنا ، فهو أول من وضعه ونظم أصوله وشروحه .

وله العلم الحديد الذي ابتكره ابن خلدون ، في فهم التاريخ و در مه أهمية كبيرة ، فهو في رأيه قانون المحيص الحق من الباطل في الرواية ، وإظهار الممكن والمستحيل ؛ وذلك « بأن ننظر في الاجباع البشرى الذي هو العمران ، وتميز مايلحقه من الأحوال لذاته ، ويمقتضى طبعه وما يكون عارضاً لايعتد به ، وما لا يمكن أن يعرض له ؛ وإذا فعلنا ذلك ، كان ذلك قانوناً في تميز الحق من الباطل في الأخبار ، والصدق من الكذب، يوجه برهاني لا مدخل المشك فيه » ؛ ومحاولة فهم التاريخ على هذا النحو هي التي حملت ابن خلدون على درس هذا الموضوع على هذا الموضوع الحمران أو الاجباع البشري (١٠).

بيد أن ابن خلدون ينظر إلى موضوعه من أفق شاسع جداً ، ويجعل من الختمع الإنسانى كله ، وما يعرض له من الظواهر الطبيعية مادة لتأمله ، وعاول أن يتتبع هذا المحتمع بالدرس والتحليل في حميع أطواره منذ نشأته وبداوته ، إلى استقراره وانتظامه في المصر واللولة؛ وتردده بن الضعف والقوة ، والمتوقة ، والمهولة ، والمهوض والسقوط ، ويستقصى خلال ذلك ، أحوال هذا المحتمع وخواصه ، وعناصر تكويته وتنظيمه ، من الفرد و الحاعة إلى السلطان والدولة، وما يعرض لهذه العناصر

<sup>(</sup>١) القدمة ، ص ٣١ .

فى حيائها الخاصة والعامة من الظروفوالأحوال ؛ وما تقتضيه سلامة هذا المجتمع ، وما يؤذن بفساده وانحلاله ، فهو فى الواقع يعالج مادة شاسعة تفوق تعريفه الأول .

وفى مكان آخر يلخص ابنخللون ، مادة علمه من الناحية الموضوعية في أنها ه مايعرض للبشر في اجباعهم من أحوال العمران في الملك ، والكسب والعلوم والصنائع بوجوه برهانية ، يتضع بها التحقيق في معارف الخاصة والعامة وتلغم بها الأوهام والشكوك الأنا ثم يقسم بعد ذلك موضوعه إلى ستة فصول كبرة هي :

الأول ــ فى العمران البشرى على الحملة وأصنافه وقسطه من الأرض. الثانى ــ فى العمران البدوى وذكر القبائل والأمم الوحشية .

الثالث ــ فى المعول والحلافة والملك وذكر المراتب السلطانية .

الرابع ــ في العمران الحضري والبلدان والأمصار.

الخامس ــ فى الصنائع والمعاش والكسب ووجوهه .

السادس ــ فىالعلوم واكتسامها وتعلمها(٣) .

وهذا التقسيم الإحمالي يقدم إلينا فكرة عما يرى ابن خلدون أنه مادة فمذا العلم الذي يسميه بالعمران أو الإجماع البشرى . وهوتقسيم تبدو هقته وبراعته متى استعرضنا بعد ذلك مواد مقدمته كلها ، ورأيناكيف ينبسط الموضوع ويتشعب إلى أبعد الحدود ، وكيف ينظم ابن خلدون

<sup>(</sup>١) المقلمة ، ص ٣٣ .

<sup>(</sup>٢) المقدمة ، ص ٣٤.

حلقات بحثه فى سلسلة وثيقة الاتصال والنماسك. تشهد بتقوق هذا الذهن العبقرى، وطرافته . وقوة تدليله وجدله .

#### - Y -

لسنا نحاول فى هذه الرسالة أن نتتاول فلسفة ابن خلدون ونظرياته الاجبّاعية بالتحليل والنقد<sup>(۱)</sup>، فتلك مهمة لايتسع لها هذا المقام الضيق . ولكنا نحاول فقط أن نستعرض محتويات مقدمته بإيجاز ، وأن نقف قليلا ببعض نظرياته الاجبّاعية .

يبدأ ابن خلدون مقدمته بالحديث عن قيمة التاريخ ومذاهبه ، وعما يرتكبه المؤرخون من الأخطاء في إير اد الأخبار والوقائم ، سواء بعامل الغرض والتحرز ، أوبعامل السهو والحهل بقوانين العمران وأحوال المحتمع ، وعدم الدقة والتمحيص في تقدير الممكن والمستحيل ، ثم يمثل لذلك بعدة أمثلة يناقشها و يحاول أن يبين وجه الحطأ فيها . يبد أن هذه المناقشة لاتخلو أحياناً من الضعف أو الحوى ؛ فأما الضعف فيبلو مثلا في أسباب دحضه لقصة العباسة أخت الرشيد مع جعفر البرمكي، وفي أسباب دحضه لقصة العباسة أخت الرشيد مع جعفر البرمكي، وفي فيبلو مثلا في حديثه عن نسب الحلفاء العبيديين (الفاطمين) ، ونسب فيبلو مثلا في حديثه عن نسب الحلفاء العبيديين (الفاطمين) ، ونسب الحدورة المتحديدين (الفاطمين) ، ونسب الحدورة المتحديدة المناطعين التي توجه إلى

 <sup>(</sup>١) يستطيع من يريد شرحاً وافياً لفده ابن خلدون ونظرياته الفلسفية والإجماعية أن يرجم إلى رسالة صديق الدكنور طه حـبن ( فلسفة ابن خلدون الاجماعية ) التي نقلتها إلى العربية .

 <sup>(</sup>۲) المقدمة ، ص ۱۲ و ۱۶ و ۱۹ و ۱۷ .

نسبهما (۱). ويبلو كذلك فى دفاعه عن صحة دعوة المهدى ابن تومرت: وصلق إمامته، بل وصحة انتسابه إلى آل البيت (۱). وقد رأينا أن حياة ابن خللون كسياسى يتقلب فى مختلف اللول والقصور، تجعله يخضع أحياناً لموثرات اللدعوة والهوى . على أن معظم حديثه فى هذا الفصل طريف ممتم ، وكثير من مآخذه على أسلافه من الرواة والمؤرخين قوى صارم . وهو يتدرج من ذلك إلى ضرورة تمحيص الوقائع والأخبار طبقاً لهذا القانون الذى يتكون فى رأيه بدرس العمران أو الاجباع البشرى على نحو ماقدمنا .

بعد هذا التمهيد التقدى المستفيض ، محدثنا ابن خلدون عن العلم الذي ابتكر موضوحه ، فيبدأ طبقاً لتقسيمه الذي أتينا عليه ، بالحديث عن العمران أوالاجهاع البشرى بصفة عامة ، ويشرح لنا طبيعة الاجهاع وضرورته وكيفية تنوعه بالنسبة للإقلم، وتأثره بظروف الحو من الحر والرد و الاعتدال ، وأثر الهواء في أخلاق البشر وألوانهم وأحوالم، ويستعرض خلال ذلك جغرافية العالم كماكانت تعرف في عصره ، وهي جغرافية الأقالم السبعة . ولسنا نلمس في هذا الفصل كثراً من الطرافة أو الحدة . وفي القصل الثاني يتناول ابن خلدون أنواع العمران البدوى، فيحدثنا بإفاضة عن المحتمع البدوى وخواصه ويقارنه بمجتمع الحضرن فهو وهنا إحدى النظريات الاجهاعية المبتكرة التي يطالعنا ما المؤرخ ، فهو

<sup>(</sup>١) المقدمة ، ص ١٧ و ١٨ و ١٩ و ٢٠ .

<sup>(</sup>٢) القدمة ص ٢٢ و ٢٣ .

عدثنا هنا عما يسميه و العصبية ، وهي عبارة عما تتمتع به التبيئة أو الأسرة من القوة والحاه ، وقوامها في نظره الاتصال برابطة النسب والقرابة وما إليهما من الروابط المائلة . وهذه العصبية هي منشأ الرياسة والسلطان أو اللولة في المجتمع البدوى ؛ وتكون هذه الرياسة الأهل العصبية ؛ ومدى الحسب الذي تترتب عليه العصبية فالرياسة ، في نظره أربعة أجيال ، وقد عند إلى خسة أوستة ولكن في حالة انحطاط وضعف . وتنهار العصبية ومن ثم الرياسة بانحلال الحسب . وتنتقل إلى عشرة أو أسرة أخرى تجتمع لها أسباب الكرة والقوة وهكذا . وغاية العصبية هي المناف واختلاف صوره ومداه باختلاف الى عالم المناوبة ، ومداه باختلاف المي يقوم فيها ، وأثر الغلبة في الأم المغلوبة ، وكونها موقعة دائماً بتقليد الغالب .

ثم محدثنا ابن خلمون عن العرب. وحديث ابن خلمون عن العرب طريف شائق رغم مايطبعه من شدة وتحامل . فالعرب فى نظره أمة وحشية ، تقوم فتوحهم على النهب والعيث، ولايتغلبون إلا على البسائط المسهلة ، ولايقدمون على اقتحام الجبال أوالحضاب لصعوبها ؛ وإذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب لأن طبائعهم من الرحلة وعدم الانقباد والحروج على النظام منافية العمران، ولأنهم أهل تحريب ونهب،

<sup>(</sup>١) راج شرح ابن خلدون لنظريته في العصبية ، وخواصها وتطورها في المقدمة ص ١١٧٥-١٠ . وقد تناو لنصديق الذكتور طاهر خميري نظرية العسبية من ابن خلدو ناوير سالة بالأبانية منوائها : Der Asabija Begriff in der Maquaddima des Ibn Haldun , وقد نشرت في مجلة Der Islam الأبانية (Band XXIII, 1936) .

عربون المبانى وينهبون الأرزاق ، ويفسدون الأعمال والصنائع ؛ وهم أبعد الأثم عن سياسة الملك ، لأنهم لبداوتهم وخشونهم أكثر شعوراً بالاستقلال والحرية ، لايدينون لرياسة أونظام . وسياسة الملك تقتضى النظام والحضوع والانقياد<sup>(۱)</sup> . ويستمر ابن خلدون بعد ذلك فى حلته على العرب فى مواضح أخرى من مقدمته ، فيقول لنا إن الأبنية التى يختطها العرب يسرع إليها الحراب، وإن العرب أبعد الناس عن الصنائع، وأبهم ليسوا أهلا للعلم ، وإن حملة العلم فى الأثم الإسلامية أكثرهم من الأعاجم ، إلى غير ذلك مما يفيض ابن خلدون فى شرحه وتعليله (۱)

و يجب أن نذكر أولا بعض الوقائع التاريخية، التي يمكن أن تكون قد اشركت في تكوين بعض هذه النظريات في ذهن ابن خلدون ، ولاسيا ما تعلق مهابزعة العيث والتخريب، التي ينسها ابن خلدون للعرب، والتي يقول إنها خاصة لفتوحهم وتغلهم . ونبدأ في ذلك بالقول بأن ابن خلدون كون كثيراً من نظرياته على ضوء الأحداث التاريخية ، والتقلبات الدولية التي شهدها في المغرب وشيال إفريقية، وتلك التي وقعت قبل عصره بنحو قرن ونصف ، في نفس تلك المهاد التي ولد فها ابن خلدون ، وعاش فها أسلافه ونعي في إفريقية . وتعنى إفريقية في الحغرافية العربية ، منطقة تونس الحديثة وشطراً من شرقى الحزائر ، وذلك فها بين خليج منطقة تونس الحديثة وشطراً من شرقى الحزائر ، وذلك فها بين خليج منطقة تونس الحديثة وشطراً من شرقى الحزائر ، وذلك فها بين خليج منطقة تونس الحديثة وشطراً من شرقى الحزائر ، وذلك فها بين خليج منطقة تونس شرقاً ، والحزائر وتاهرت غرباً ، وبلاد الحريد جنوبا . وقل

<sup>(</sup>١) المقدمة ص ١٢٥ و١٢٧.

<sup>(</sup>٢) المقدمة ص ٣٠٠ ر٣٧٧ ر٧٧٤.

لبثت إفريقية منذ منتصفالقرن الحامس، زهاء قرن ونصف، مسرحاً لعيث طوائف العرب النازحة إلها من المشرق ، وتعرضت ثغورها ، وأمصارها العريقه ، لأشنع ضروب العدوان ، من النهب والتخريب والاستباحة ، على يد هذه الطوائف. وقصة نزوح طوائف العرب إلى إفريقية تتلخص فىأن بعض بطون منهلال وسألم ورياح وزغبة وعدى وغبرها ، كانت قد صحبت جيوش القرامطة حنن زحفها من الشام لغزو مصر ، فلما هزم القراءطة على يد الحليفة الفاطمى العزيز بالله (سنة ٣٦٨ هـ) ، رأى أن يستبقى طوائف العرب النازحة بمصر ، ونى مقدمتهم هلال وسُلم ، وأنزلم بالصعيد، فلبثوا هناك حتى عصر الحليفة المستنصر بالله ، وتكاثروا ، وتفاقم عيثهم وشرهم . وكانت إفريقية وهي من الولايات الفاطمية السابقة ، قد خلعت لواء الحليفة الفاطمي، وأعلن أمرها المعز بن باديس الصهاجي انضواءه تحت لواء الحلافة العباسية ( سنة ٤٣٧ هـ ) . فعز ذلك على الحلافة الفاطمية ، واقترح وزير الستنصر بالله ، أبو محمد الحسن اليازوري ، أن تُرحَّل طوائف العرب من مصر إلى إفريقية ، وأن تغرى على ذلك بالأموال والوعود ، فتحقق مصر بذلك أمرين ، الأول أن تستريح من عيث هذه الطوائف. والثاني أن يُرمى بها آل زيري الصهاجيون المتغلبون على إفريقية ، فتغدوا لهم بذلك عنصراً من عناصر المقاومة والحصومة ، والاضطراب والفوضى . ونجح الوزير اليازورى فى مشروعه ، وبذل لشيوخ العرب ولأفرادهم المنح المغرية ، من المال والدواب ، وأباح لمم عبور النيل ، فعيرت جموع غفيرة من بطون هلال وسُألِم ، وسارت إلى برقة ، واقتحمت أمصارها ، واستباحبًا ، واستولت على أسلامها، وبعثوا إلى إخوانهم الباقين بمصر ، يرغبونهم في اللحاق بهم ، فجازت منهم إلى المغربطوائف أخرى من رياح وربيعه وزغبة وعدى ودياب وغيرهم ، ولحقوا بإخوانهم بإفريقية، وهم على قول ابنخلدون وكالحراد المنتشر لاعرون على شيء إلا أتوا عليه ٥ . وبدأت هذه الطوائفالقادمة بالتدخل في شئون إفريقية ، والضرب والتفريق بن أمرائها الصهاجين، من آل باديس ويني حماد ، وزحفوا على أمصارها العربقة ، وخربوا مدينة القبروان وأحوازها ، وغزوا قسنطينة وتونس وباجة والمهدية وسوسة وغيرها، واستولوا علىسائرنلك الأمصار والأراضي واقتسموها، واضطربت شئون إفريقية وساد بها الذعر والفزع ، والهارت أركان النظام والأمن ، وفسدت السابلة ، وبسطت طوائف العرب علما حكم إرهاب مروع ، وغلبوا على سائر القبائل الدبرية من صنهاجة وزناتة ومغراوة وغير ها، وسيطروا بذلك على نواحي طرابلس، وقابس، والزاب ومعظم أنحاء إفريقية . وكان ذلك في منتصف القرن الحامس الهجري(١٠). وغدت طوائف العرب النازحة ، من ذلك الحنن ، عنصراً بارزاً في شئون هذه المنطقة ، تشارك في حوادثها ، وتعمل دائماً على بث الاضطراب والفوضي إلها ، وتحالف أمراءها أوتخاصمهم، وتشاطرهم السيادة ، واقتسام الأموال والحباية ، لاتحدوهم فى ذلك أية مثل دينيةً

<sup>(</sup>١) أبن خلدون في كتاب العبر ج ٦ ص ١٣ وما بعدها .

أوسياسية، ولاهم لمم إلااجتناء الكسبو المغانم، من أى جانب وبأى الوسائل ولبث هذه الطوائف على أسلومها فى الهيث والإفساد دهراً، وحموعها تتكاثر، وشرها يتفاقم. ولما قدم الحليقة الموحدى عبد المؤمن بن على بحيوشه إلى إفريقية سنة ٤٥٥ ه ، لافتتاح ثغر المهدية، واستنقاذه من أيدى الفرنج الصقلين، وشهد من عيث طوائف العرب، وخطرها ما هاله، حاول قبل عودته إلى المغرب، أن يستميل هذه الطوائف، وأن يحملها على الانتظام فى جيوشه، ولكنه فشل فى محاولته، بيد أن خي استطاعت أن تحقيق بلد النابة، بيد أن من استطاعت أن تحقيها بطريقة جزئية أيام الحليفة أبى يوسف يعقوب ابن عبد المؤمن، وولده الحليفة أبى يعقوب المنصور.

على أن أغلبية الطوائف العربية النازحة ، لبثت فى منازلها وأحيائها بإفريقية ، حى عرضت فرصة جديدة لنشاطها المحرب فى تلك الأنحاء هى غزو بنى غانية ، لثنور إفريقية ، واضطرام ثورتهم بها ضد الحلاقة الموحدية نحو ثلث قرن . وكان بنو غانية هوئلاء ، وهم أصحاب الحزائر الشرقية (جزائر البليار) من أولياء اللولة المرابطية الذاهبة ، يضمرون ضرب الحلافة الموحدية، والانتقام منها أبنا استطاعوا ، وكانت إفريقية أقرب وأيسر مسرح لتحقيق هذه الغاية ، وذلك لقربها من الحزائر الشرقية ، ونأمها عن مراكش ، مركز الحلافة للوحدية . فسار زعيمهم على بن اصحاق بن غانية الميورق ، فى سفنه إلى بحاية وافتتحها سنة ٨٥٨ على بن اصحاق بن غانية الميورق ، فى سفنه إلى بحاية وافتتحها سنة ٨٥٨ ملى بن اصحاق بن غانية الميورق ، فى سفنه إلى بحاية وافتتحها سنة ٨٥٨ بن بني غانية وبن الحلافة الموحدية في إفريقية ، واستطاع بنو غانية عوَّازرة العربالمرتزقة ، أن يفتتحوا معظم ثنور إفريقية وأمصارها . وَلَمَا تُوفَى عَلَى بن غَانِيةً ، خلفه أخوه محى بن إسحاق فى قيادة المعركة . واستمرت المعارك سحالا، بن الميارقة وأحلافهم العرب، وبن الحلافة الموحدية ، زهاء ربع قرن ، حتى استطاع محى بن غانية أخبراً أن يستولى على تونس عاصمة إفريقية فى سنة ٦٠٠ ﻫ ( ١٢٠٣م ) ، وذلك بعد أن إستولى على سائر ثغورها وأمصارها ، مثل المهدية وصفاقس وقابس والقبروان وقفصة وبلاد الحريد ، ولم يبق بيد الموحدين منها سوى قسنطينة وبجاية ، ولعبت طوائف العرب من هلال وسُلم ورياح وزغبة ، ودياب ، في تلك المعركة أدواراً هائلة ، وتقلبت في محالفة الفريقين المتحاربين، ولكم اكانت أكثر انضهاما إلى صفوف بني غانية، واشتركت في أعمال التخريب والنهب والاستباحة الفظيعة ، التي ارتكمها بنو غانية ، طوال هذه المعركة ، في سائر الأمصار المفتوحة ، وعانت إفريقية وثغورها وأمصارها التالدة ، خلال تلك المحنة ، من صنوف العيث والتخريب والقتل والتشريد ، واضطراب النظام والأمن ، ما لم تعان مثله منذ عصور طويلة<sup>(١)</sup> ، حتى وقعت المعركة الفاصلة ، أخيراً

<sup>(</sup>۱) يشير ابن خلدون في مواضع كثيرة إلى عيث أولتك العرب وتخريبهم لمدن إفريقية . (راحم كتاب العبر المقلمة ص ١٣٦ وج ١ ص ١٤٤ و ١٥ ا ١٠) . ويشير الشريف الإدريسي إلى ذلك غير مرة (ومت المغرب وأرض السوداد ومصر والأندلس المنشور بدناية دوزي ص ٩٣ و ١٠٥ و ١٠ و ١٩٢٥) ، وكذلك صاحب كتاب الاستبصار في عبائب الأسمار (ص ١٣٨ و ١٣١) .

بين بنى غانية وأحلافهم العرب ، وبين الموحليين فى جبل تاجرا ، على مقربة من خليج قابس فى سنة ٢٠٢ ه (١٢٠٥ م) وفيها سحق الميارقة وأحلافهم ، وركد أمر بنى غانية من ذلك الحين، وإن كانت مغامر اتهم قد استمرت فى المناطق الحتوبية حقبة أخرى ، حتى انتهت بوفاة عاهلهم كيى بن إسحاق بن غانية الميورق فى سنة ٣٣٣ ه ( ١٣٣٥ م) .

تلك هي الصورة المروعة ، التي انطبعت في ذهن ابن خلدون عن إفريقية ودور العرب في تحريب أمصارها ، وقد كان ذلك كله قبل عصر ابن خلدون بنحو قرن ونصف فقط ، وكانت آثار هذا التخريب، وذكرياته ، مازالت حية في إفريقية قبل مولد ابن خلدون بقليل ، وكانت ملا ترال مادة لأقلام بعض الكتاب المعاصرين ، مثل أي عبدالله التجاني ، الذي عاش في أو اثل القرن الثامن الهجرى ، أعني قبيل مولد ابن خلدون بنحو خسة عشر عاما ، فقد دون في رحلته الكثير مما تقدم ، من معارك بني غانية و الموحدين ، ومن دور العرب في استباحة أمصار إفريقية و تحريب الله المقتوحة ، في صوغ نظريات ابن خلدون عن خواص تحدث أثرها الواضح ، في صوغ نظريات ابن خلدون عن خواص المتوح المربية ، وعن ميل العرب إلى تحريب البلاد المقتوحة ، ومهما والعيث فيها ، وأنهم على الحراب إلى أخريب البلاد المقتوحة ، ومهما والعيث فها ، وأنهم على الحراب في الأعوام الأخيرة ، الاعتذار عن موقف ابن خللون من العرب ، وتبرئة العرب من نظرياته وأحكامه في حقهم ،

<sup>(</sup>١) رحلة التجانى المنشورة في تونس (سنة ١٩٥٨).

وذلك بقولم ، إن ابن خلدون يقصد بالعرب ، الأعراب أو البدو، ولا يقصد العرب أنفسهم، وفي رأينا أن هذا الاعتذار ركيك ومغصوب معا ، وفيه انتقاص كبير لتفكير ابن خلدون المتزن المنظم ، ومنطقه القوى السليم . وليس ابن خلدون بالمفكر الذي يعجزه تسمية الأشياء بمسمياتها الحقيقية . ولوكان يقصد البدو، لما فاته أنيستعمل هذه الكلمة . وإنما يقصد ابن خلدون بسائر نظرياته المتقدمة والعرب، أوبعبارة أخرى، وكاما يقصد ابن خلدون بسائر نظرياته المتقدمة والعرب، أوبعبارة أخرى، نفسه ، أولا في شرح نظريته و في أن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع عرابهما ، وكذلك خربت إفريقية والمغرب ، لما جاز إليا بنوهلال وبنو سليم (١) ، وما يقوله في شرح نظريته الأخرى و من أن حملة العلم وبنو سليم (١) ، وما يقوله في شرح نظريته الأخرى و من أن هملة العلم وبنو سليم (١) ، وما يقوله في شرح نظريته الأخرى و من أن هملة العلم وبنو سليم (١) ، وما يقوله في شرح نظريته الأخرى و من أن هملة العلم وبنو سليم (١) ، وما يقوله في شرح نظريته الأخوى و من أن هملة العلم وبنو سليم (١) ، وما يقوله في الإصحابة والتابعون ، وسائر سكان شبه الحزيرة (١)

تلك هي عناصر حملة ابن خلدون على العرب . بيد أنه إذا كان ابن خلدون يعتمد في هذه الحملة على كثير من الأدلة والملاحظات الصادقة فإنه مع ذلك يبالغ في حكمه على العرب ، وتعوزه الحجة في كثير من آرائه . ولا يتسع المقام هنا لمناقشته وتفنيد آرائه بإفاضة . ولكنا نقول

<sup>(1)</sup> راجع المقدمة ص ١٢٦ .

<sup>(</sup>٢) راجَّم المقدمة ص ٤٧٧ .

فقط فى شأن الفتوحات العربية، إن العرب هم الذين افتتحوا وهاد الشام ومفاوز الأناضول وأرمينية، وتوغلوا فيما وراء فارس، واقتحموا شمال إذ يقية حتى المغرب الأقصى ثم اسبانيا، وعبروا جبال الدرنيه إلى فرنسا : وهذه كلها أقطار وعرة وليست من البسائط التي يسهل غزوها . وقد افتتحها العرب حميماً في أقل من قرن ، وفي وابل من الظفر الباهر . ثم إن العرب لم مخربوا هذه الأقطار ، ولكنهم بالعكس أقاموا فها دولا ومحتمعات عامرة زاهرة ؛ ويكنى لكى ندحض نظرية ابن خلَّدون في خواص الفتوح العربية أن نستشهد بقيام الدولة الأموية في المشرق ، ثم قيام الدولة الإسلامية فى اسبانيا . وقد نفهم سر هذا التحامل الذى يطلق رأى ابن خلدون فى العرب عثل هذه الشدة ، إذا ذكرنا أنه رغم انتسابه إلى أصل عربي ، ينتمي في الواقع إلى ذلك الشعب العربري الذَّى افتتح العرببلاده بعد مقاومة عنيفة، وَفرضوا عليهدينهم وَلغتهم، واضطروه بعد طول النضال والمقاومة والانتقاض ، أن ينلمج أخراً في الكتلة الإسلامية ، وأن نخضع راغماً لرياسة العرب في المغرب وأسبانيا ، حتى تحن الفرصة لتحرره ونهوضه. والخصومة بن العرب والعربر في المغرب واسبانيا شهرة فى التاريخ الإسلامى ؛ وقد ورث العربر بغض العرب منذ بعيد ، ونشأ ابنخلدون وترعرع فى هذا المجتمع البربرى يضطرم عشاعره وتقاليله وذكرياته ، ونشأت فيه أسرته قبلَ ذلك عائة عام ، ونعمت برعاية الدولة الحفصية الموحدية، وهي ترجع إلى أصول بربرية عريقة ، وتقلبت في نعمهم ، فليس غريبًا بعد ذلك أن نسمع منه أشد الأحكام وأقساها على العرب 🛊 بيد أنه بجب أن نلاحظ من جهة أخرى أن ابن خلدون بجيش هنا بنزعة علمية وأخرى قومية ، فابن خلدون محمل على العرب الذين ينتسب إليهم بمثل هذه الشدة ، ولكنه محاول هنا أن يدعم حملته بالأدلة والشواهد التاريخية ، ويطيع حديثه هنا نزعة علمية تحررت من أغلال التقاليد الموروثة . وهو قد يجيش هنا أيضاً بعاطفة وطنية قومية ، فهو ينطق هنا فيا يبدو بلسان ذلك الوطن البربرى ، الذي غزاه العرب وأثخنوا فيه مدى أحقاب ، وبسطوا عليهم سلطانهم الديني والسياسي ، ولبث عصوراً يقاتل في سبيل حرياته واستقلاله .

وفى الفصل الثالث عدثنا ابن خلدون عن الدولة والملك. فالدولة محدث بالقبيل والعصبية على نحو ماتقدم ، وللدولة خواص معينة ، وصور معينة تختلف باختلاف القائمين بأمرها ؛ وللدعوة الدينية أثر في تقوية الدولة ، ولكن الدعوة الدينية لاتتم إلابالعصبية أيضاً . والحلاف يوهن الدولة ويدنى أجلها . والمملك كما للدولة طبائع وخواص ، مها الانفراد بالمحد، والترف والدعة والسكون ، وهي خواص إذا استحكمت الانفراد بالمحد، والترف والدعة والسكون ، وهي خواص إذا استحكمت فإنها تحمل الدولة إلى الهرم ثم الفناء . ثم إن للدولة أعماراً طبيعية كالأشخاص ؛ ويقدر ابن خلدون عمر الدولة منذ نشأتها حتى الفتوة ثم الكهولة فالهرم والسقوط، بثلاثة أجيال فى الغالب ، ويقدر الجيل بأربعين عاماً ، فعمر الدولة لايعدو فى الغالب مائة وعشرين سنة إلا فى أحوال نادرة (۱) . وهذه النظرية تتفق مع نظرية الحسب الى تقدمت

<sup>(</sup>١) القدمة ، ص ١٤٢ ، و١٤٣. "

**ع**ند ذكر العصبية . وهنا يبلغ ابن خللون ذروة الابتكار والطرافة ، وتبدو نظرياته الاجتماعية وتحليله للمجتمع ، في منهى القوة والروعة ، وفى رأينا أن هذا الفصل هو أبدع أقسام المقلمة وأمتنها في العرض والتدليل، وأسطعها في الدلالة على براعة هذا الذهن القوى الممتاز . ويستمر ابن خلدون في موضوع الدولة والملك طويلا ، فيتناول بعد ذلك تحول الدولة من البداوة إلى الحضارة ، وأطوارها المختلفة . وأثر الموالي والمصطنعين في هذا التطور . ثم يتناول الملك وأصنافه ، والإمامة والخلافة واختلاف الآراء في شأنهما ، ومذاهب الشيعة ؛ ثم يتحدث عن تحول الخلافة إلى الملك ، ورسوم الخلافة من بيعة وولاية عهد وغرهما، وألقامها وخططها الدينية، وهي القضاء والعدالة والسُّكة ؛ ثم عن الملك وخططه كالوزارة ودواوين الأعمال والحباية والرسائل والشرطة وقيادة الأساطيل ؛ ورسوم الملك وشاراته المختلفة ، والمروبومذاهما، والحباية والمكوس ونظم التجارة؛ ونحتم ابن خللون هذا الفصل بالكلام عن الظلم ، وكونه يو"دىإلى انحلال الدولة وخراب العمران ، وحديثه هنا أيضاً قوى مبتكر .

ويلحق بموضوع الدولة حديث البلدان والأمصار ، ونشأة المدن وخواصها واختلاف ظروفها وأحوالها ، من خصب ورفاهة وجدب وفقر ، وهو اختلاف بتعدى أثره إلى الأقطار التي تضم هذه المدن ، ثم موقف أهل البادية من المصر ، وتوقف مدى الحضارة في المصر على حالة الدولة ، وكون الحضارة هي غاية العمران ولهاية عمره ، وأثها مؤذنة بفساده ؛ وتفاوت الأمصار فى الغلة والصنائع واللغة ، وهذا هو موضوع الفصل الرابع من المقدمة .

وفى الفصل الخامس يتحدث ابن خلدون عن المعاش ووجوه الرزق ووسائل اكتساب الثروة، ثم عن التجارة وما يتعلق بهامن العرض والطلب والاحتكار والأسعار وغيرها ، ثم عن الصناعات وأنواعها وأحوالها بصفة هامة ، ثم يفرد لكل واحدة من أمهاتها كالزراعة والبناء والحياكة والتوليد والطب فصلا خاصاً .

و يخصص ابن خلمون الفصل السادس للكلام عن العلوم والتعلم. والعلم من طبائع العمران ، ويكثر ويزدهر حيث يعظم العمران ، ثم يتحدث عن أنواع العلوم الدينية والمدنية ( الوضعية والعقلية ) ؛ ويتخلل ذلك فصول طويلة شائقة عن الرويا والسحر وأسرار الحروف والكياء والانفعال الروحاني ، والأمرار الخفية والاستدلال على الضائر ، وهي حيماً عنده من أنواع العلوم أو مما يلحق بها . ثم يحمل على الفلسفة ، والمشتغلين بها باعتبارها علماً باطلا، وينوه مخطرها على الدين والعقيدة ، ويناقش بعض الأصول الفلسفية ويفندها . وبحدثنا بعد ذلك عن التربية ومذاهبها وخواص العلماء ، وكون معظمهم في الإسلام من الأعاجم ؛ ثم يقدم إلينا نظرية الخاصة في ه إن حملة العلم في الإسلام أكثرهم من العجم » ، أعنى من غير العرب ، وهو يلخص لنا نظريته في قوله : هو ان العلوم (وفق رأيه ) قد اندرجت في حملة الصنائع ، والصنائع من متحل الحضر، والعرب أبعد الناس عبها ، فصارت العلوم لذلك حضرية متنحل الحضر، والعرب أبعد الناس عبها ، فصارت العلوم لذلك حضرية

وبعد عنها العرب وعن سوقها ، والحضر لذلك هم العجم أو من في معناهم من الموالي ه . فإمام صناعة النحو سيبويه ، ثم الفارسي ، والزجاجي ومن جاء بعدهم ، وكذلك حملة الحديث أكثرهم عجم أو مستعجمون باللغة والمرني ، وكان علماء أصول الفقه كلهم عجماً ، وكذا حملة علم الكلام وأكثر المفسرين ، ولم يقم محفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم . ثم يدعم شرحه بقوله : « إن العرب اللين أدركوا هذه الحضارة ، قد شغلتهم الرياسة في المدولة العباسية ، وماد فعوا إليه من القيام بالملك عن عن القيام بالعلم والنظر فيه ، فإنهم كانوا أهل اللولة وحاميتها ، وأولى سياستها مع مايلحقهم من الأنفة عن انتحال العلم حينئذ بما صار من جملة المواضح أن ابن خلدون يستند هنا في التفرقة بين الأعاجم والعرب في في نظريته المتقلمة إلى الأسس العنصرية والحزافية ، وهي التي قامت تنضوي حيمها نحت لواء الإسلام ، والمتحافة الإسلامية .

ثم نحتتم ابن خلدون مقدمته بالكلام عن علوم اللغة العربية وخواصها ويتبع ذلك بفصول عن علوم اللغة والبلاغة والنثر والنظم ومذاهب الشعر لعصره .

<sup>(</sup>١) المقدمة ص ٤٧٨ .

# النيياليانى

### علم السياسة والملك قبل ابن خلدون

اين علدون مبتكر علم العمران . علم السياسة والملك قبل ابن علدون . كتاب السلطان الابن قبية . حديث إخوان الصغا عن السياسة وأقسامها . ماذا أفاد ابن علدون من ذلك . تطور علم السياسة . الأحكام السلطانية وصاسة الملك لأبي الحسن الملاودي . مراج الملوك لأبي بكر العلم طوشي . حديث ابن خلدوذ عن كتاب العلم طوشي . رسالة الغزال في السياسة الملكية . المنهج المسلوك . الآداب السلطانية لابن الطقطئ . موضوعه وروحه التقدى . ابتكار ابن خلدن وطرافته . أثر المقدمة في بعض المؤلفات الإن الطقطئ .

هذه هي محتويات تلك المقدمة الشهرة التي يعالج فيها ابن خلدون طمه الحديد و العمران ، و مهند بها لقراءة التاريخ وفهمه . وهذه المقدمة هي الكتاب الأول من تاريخه العام ، ولكنها جاءت كما رأينا وحدة ضخمة مستقلة ، تمتاز بروعة ابتكارها وشاسع أفقها ، وطرافة موضوعاتها ، وعن مباحثها . وإذا كان هذا البحث الحديد الذي يعالحه ابن خلدون منتهي الإفاضة والبراعة والدقة ، يشر منا الإعجاب والدهشة ، فإنه عملنا على التساؤل في الوقت نفسه ، مأذا كان نصيب ابن خلدون الحقيق من ذلك الابتكار الرائع ؟ وهل كان له الفضل في ابتداع هذا العلم ، أم كان له فقط فضل التوسع والإفاضة ، في دراسة سبق أن عولحت من قبل ؟ يقول لنا ابن خلدون إن علمه بكر جديد وإنه ألم إليه إلهاما(١) بل

<sup>(</sup>١) للقلمة 4 من ٢٢.

هو لابكاد يعرف ما هو ذلك العلم بالضبط؛ فما نصيب هذه الدعوى: من الصحة ؟ لقد حاولنا أن نستقمي مصادر ابن خلدون فيا خلفه المفكرون السلمون قبله مما بمس موضوعه أو يقترب منه ، وأن نحقق بدرس هذه الآثار ما نقله الفيلسوف المؤرخ من أسلافه ، فانتهينا بعد طول البحث إلى أن ابن خلدون رجل موضوعه ، ومحترع علمه ، وصاحب الفضل الأول في ابتكار هذا العلم الحديد الذي يسميه و بالعمران أو الإجبّاع البشرى ٥ . نعم إن هنالك موضوعات مما يعالج ابنخلمون عولحت من قبل ، وهنالك مباحث تمس بعض موضوعات علمه ؟ ولكن هذه كما سرى در اسات محلودة لبعض نواح ضيقة من ذلك العلم الشاسع الذى يعالحه ابن خلدون تمثل هذه الإفاضة فىسلك مهاسك منتظر الروابط والشواهد ، وكل ماخلفه أسلافه فى ذلك لايعدو لمحات ضئيلة مبعثرة هنا وهنالك لاتجمعها وحدة عامة ، ولاعكن أن تصلح وحدها أساساً لمثل هذه الدراسة الإجهاعية المتازة . وقد رأينا أن نستعرض هذه المباحث الأولى التي يشرر ابنخللون إلى بعض منها ، حتى نرى بالمقارنة المادية إلى أى حد يرتفع ذلك الذهن الفائق في أفق الطرافة و الابتكار . لسنا نجد قبل ابن خلدون مفكراً مسلماً مجعل الحتمع وتكوينه ، وخواصه، موضوعاً للرسه وتأمله، ولكنا نجد بعض المفكرين المسلمين يعالخون منذ القرن الثالث الهجرى موضوع السياسة والملك ، كأنه علم خاص أو أدب خاص ؛ وقد فهمت السياسة في هذا العصر بمعنى ضيق جداً ، هو شرح الحلال التي نجب أن يتمتع بها السلطان ، والعيوب

الني مجب أن يبرأ منها لكي يمكم بأهلية وكفاية . وأما الملك فإنه يعالج من ناحية الشروط التي بجب توفرها شرعاً في الإمام أوالسلطان ، وما مخرجه عن أهلية الحكم، ثم الحطط السلطانية كالوزارة والإمارة ومختلف الدواوين . وأقدمها انتهى إلينا في هذا الموضوع ماكتبه ابن قتيبةالدينوري(١) فى كتاب و عيونالأخبار، حيث يفرد قسها خاصاً عنوانه وكتاب السلطان، يتحدث فيه عن الخلال التي مجب أن يتحلى لها السلطان ، وعن رسوم صحبته ومعاملته ومشاورته ، ومامجب عليه نحو العال والحكام (۲). وعمدة ابن قتيبة في حديثه ، محموعة من الأقوال والحكم المأثورة ، ومهاكثير مما ينسب لحكماء الفرس والهنود ، فحديثه أقرب إلى النصح والموعظة منه إلى العرض والشرح. وفى أوائل القرن الرابع نجد فيلسوفاً مسلما هو أبو نصر الفار الى (٢٦) بمس في مباحثه موضوع المحتمع والاجماع بطريقة فلسفية ، فيتحدث في كتابه و مبادئ آراء أهل المدينة الفاضلة ، عنحاجة الإنسان إلى الاجبّاع والتعاون، وعن نشأة القرىوالمدن ،وعن خصال رثيس المدينة الفاضلة (السلطان) ، وما لايناسب المدينة الفاضلة ، والفرق بن أهل المدن الفاضلة و المدن الضالة؛ ثم عن الصناعات وأقسامها <sup>(4)</sup> كل ذلك بطريقة فلسفية موجزة جداً . وظهرت في أواسط القرناارابع و رسائل إخوان الصفا ، الفلسفية ، وفها هنا وهنالك لمحات وشذور عن

<sup>(</sup>١) تونى ابن تتيبة سنة ٢٧٦ هـ ٨٨٩ م.

<sup>(</sup> ٢ ) راجع هذا الفصل في كتاب عيون الأخبار (طبع دار الكتب ) ج ١ ص ١-١٠٧٠ .

<sup>(</sup>٣) تونی انفار ابی ستة ٣٣٩ ه – ٩٥٠ م .

<sup>(</sup> ٤ ) راحم كتاب المدينة الفاضلة ( طبعة ليدن ) ص ٥٣ و ٥٩ و ٦٧ .

عن بعض الموضوعات السياسية والاجهّاعية ؛ ويعتبر إخوان الصفا « السياسة » علما مستقلا بذاته ، ويقسمونها إلى خسة أقسام : السياسة النبوية ، والملوكية ، والعامية ، والحاصية ، والذاتية . والأولى تتعلق بوضع النواميس والسنن الزكية ، وتطهير النفوس من شوائب العقائد والآرَّاء الحبيثة . وأما السياسة الملوكية فهي «معرفة حفظ الشريعة على الأمة ، وإحياء السنة في الملة بالأمر بالمعروف والنبي عن المنكر ، بإقامة الحدود وإنفاذ الأحكام التي رسمها صاحب الشريعة ، ورد المظالم وقمم الأعداء ، وكف الأشرار ونصرة الأخيار » . وأما السياسة العامية وهى الرياسة على الحماعات كرياسة الأمراء على البلدان والمدن ورياسة قادة الحيوش على العساكر 1 فهي معرفةطبقات المرؤوسين وحالاتهم وأنسامهم وصنائعهم ومذاههم وأخلاقهم ؛ وترتيب مراتهم ومراعاة أمورهم ... الخه . وأما السياسة الحاصية فهي معرفة كل إنسان كيفية تدبير منزله وأمر معيشته . وأما السياسة الذاتية فهي معرفة كل إنسان نفسه وأخلاقه(١). ويتحدث إخوان الصفا في أمكنة أخرى عنالغرض من المُلك وعن أنواع الرياسة ؛ وعن الإمامة وشروطها وأحكامها (٢٠)؛ ويتحدثون عن تقسيم العلوم ويقسمونها إلى ثلاثة أقسام كبيرة : الرياضية والشرعية الوضعية ، والفلسفية الحقيقية ؛ ولكل قسم منها أنواع وفروع كثيرة ، وتلخل الآداب بأنواعها في القسم الأول ؛ وعلوم الدين

<sup>(</sup>١) رسائل إخوان الصفا (مصر) ج ٢ ص ٢٠٨ و٢٠٩.

<sup>(</sup>٢) رمائل|خوانالصفا (مصر)ج١ص ٢٢ وج ٤ ص٣٠ ومايمدها وص١٨١.

والقرآن والسنة فى القسم الثانى ؛ والمنطقيات والطبيعيات والإلهيات في الثالث . وتوضع السياسة فى باب الإلهيات (١٠) كذلك بتحدث إخواله الصفا عن تقسيم الصنائع وماتحتاج إليه من العناصر (٢٠) ويتحدثون عن المثاير طبيعة البلدان فى الأخلاق ، فى فصل خاص (٢٠). كل ذلك فى أسلوب علمى فلسنى رائع البيان والتدليل .

وهنا نقف قليلا. فإنا نجد فيا تناوله الفاراني وإخوان الصفا شيئاً الناول ابن خلدون في مقدمته. مثال ذلك حديث الفاراني عن حاجة الإنسان إلى الاجماع ، وعن نشأة الفرى والملن ، وحديث إخوان الصفا عن تقسيم العلوم، والصنائع، ثم عن تأثير طبيعة البلدان في الأخلاق. وقد تناول ابن خلدون هذه المسائل كما بينا<sup>(ع)</sup> وجعلها من موضوعات علمه. ولكنا نجد بالمقارنة أن ابن خلدون لايكاد بشرك في هذه الموضوعات مع الفاراني وإخوان الصفا بأكثر من رووسها ؛ وبيئا يتناولها المفاراني وإخوان الصفا بأكثر من رووسها ؛ وبيئا يتناولها يتناولها من الناحية الاجماعية ، ويفيض في عرضها بطريقة عملية محضة ، يتناولها من الناحية الاجماعية ، ويفيض في عرضها بطريقة عملية محضة ، ويله عن والشرح والتدليل مذهباً آخر ؛ فهولا يخلو هنا أيضاً من الاستقلال والطراقة والابتكار .

<sup>(</sup>١) رسائل إخوان الصفا ، ج ١ ص ٢٠٢ ومايعدها .

<sup>(</sup>٢) رسائل إخوان الصفا ، ج ١ ص ٢١١ .

<sup>(</sup>٣) رسائل إخوان الصفا ، ج ١ ص ٢٣٢ – ٢٣٥ .

<sup>(</sup>٤) راجم المقدمة ، في ضرورة الاجتاع الإنداني ( ص ٣٤) ، وفي قيام المدن و الأمصار ( ص ٢٨٧ و ماييدها ) وفي تقسيم العلوم (ص ٣٥٨ و ماييدها ) ، وتقسيم الصنائم ( ص ٣١٨ و ما يبدها ) ، وفي تأثير ألهما ، في أخلاق البشر ( ص ٣٧ – ٧٧ ) .

ثم نجد ذلك البحث الذي اصطلح على تسميته ( بالسياسة ) يتخد مكانه وينتظم إلى أدب خاص، ويعالج تارة من الناحية الفقهية المحضة. وتارة من الناحية الأخلاقية والفلسفية . ومن أشهر الكتب الى تعنى عجانبه الفقهي ، ﴿ كتابِ الأحكام السلطانية ﴾ لأبي الحسن الماور دى المتوفى سنة ١٤٥٠هـ (١٠٥٨م ) ؛ وهو من أشهر وأقم الكتب في هذا الموضوع. وفيه يتحدث المؤلف بإفاضة عنالإمامة وشروطها ، والإمام وما مجب أن يتوفر فيه من الصفات ، ومايخرج به عن الإمامة ، ومامجب على الأمة نحوه ؛ ثم عن الوزارة وأنواعها، والإمارة وأنواعها ، والقضاء وشروطه ، والنيء والغنيمة والحزية والخراج وأحكامها ، والإقطاع ، والدواوين ، والحدود . كل ذلك من الناخية الفقهية وعلى المذهب الشافعي. والماوردي أيضاً رسالة أخرى عن ﴿ الوزارة وسياسة الملك ﴾ يتحدث فيها بإفاضة عن الوزارة ومامجب أن بتوفر في متولبها ، ثم عن الوزير واختصاصه وواجباته ، وحقوقه نحوالسلطان، وحقوق السلطان تحوه، وأنواع الوزارات، وعلائق الوزير والسلطان. ومحث الماوردي هنا أخلاق فلسنى تتخلله الحكم والأقوال المأثورة .

وفى كتاب وسراج الملوك ، لأنى بكر الطرطوشي الأندلسي المتوفى سنة ٥٢٠هـ (بعالج الطرطوشي منه ٥٢٠هـ (بعالج الطرطوشي موضوعات من الناحية الأخلاقية والفلسفية ، ويتناول بعض موضوعات يتناولها أسلافه . فيحدثنا عن الحصال الواجية في السلطان ، والصفات التي تودي إلى ضياع الملك ، ثم عن خلال السلطان منفردة ، وعيوبه

منفردة ؛ ويتكلم بعد ذاك عما بجب أن يتصف به السلطان نحو الحند والرعية ، وما يجب عليه نحو الأموال العامة وإنفاقها ؛ ثم عن الحزية وشروط العال ، وعن اللواوين ، وعن الظلم وسوء عواقبه ، ثم عن الحروب وتدبيرها وأحكامها . وكتاب الطرطوشي هو أكبر موالف من نوعه ؛ ولكن الصبغة الدينية تغلب على أسلوبه ، ويتخذ على الأغلب صورة الوعظ ، وتتخلله الأحاديث والحكم والأقوال المأثورة بكثرة . ويقول لنا الطرطوشي في ديباجته و إن كتابه لم يسبق إلى مثله أقلام العلماء ، على أننا نرى مما تقدم أن غير واحد من كتاب المشرق قد سبق الطرطوشي إلى موضوعه ، وإن كان الطرطوشي عتاز بالإقاضة ، وبأنه طرق بعض أبواب لم تطرق من قبل .

ويخص ابن خلدون كتاب الطرطوشي بالذكر بين الكتب التي تمس موضوعه لأنه يحدثنا عن تلك الكتب ، فيقول لنا إن في كتاب السياسة المنسوب لأرسطوجزء أصالحاً من موضوع عامه ، إلا أنه غير مستوف ولامعطى حقه من البراهين . وكذا في كلام ابن المقفع ، وما يستطرد في رسائله من ذكر السياسات ، الكثير من مسائل علمه غير مبرهنة كما برهنها ، وإنما يسلك في ذكرها منحى الخطابة والترسل . ولكنه يصارحنا بأن الطرطوشي « قد حوم في كتاب سراج الملوك وبوبه على أبواب تقرب من أبواب كتابه ومسائله ... لكنه لم يصادف فيه الرمية ، ولا أصاب الشاكلة ، ولا استونى المسائل ، ولا أوضح الأدلة ، إنما يبوب المسألة ثم يستكثر من الأحاديث والآثار .. وكأنه حوم على الباب المسألة ثم يستكثر من الأحاديث والآثار .. وكأنه حوم على

الغرض ولم يصادفه ولاتحقق قصدهه(١). والواقع أن ابن خلمون يعالمج بعض الموضوعات التي يعالجها الطرطوشي ، مثل الدواوين ، ومذاهب الحروب ، وعواقب الظلم ؛ ولكنه ينحو في العرض والتدليل منحي آخر ؛ ولا نلمس في كتاب الطرطوشي أثر ذلك المذهب الاجتماعي المبتكر الذي يسيطر على مجث ابن خلمون من مبدئه إلى منتهاه .

ولدينا رسالتان أخريان فى هذا الموضوع ، أعنى موضوع السياسة الملكية هما والتبر المسبوك فى نصائح الملوك و المنسوب للإمام أبى حامد الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ هـ (١١١٢ م) وضعه بالفارسية السلطان عمد ابن المك شاه ، وهو مجموعة نصائح فى الحلال التي يجب أن يتحلى بها السلطان ، ومعظمه مواعظ وقصص قدعة (٢) ؛ « والمهج المسلوك فى سياسة الملوك و ، كتبه عبد الرحمن بن عبدالله السلطان صلاح الدين الأيوبى (أواخر القرن السادس) فى نفس الموضوع ، أعنى الخلال السلطانية ، ومواعظ وقصص قدة أيضاً حديث فقهى عن القتال والنيء والغنيمة ؛ ومواعظ وقصص قدة مكردة .

بنى لدينا من هذا الثبت مؤلف بمناز بشىء من التوسع فى فهم الموضوع وشىء من الطرافة فى عرضه ؛ ذلك هو كتاب و الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، لمؤلفه محمد بن على بن طباطبا المعروف باين الطقطني، الذي عاش، كما يستنج من إشارات فى كتابه ، فى أواخر

<sup>(</sup>١) القدمة ، ص ٣٣.

<sup>(</sup> ٧ ) طبعت هذه الرسالة على هامش كتاب ۽ سراج الملوك ۽ ( مصر ) .

القرن إلسابع وأوائل القرن الثامن الهجرى بعد ذهاب الدولة العباسية، وكتب مؤلفه في أواخر سنة ٧٠١ هـ (١٣٠٢م ) بمدينة الموصل لأمعرها عيسي بن إبراهم (١). ومخصص ابنالطقطتي في كتابه فصلا كبيراً والأمور السلطانية والسياسات الملكية ١٧٦ غير أنه يعرض موضوعه في صورة أخرى، ويقول لنا في مقلمته إنه لايقصد البحث في أصل الملك وحقيقته وانقسامه إلى رياسات دينية ودنياوية منخلافة وسلطنة وإمارة وولاية، وماكان من ذلك على وجه الشرع وما لم يكن ، ومذاهب أصحاب الآراء في الإمامة ، وإنما يقصد البحث في موضوع ، السياسات والآداب التي ينتفع لها في الحوادث الواقعة ، والوقائع الحادثة ، وفي سياسة الرعية وتحسن المملكة، وفي إصلاح الأخلاق والسرة، ٤٠٠. ويتحدث ابن الطقطقي في هذا الفصل عما مجب أن يكون عليه الملك الفاضل من الحصال وما لا بجب، ثم عن حقوق الملك على الرعبة، وأخصها الطاعة . ومحدثنا طويلا عن مزايا الطاعة وخواصها في الدولتين الأموية والعباسية ، وكيفكان فقدها عاملاءن أهم العوامل فى وهن الدولة العباسية وسقوطها ، ويشرح نظريته بالوقائع والحقائق التاريخية (٤) . ثم يتحدث عن الحقوق الواجبة المرعية على الملك ، وأنواع السياسات التي مجب أن يتبعها نحو نحتلف

 <sup>(</sup>١) راجع مقدمة المؤلف فى طبعة ١ جريفزةالد ي التى نشرها المستشرق آلثمارت سئة ١٨٥٨ . وراجع أيضاً مقدمة الناشر الإلمانية ( س ١٤ و١٥ ) .

<sup>(</sup>۲) القطري ، ص ۱۹ -- ۸۸

<sup>(</sup>۲) الفتری ، ص ۱۹ .

<sup>(</sup>٤) النشري ، ص ٣٥ و ٢٦ .

الطبقات ، والنظر في العقوبات وتقديرها وظروفها ، وخطر الانغاس في الشهوات على الملك والدولة ؛ ويورد خلال ذلك شيئاً من وصابا الحكماء اليونان والفرس . ولكن ابن الطقطتي لايعني بعرض المبادئ والقواعد النظرية ، عنايته بتطبيقها على حوادث التاريخ ولاسها تاريخ الدول الإسلامية . وهو بمناز في عرضها وتطبيقها بنزعة نقدية قوية قالم نلمسها في آثار أسلافه، كما أنه عتاز محسن التدليل ، وتطبيق النظريات على الوقائع . بل نستطيع أن نقول إن هذا الفصل الذي عهد به لتاريخ الدول الإسلامية كان فتحاً جديداً في النقد التاريخي ، وفي درس الدولة من الناحية الاجتماعية . وهو بلا ريب مما يلخل في مواد تلك الدراسة الاجهاعية الشاسعة التي استخرج منها ابن خلدون علمه ومذهبه الإجهاعي. بيد أن ابن خلدون لم يطلع فيا يظهر على هذا الأثر الذي يعالج بعض نواح من موضوعه ، فقد كان الكتاب حديثاً بالنسبة لعصره ، ولم يكن قد وصل تداوله وذيوعه من المشرق إلى المغرب ؛ هذا إلى أن الموضوع الذي يعالحه ابن الطقطي ضيق جداً بالنسبة لدراسة ابن خلدون ؛ وإذا كان كلاهما يشترك في فهم التاريخ بطريقة تحليلية ، فإن ابن خلدون يتفوق على ملفه تفوقاً عظما بسعة آفاقه ، وينهج في دراسته سبيلا أخرى تمتفظ بكل جدتها وطرافتها .

والآن وقد حرضنا كل ماكتبه المفكرون المسلمون في موضوع فلمولة، والسياسة الملوكية والمدنية والاجهاعية ، قبل عصر ابن خللون ، وبينا بالمقارنة المادية أن هذا التراث كله لم يكن ليمد ابن خلدون أو يلهمه عوضوع علمه ، وإن كان يعرض إلى نواح صِيَّيلة بما يتناوله ابن خلدون أن دلال العلم الذى يسميه بالعمران أو الاجباع البشرى ، هو علم لم يوجد قبله فى التفكير الإسلامى ، بل لم يوجد في التفكير القديم كله ، إذا استثنينا بعض ما خلقه الفلاسفة اليونان ولاسيا أرسطو عن نظم اللولة والمحتمع . فإذا كان ابن خلدون قد انتفع بشىء من تراث الماضى ، فإنما يكون من هذا الراث الغابر ، ولاسيا تراث أرسطو ؛ وقد كان ابن خلدون فيا يظهر مطلماً على بعض جوانب من فلسفة أرسطو ، كما يبدو من إشارته إلى هساسة ، أرسطو ، وعلى شروح ابن رشد لأرسطو (۱). على أنه لاريب في أن هذا الانتفاع لم يكن ذا شأن يذكر سواء فى صوغ فلسفته التاريخية أو فلسفته الاجهاعية .

فابن خلمون إذاً ، كما قلمنا أستاذ موضوعه ، ومخترع علمه . وهو يقول لنا بحق إن علمه جديد مبتكر ، وانه ليس من علم السياسة المدنية الذى تناوله أسلافه من قبل ، يل هو علم مستنبط النشأة مستقل بذاته ، لم يعالحه مفكر قبله ، أو لم يعالحه عثل ابتكاره وسعته واستيعابه .

وقدكانت لبحوث ابن خلدون فى المقلمة أصداء بعيدة المدى . فى تفكير عصره ، وما بعد عصره، وقد سبقأن ذكر ناكيف تأثر المقريزى بأسلوب المقلمة فى وضع رسالته و إغاثة الأمة بكشف الغمة »، ونذكر

<sup>(</sup>۱) واجع المقدمة ، ص ۳۳ . وقد وضع ابن خلاون كا سُرى ملخصات ليمض كتب ابن رشد ، ولكنها لم تصل إلينا .

هنا أن بحوث المقدمة المتملقة بالدولة والملك ، كان لما أثرها في التفكير الأندلسي في أو اخر عهد الإسلام بالأندلس ، فقد كتب قاضي الجاعة أبو عبد الله محمد بن على الأصبحي المعروف بابن الأزرق الفرناطي ، المترفي سنة ٨٩٥ ه ( ١٤٩٠م ) كتابين في سياسة الملك أولها ه الإبريز المسبوك في كيفية أدب الملوك ، والتاني كتاب ه بدائع السلك في طبائع الملك ، وفي هذا الكتاب الأخير يلخص ابن الأزرق كثيراً من عتويات المقدمة ويعلق علمها ، ويأتى في شأنها بزيادات جديدة ، ومحتوى الكتاب على مقدمتين وأربعة كتب ، الأول في حقيقة الملك وألحافة وساير أنواع الرياسة ، والثاني في أركان الملك وقواعد مبناه ضرورة وكمالا ، والثالث فيا يطالب به السلطان تيسيراً لأركان الملك وتأسيساً لقواعده ، والرابع في عوايق الملك وعوارضه . ويبدو أثر تفكير ابن خلدون ومهجه واضحاً في تفكر ابن الأزرق وأسلوبه (١) .

هذا وسرى أن هذا العلم الذى استحدثه ابن خلدون واستنبطه ، يتخذ من حيث مادنه وموضوعاته مكانه بين علومنا الحديثة ، فى علوم الاجماع ، وفلسفة التاريخ ، والنظام ، والاقتصاد السياسي .

وسُدِّينَ فى موضع آخر ً، كيف يرتفع النقد الحديث بتراث ابنخلدون الاجهاعى إلى أسمى مكانة ، ويعتبره مبتكر علم الاجماع الحديث وواضع أسمه .

<sup>(</sup>۱) راجع أدهار الرياض المقرى (القاهرة ۱۹۶۲) ج ۳ ص ۳۰۸ راه. هذا و تحقظ خزانة الرباط بثلاث نسبتم علموطة من كتاب و بدائيم السلك و شها و احدة بالمكتبة الكتابة رقم 230، و 183. إحداهما قديمة كتبت في صفر سنة ۹۹۸، و 183، إحداهما قديمة كتبت في صفر سنة ۹۹۸، و 183، والثانية حديثة و مدهر مناهمة من القطع المتوسط، والثانية حديثة وقد ۱۹۷، صفحة من القطع المتوسط، والثانية حديثة وقد طبع بالحزائر .

# الفيرالثيابث

## كتاب المببر والتعريف

### وآثار ابن خلدون الأخرى

مؤلف ابن خلدون التاريخي . فكرته الأصلية في الاقتصار على تاريخ المغرب . تنقيمه لتاريخه وزيادته في محتوياته . مدمه أخلال البر بر . ظواهر العصر وتأثير ها فيتكوين عقلية الهزعات و رئائير ها فيتكوين عقلية المخلوف . أسلوبه ألأدبي . كتاب التحريف أو ترجمة ابن خلدون لم الكنف التحريف أو ترجمة ابن خلدون لم الكنف عن كثير من نزعاته . خلاله القوية . الجانب القصصي في تعريفه . آثاره الأخرى . كتاب عن كثير المباب المحصل . شرح ابن علدون ه الحلل المرقومة ه . كتاب شفاء السائل .

#### - 1 -

إن هذا الكتاب الأول ، الذى يعرض فيه ابن خلدون نظرياته فى التاريخ والاجماع ، والذى يشغل وحده مجلداً كبيراً ، ليس إلا مقدمة لمؤلفه التاريخى الضخم أوتاريخه العام .

ويسمى ابن خلدون مؤلفه التاريخي : «كتاب العمر ، وديوان المبتدا والحبر ، فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم منذوىالسلطان الأكبر » ويقسمه إلى ثلاثة كتب كبرة على النحو الآتى :

الأول – فى العمران وذكر مايعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان والكسب والمعاش والصنائع والعلوم وما لذلك من العلل و الأسباب. وهذا الكتاب هو الذى عرضنا إليه فيا تقدم ، وهو المعروف بالمةنمة . الثانى ... فى أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ مبدأ الحليقة إلى هذا العيد ، أعنى إلى عصر المؤلف ، وفيه الإلماع ببعض من عاصرهم من الأمم والمشاهير ودولهم ، مثل النبط والسريانيين والفرس وينى إسرائيل والقبط واليونان والروم والترك والإفرنجة .

الثالث ــ فى أخبار البربر ومن إليهم من زناته وذكر أوليتهم وأجيالهم وماكان لهم بديار المغرب خاصة من الملك والدول .

ويقع مولف ابن خلدون فى سبعة علدات ضخمة ، الأول يشمل الكتاب الأول ، وهو علم العمران ، أو المقدمة . وتبدأ الموسوعة التاريخية منذ المجلد الثانى . ويستغرق الكتاب الثانى ، وهو أخبار العرب وأجيالهم ، وأخبار باق الأمم القدعة والتركية والفرنجية حتى القرن الثامن المجرى (الرابع عشر الميلادى) أربعة علدات ، من الثانى إلى الحامس ؛ ويشمل الكتاب الثالث ، وهو أخبار البربر حتى عصر المؤلف المحلدين السادس والسابع ؛ ويختم ابن خللون مؤلفه بالتعريف عن نفسه فى عدة فصول كبرة كما نفصل بعد .

ويبدأ أبن خلدون كمعظم المؤرخين المسلمين بالحديث عن أصل الحلية وأنساب الأمم المختلفة . وحديثه فى ذلك معاد، جله من الروايات والأساطير الدينية القدعة التي ترددها التواريخ الإسلامية نقلا عن التوراة وعن المؤرخ القوطي اللاتيني أورسيوس ( هرشيوش )(1). بيد أنه يبدى

 <sup>(1)</sup> بارلوس أورسيوس Paulus Orsius حبر ومؤرخ إسبان (قوطى) عاش فى النون الخامس الميلادى ووضع باللانينية ثاريخاً الخليقة حتى عصره . وقد اشهر تاريخة =

ريبه فى صحة الكثير مها . ويشرح لنا ابن خللون بعد ذلك برنامج تاريحه كاملا(۱). ويبدأ بالكلام عن العرب الحاهلية ، ثم الهود واليونان والرومان والفرس . وينقل معظم روايته عن اليونان والرومان عن ابن العميد .

ويشغل حديثه عن ظهور الإسلام وحياة الذي وعصر الحلفاء المراشدين، جزءاً خاصاً الحقه بالمجلد الثانى. ثم يبدأ تاريخ الدول الإسلامية منذ المحلد الثائث ، فيتحدث عن الدولة الأموية ؛ ثم الدولة العباسية بإفاضة . ويشغل تاريخ الدولتن المحلد الثالث . ويشمل المجلد الرابع تاريخ الفاطمين والقرامطة، وتاريخ الأندلس منذ الفتح حى مبدأ دولة بني الأحر ، وتاريخ بني بويه وبني سبكتكين . ويشمل المحلد الحامس تاريخ الرك السلاچة بإفاضة ثم تاريخ الحروب الصليبية ، وتاريخ دول الماليك في مصرحي أواخر القرن الثامن. ويعتمد ابن خلدون في هذا القسم أعنى تاريخ العرب والدول الإسلامية على تراث أسلافه ، مثل ابن هشام والواقدي والبلاذري وابن عبد الحكم والطبري وللسعودي وابن الأثير وابن خلدون على أسلافه سواء في المادة أو في مستوى التحقيق التاريخي ، ابن خلدون على أسلافه سواء في المادة أو في مستوى التحقيق التاريخي ، الهم إلا من حيث المهج والصياغة ، بل لهل ابن خلدون لم يبلغ في هذا الهم إلا من حيث المهج والصياغة ، بل لهل ابن خلدون لم يبلغ في هذا الهم إلا من حيث المهج والصياغة ، بل لهل ابن خلدون لم يبلغ في هذا الهم إلا من حيث المهج والصياغة ، بل لهل ابن خلدون لم يبلغ في هذا الهم إلا من حيث المهج والصياغة ، بل لهل ابن خلدون لم يبلغ في هذا اللهم إلا من حيث المهج والصياغة ، بل لهل ابن خلدون لم يبلغ في هذا اللهم إلا من حيث المهج والصياغة ، بل لهل ابن خلدون لم يبلغ في هذا

بالرغم من ركاكته وكثرة خوافاته، والنفع به كثير من المؤرخين اللاحقين. وعوفه المؤرخون المسلمون وتقلوا عنه . وأشار إليه ابن خلدون في مواضع عديدة من تاريخه ، وتموفه الرواية الإسلامية جروسيس أوهرشيوش .

<sup>(</sup>١) كتاب المبر ، ج ٢ ص ١٦ و١٧ .

التسم من مصنفه، و هو تاريخ الشرق الإسلامى ، من قوة النقد والتحليل ما بلغه مؤرخون كالمسعودى وابن الأثير .

ويبدأ ابن خلدون كتابه الثالث وهو أخبار الىربر في المحلد السادس . وسنرى ابن خلدون نفسه يصارحنا بأنه لم يكن مطلعاً على أحوال الشرق وأممه، وانه كان يعتزم في البداية أن مخصص مؤلفه التاريخي لكتابة تاريخ المغرب وأجيال العربر ، وهو يقول في مقدمته : ٥ وأنا ذاكر في كتابي هذا ما أمكنني منه في هذا القطر المغربي إما صريحاً ومندرجاً في أخباره وتلوكماً ، لاختصاص قصلت فى التأليف بالمغرب وأحوال أجباله وأممه وذكر ممالكه دون ما سواه من الأقطار لعدم اطلاعي على أحوال المشرق وأثمه، وأن الأخبار المتناقلة لاتوفى كنه ما أريده منه ع(١). ولهذا التصريح من جانب ابن خلدون قيمة خاصة ، فقد حمل بعض النقدة على تاريخه ، ورموه بالقصور وعدم الاطلاع والتحقيق فها كتب عن المشرق . وقله أشرنا فيما تقدم إلى أقوال الحافظ ابن-حجر وغيره في ذلك (٢). والواقع أن القسم الحاص بتاريخ البربر من كتاب العبر ، هو ــ بعد المقدمة ــ أنفس أقسامه ، وأوفرها طرافة ، وأقواها عرضاً وتحقيقاً ، وفيه من الروايات والحقائق الغريبة عن أحوال تلك الأمم والقبائل الدبرية ، ما لم يوفق إليه أي مؤرخ قبل ابنخلدون أوبعده . ولاغرو فابنخلدون بطبيعة نشأته وحياته ، وتقلبه في خدمة الدول والقصور العربرية ،

<sup>(</sup>١) المقدمة ، ص ٢٧ .

<sup>(</sup>٢) راجع ص ١٠١ من هذا الكتاب.

ودرسه لأحوالها دراسة المطلع ، رجل هذا الموضوع وأقلىر من يتناوله. ويتفق النقد الحديث على أنه لاتوجد أية رواية عن تاريخ البربر وأحوالهم ودولهم ، سواء شرقية أوغربية ، تفوق رواية ابنخلدون في قيمها التاريخية أو الاجماعية .

وفى هذا الكتاب الثالث يبدأ ابن خلدون حديثه عن و العرب المستعربة من بقية الدول الإسلامية من العرب و بالمغرب ، ثم تاريخ الدبر و القبائل والبطون الدبرية الشهيرة مثل زناتة و مغراوة و لواتة ومصمودة والبرانس وكتامة و صهاجة ولمتونة ، منذ أقدم العصور حتى عصره ؛ ويقدم إلينا عن أصول الدبر ، وأحوالم ، وعقائدهم قبل الفتح الإسلام ، روايات برحقائق لم تكن معروفة من قبل . ويسرد تاريخ المرابطين و الموحدين ، بإيجاز ؛ ثم يفيض في تاريخ المول الربرية القريبة من عصره و التي عاصره الخاصة ظاهرة ؛ و لما كان ابن خلدون قد اتصل بمعظم هذه الدول المعاصرة وأحماله فيها (الكومن ) . ونود أن نلاحظ في هذا الموطن ، أنه قد كان لظواهر وأعمله فيها الموطن ، أنه قد كان لظواهر المعصر الذي عاش فيه ابن خلدون ، وأحوال الدول التي تقلب في ظلها ، تأدر ها الخاص في تكوينه وفي نفسيته . فقد ولد ابن خلدون ، و نشأ أواسط القرن الثامن الهجرى أوالرابع عشر الميلادى ، وهو العصر الذي أخذت فيه معظم الدول الإسلامية في المشرق والمغرب ، تدخل الذي أخذت فيه معظم الدول الإسلامية في المشرق والمغرب ، تدخل

<sup>(</sup>۱) مثال ذلك مآورد فى ص ۳۷۷ و ۳۷۹ من المجلد السادس ، وفى ص ۱۳۳ و۱۱۶ و ۲۰۰ و ۳۲۹ و ۳۲۹ و ۳۷۷ من المجلد السابع .

في دور طويل من الانحلال والتفكك ، وقد كانت هذه الظاهرة تنطبق بنوع خاص على دول الغرب الإسلامي في المغرب والأندلس وهي الدول التي نشأ ابن خالمون وترعرع في ظلالها ، وتقلب في قصورها ، وعاصر أحداثها، بل واشترك في كثير من هذه الأحداث: ولقد سحل لنا ابن خلدون تلك الأحداث والتقلبات المضطربة التي شهدها واليّ تكونت في معتركها عقلبته ، وصقلت فراسته ونضجه السياسي ، والتي استمد من تعاقبها ومدلولها فها بعد ، كثيراً من نظرياته السياسية والاجبَّاعية ، التَّى يعرضها لنا في مقدمته . وإنه لما يلفت النظر بهذه المناسبة أن مؤرخاً ومفكراً اجهاعياً أوربياً هو مكياڤيللي الإيطالي ، قد تكونت فلسفته ونظرياته التارنخية والاجتماعية ، على نسق ابنخلدون ، في غمار الأحداث التي تقلب فها ، وفي ظل الإمارات والدول التي خدمها واتصل بها ، والَى يقدم إلينا كثيراً من أخبارها . وهو على غرار ابن خلدون، برتب نتائج محوثه في عوامل قيام الدولة وتفوقها ، واستقرارها، علىمنطوق مشاهداته وتجاربهإلىجانب استنتاجاته من منطوق التاريخ القدم ، وذلك حسيا نفصل بعد فى الفصل الخاص بذلك .

ويشغل تاريخ البربر المجلد السادس ومعظم المجلد السابع من كتاب العبر كما انهى إلينا . بيد أنه يتضح من مراجعة أخبار اللول المعاصرة ، أن ابن خلدون ، قد راجع ماكتبه في شأنها وزاد عليه فيا بعد في كثير من المواطن . ونحن نعرف أن ابن خلدون قد أتم كتابة النسخة الأولى من تاريخه في تونس سنة ٧٨٣ه قبل نزوحه إلى مصر . وهو يقول لنا خلال حديثه عن أخبار بني حفص ماياتى: وكنت قد أنهيت بتأليف الكتاب إلى ارتجاع توزر من أيدى ابن مملول وأنا يومند مقم بتونس، ثم ركبت البحر في متصف أربع وثمانين إلى بلاد المشرق لقضاء الفرض ، ونزلت بالإسكندرية ثم محمر ، ثم صارت أخبار المغرب تبلغنا على السنة الواردين ... و (١) وقد وقع ارتجاع توزر سنة ٢٩٧ه (٢). وفي مصرتناول ابن خلمون تاريخه بالتهذيب والإفاضة ، ووصل في روايته في أخبار المعرف تاريخه بالتهذيب والإفاضة ، ووصل في روايته في أخبار ووصل في روايته في أخبار ووصل في أخبار المول المربرية إلى سنى ٧٩٠ و ٧٩٠ و ٧٩٠ و وصل في أخبار الأندلس حتى سنى ٧٩٠ و ٧٩٠ ، ووصل في أخبار الأندلس حتى سنة ٤٩٨ه (٥). ووصل في أخبار الأندلس حتى سنة ٤٩٨ه (١٠) وهمه أثناء وهمه المؤرخ بمصر ، والنسخة التي انتهيت إلينا ، والتي نتداولها الآن ،

ونلاحظ في هذا القسم أيضاً — تاريخ البربر — أن ابن خلدون يفرد فصلا خاصاً للتكلم عن خلال البربر و وعما كان لهم قديماً وحديثاً من الفضائل الإنسانية والحصائص الشريفة ، وهو يقول لنا مجاسة و وأما تخلقهم بالفضائل الإنسانية وتنافسهم في الحلال الحميدة ، وما جبلوا

<sup>(</sup>۱) کتاب العبر ، ج ۲ ص ۲۹۲.

<sup>(</sup>٢) كتاب العبر ، ج ٢ ص ٢٩٥.

<sup>(</sup>٣) داجع ج ٦ ص٩٩٩ و ٢٠١٠ و ٢٤٤ ع رج ٧ ص ١٥ و ١٤١ و ١٤١ و ١١٨ و ١١٩ و ١١٠ .

<sup>(</sup>٤) راجع ج ٥ ص ٤٠٠ - ٥٥٠ رص ٢١٥ ر ١٦٥ .

<sup>(</sup>ه) راجع ج ۽ ص ١٧٩.

عليه من الحلق الكرم ، مرقاة الشرف والرقعة بين الأمم ، ومراعاة المدح والثناء من الحلق، من عز الحوار وحماية الذيل، ورعى الأذمة ، والوناء بالقول والعهد ، والصبر على المكاره ، والثبات في الشدائد .. وإباية الفيم ومشاقة الدول ، ومقارعة الحطوب وغلاب الملك ، وبيع النفوس من الله في نصر دينه ، فلهم في ذلك آثار نقلها الحلف عن السلف ، لوكانت مسطورة لحفظ منها ما يكون أسوة لمتبعيه من الأم هذا )، ولم يعقد ابن خلدون مثل هذا الفصل للتبحدث عن خلال أية أمة من الأم الأخرى ، فهو هنا ينم عن هوى خاص ونعرة بربرية واضحة ، وفي ذلك أيضاً ما يفسر لنا صرامته في الحملة على العرب غزاة إفريقية والتغلبن علمها .

على أنه توجد أقسام أخرى من مؤلف ابن خللون غير تاريخ الربر تمتاز بقيمة خاصة . مثال ذلك روايته عن دولة الإسلام فى صقلية ، وعن تاريخ الطوائف بالأندلس ، والمالك النصرانية فى اسبانيا، وتاريخ دولة بنى الأحمر فى غرناطة . وينوهالعلامة دوزى بقيمة رواية ابن خالمون عن تاريخ النصارى فى اسبانيا؛ ويقول إنه و لايوجد فى الآداب النصرانية فى العصور الوسطى مايستحتى أن يقارن بها ، وان مؤرخا نصرانياً لم يوفق لكتابة رواية فى مثل وضوحها ودقها عن أية دولة مسلمة ع<sup>(٧)</sup>. ويتفوق ابن خللون فى هذه الأقسام من تاريخه على المؤرخين المسلمين

<sup>(</sup>١) راجع ج ٢ ص ١٠٣ وما بعدها .

Dozy: Recherches sur l'Histoire et Littérature d'Espagne ( Y ) au moyen-âge, Vol. I. p. 96.

تفوقاً عظياً من حيث الدقة والتحقيق وتمحيص الرواية؛ ويرجع ذلك في الغالب إلى أنه اطلع على مصادر في عصره لم تصل إلينا . وقد اهتم الحديث برواية ابن خلدون عن تاريخ البربر اهباهاً عظياكما اهتم بمعظم هذه الأقسام الأخرى من تاريخه ، فترجمت حميماً إلى اللغات الأوربية كما سنبن بعد .

ويحتم ابن خلدون كتابه بعده فصول كتها فى التعريف بنفسه وسرد تاريخ حياته منذ نشأته حتى نزوحه إلى مصر ، وما توالى عليه بها من الحوادث حتى مستهل سنة ٧٩٧ هـ . وتعرف هذه الفصول « بالتعريف » أو « التعريف بابن خلدون » ؛ وهو ماسنعود إليه .

وقد سهج ابن خلدون فى تنظيم موافقه مسهجاً جديداً ، فقسمه إلى كتب ، ثم إلى فصول متصلة متداخلة ، وتتبع تاريخ كل دولة على حدة من البداية إلى الساية مع مراعاة نقط الوصل والتدخل بين مختلف الدول . وهو من هذه الناحية يتفوق على أسلافه تفوقاً كبيراً . وقد وضعت معظم الموسوعات التاريخية الإسلامية قبل عصره فى صورة جداول تاريخية مرتبة وفق السنين ، وجمعت حوادث كل سنة رغم تباعدها وتبايها مما . ولكن ابن خلدون عدل عن هذه الطريقة إلى طريقة الفصول والدول المتصلة ، وهي أقرب إلى الدقة وحسن الرواية والتنسيق . وهو ليس أول من ابتدعها من المؤرخون المسلمين . فقد سبقه إلها منذ المترن والربع مؤرخون كالواقدى ، والبلاذرى، وابن عبد الحكم المترن وابن عبد الحكم

لمصرى ، والمسعودى ، دونوا التاريخ فصولا متصلة (). ولكنه بمناز عن أسلافه ببراعة التنظيم والربط والسبك، ثم يمتاز عهم أيضاً بالوضوح واللقة في تبويب الموضوعات ووضع الفهارس .

وثمة ظاهرة أخرى يكاد ينفرد بها ابن خالمون فى تلوين التاريخ المعاصر ، وهي اعتصامه بالحيدة وضبط النفس. ومن المعروف أن تلوين التاريخ المعاصر ، تحكمه وتوجهه على الأغلب ظروف العصر وحوادثه ، وشعور المؤرخ المعاصر بتأثير هذه الظروف والحوادث في صوغ آرائه وأحكامه . وفي ذلك يتأثر المؤرخ بنوع خاص بما محظى به في ظل الدولة المعاصرة أو الأمر المعاصر ، من الرزق والحاه أومايصيبه في ظلهما من صنوف المحن والأذى . وقد نقلب ابنخلدون في خلمة دول وقصور عديدة ، ولتي في ظل الكثير منها ، وفير الرزق والحاه ، ولكنه طورد وأوذى في ظل البعض الآخر . ومع ذلك فإنا نراه حينًا يدون تازيخ هذه الأحداث ، التي رفعته أحيانا إلى ذروة النفوذ والسلطان، أو دفعت به آونة إلى ظلام السجن ، وأرغمته على الفرار من نقمة هذا الأمر أو ذاك ، نراه في كلتا الحالتين ، يتسم بكثير من الاعتدال ، والرصانة ، بل هر يذهب في ذلك أحيانا إلى نوع من الحمود الصامت ، فلا تنم عنه عاطفة ، ولاتحمله مشاعر ظاهرة ، فهو يشهد مصرع حماته من الأمراء دون تأثر ، وهو لاينرف دمعة على صديقه وقرينه العظيم

<sup>(</sup>١) الواقدى فى كتاب 🛭 فتوح مصر والشام ۽ المنسوب إليه ، والبلاذرى فى و فتوح الجيلدان ۾ وابن عبد الحكم في و فتوح مصر وأخبارها ۾ والمسمودى فى « مروج الذهب ۽ .

الوزير ابن الحطيب ، ويكتنى بأن يورد لنا حوادث مصرعه المؤسى : ويصفه بأنه وسفاهة من الوزير سليان » . وهو يدون لنا سبر الحوادث كما وقعت دون اغتباط أو ملق ، ودون حقد أو انتقاص . وهو قد كاول أن يبرر موقفه أو تطرفه فى ظرف من الظروف ، أو حادثة من الحوادث ، ولكنه مع ذلك لا كاول أن يصم أحداً من الأمراء الذين خالفهم فى الرأى ، أو نكل عن ولاتهم ، يشىء من الصفات المثيرة ، إلا فى فرص نادرة ، وفى كثير من الاعتدال ، وضبط النفس . وهو فى ذلك على نقيض من قرينه وصديقه ابن الحطيب ، وزير الأندلس وسياسها ومؤرخها العظم ، فإنا بالعكس نراه بالرغم من تفوقه على ابن خلدون فى براعة أسلوبه التاريخي ، وقوة بيانه ، وروعة تصويره ابن خلدون فى براعة أسلوبه التاريخي ، وقوة بيانه ، وروعة تصويره يطلق العنان لقلمه بالحملات المرة على معاصريه من الأمراء والوزراء ، يطلق العنان لقلمه بالحملات المرة على معاصريه من الأمراء والوزراء ، الذين نكب على أيديهم ، أو فقد مركزه يسبيهم ، ونراه بمن فى وصفهم بأقسى النعوت وأشعها .

ونحن نرى أن هذه الفصول التي مخصصها ابن خلدون لاستعراض التاريخ المعاصر ، سواء مها ما تعلق بالأحداث العامة ، أو تلك التي اشترك نها ، أوما يقدمه إلينا مها في « تعريفه » أو ترجمته لنفسه التي نتناولها بعد ، هي من أنفس أقسام كتاب العبر ، سواء من حيث مستوى الاستيعاب والتحقيق أوقوة العرض والتحليل ، وهي تقدم إلينا بلاريب مرجعاً من أقيم المراجع ، ووثيقة من أنفس الوثائق في عصرها وأحداثها ،

ولابن خلدون أساوب خاص في العرض والتعبر . وكما أن مقدمته ثمتاز بطرافة موضوعاتها ، فهي أيضاً تمتاز بروعة أسلوبها الأدبي الذي يجمع بينالبساطة وقوة التعبر ، ودقة التدليل ، وحسن الأداء والتناسق ، وإذا كانت المقدمة مثلا أعلى للتفكير الناضج والابتكار الفائق ، فهي في نظرنا أيضاً مثل أعلى لحسن البيان والفصاحة المرسلة والعرض الشائق ، وذلك رغم ما يطرأ أحيانا على أسلوبها من ضعف في العبارة ، وغرابة في التعبير ، وشلوذ في اللفظ ، ترجع إلى نشأة ابن خللون البربرية ، وتثقفه باداب المغرب والاندلس ، ولم تكن يومئذ في أوج قوتها .

ويكتب ابن خلدون تاريخه بنفس الأسلوب القوى المرسل ؛ وفى أحيان كثيرة يرتفع إلى ذروة القوة فى التمبير ، ولكنه فى أحيان كثيرة يبالغ فى الإيجاز والإتباع ، فتبلو عبارته قاصرة عن بيان مقاصله ويعتورها المغموض واللبس ، أويعتورها نوع من الركاكة والضعف ، وتتخللها الألفاظ الغرية . غير أنه على العموم أستاذ موضوعه ، يمتاز فى معظم الأحيان بالبيان القوى الشائق .

#### - Y -

توك ابن خلدون سيرة حياته مكتوبة بقلمه . وليس ابن خلدون أول من ترجم نفسه من الكتاب والمفكرين المسلمين . فكثير مهم ترجم نفسه ولاسيا المحدثين . ومن الأدباء والمؤرخين الذين ترخموا أنفسهم ياقوت الحموى في كتابه و معجم الأدباء ، ولسان الدين ابن الحطيب معاصر ابن خلون وصديقه في كتابه و الإحاطة في أخبار غرناطة ، و ومعاصره

الحافظ ابن حجر في كتابه و رفع الإصر عن قضاة مصر والسيوطى في كتابه و حسن المحاضرة على ولكن هؤالاء حميماً يضعون عن أنفسهم تراجم موجزة . أما ابن خلدون فهو أول مفكر مسلم مخصص لنفسه ترجمة مستفيضة تشغل كتاباً بأسره ، وبحدثنا بصراحة عن كثير من أعماله وأحواله التي لا بحسن الحديث عها . وابن خلدون يعتبر محق نفسه شخصية من شخصيات التاريخ تستحق سيرتها التدوين والترجمة ؛ أجل كان ابن خلدون شخصية بارزة من شخصيات عصره ، لا تقل في أهميها ، وفي الأدوار التي اضطلعت بها عن أدوار الملوك والروساء والقادة اللين تزعموا مصاير المغرب والأندلس في تلك الفترة ، ولم يكن أشد شعوراً بمنه الحقيقة من ابن خلدون نفسه . وقد لبث ابن خلدون نحو ثلث قرن شخصية بارزة في الدول المغربية المعاصرة ، يوثر بأعماله ونفوذه في تطوراتها ومصايرها ، فتاريخه في الواقع قطعة من تاريخ هذه الدول لا كمكن إغفالها .

كتب ابن خلدون إذاً ترجمة نفسه فى عدة فصول مستفيضة وجعلها ذيلا لمؤلفه التاريخي . وتعرف هذه الفصول بالتعريف ، وهو العنوان الذى اختاره ابن خلدون لأول فصل منها وهو : « التعريف بابن خلدون مؤلف هذا الكتاب » وتشغل ن المحلد السابع من تاريخه ( في طبعة بولاق ) نحو مائة صفحة من القطع الكبير (١) . ومحدثنا أبن خلدون في هذا « التعريف» عن نسبه وتاريخ أسرته مذ قدمت إلى الأندلس واستقرت

 <sup>(</sup>١) كاب العبر ، ج ٧ ص ٣٧٩ – ٣٩٢.

فى إشبيلية حتى نزوحها إلى المغرب ، وما ساهم به زعماوهما فى حوادث الأندلس، وما انهوا إليه من رفيع المناصب والنفوذ حتى أبام الطوائف ؟ ثم محدثنا عن نشأته وتربيته الأولى وما قرأ و درس من الكتب والعلوم ، وعن شيوخه الذين تلتى عنهم ، ويترجم لنا كثيراً منهم . ثم يتناول سنرة حياته العامة، مذولي توقيع العلامة لأني إسماق سلطان تونس سنة ٧٥٧ه ، وكحدثنا بإفاضة عن اتصاله بأمراء المغرب ودوله ، وتقلبه فى قصور تونس وبجاية وتلمسان وفاس، وعما انتهى إليه من النفوذ في هذه القصور والدول وهو فتى فىعنفوانه لم مجاوز الثلاثين ، وعما أصابه مراراً من عن الاعتقال والتشريد ، ثم عن رحلته إلى الأندلس واتصاله علك غر ناطة ووزيره ابن الحطيب، وسفارته إلى ملك قشالة وزيارته لإشبيلية • وطن أسرته الأول ، وكيف نشب الحفاء بينه وبن ابن الخطيب وملك غرناطة ، فارتد إلى المغرب يتقلب في خدمة أمرائه ودوله حتى انتهى كرة أخرى إلى بلاط تونس فاستقر فيه ، ثم لزم العزلة حيناً ، وعكف على كتابة مؤلفه حتى أتمه ، ورأى أخراً أن نختم حياة المغامرة السياسية فى تلك القصور المضطربة فغادر تونس إلى مصر سنة ٧٨٤ هـ ي وكدئنا ابن خلدون بعد ذاك عن حياته في مصر واتصاله بالسلطان وولايته التدريس وقضاء المالكية ، وماكان من سعاية خصومه في حقه حتى عزل عن منصب القضاء ، ثم سفره لقضاء الحج وعوده إلى مصر لبنقطع للتدريس والقراءة ، ولمرتد حيناً إلى حياة الدعة والعزلة حتى مستهل سنة ۷۹۷ ه .

وهنا نختتم ابن خلدون فصول 1 التعريف، بنفسه الملحقة بكتاب العمر في النسخة التي أخرجتها مطبعة بولاق كما قدمنا . ولكن دار الكتب المصرية تحتفظ بنسخة مستقلة من التعريف، أتم وأوفى عنوانها والتعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً ، وفي نهايتها أنها نقلت عن نسخة المؤلف الأصلية (١) . وفي هذه النسخة عدة فصول أخرى عن حياة ابن خلدون في مصر ، يحدثنا فها بإفاضة عن ولايته لوظائف التدريس والقضاء ، وعن سعيه لعقد العلائق بن سلطان مصر وسلاطين المغرب ، وعن حوادث مصر الداخلية يومثذ ، ثم سفره إلى الشام في ركب الملك الناصر قرح، ولقائه عاهل التتار تيمورلنك تحت أسوار دمشق، ومادار بينهما من الأحاديث ، وما وقع في تلك الفترة من حوادث الفتح الترى وتمهيده لذلك بنبذة عن أصل التتار وتاريخهم ، ثم عوده بعد ذلك إلى مصر؛ يتخلل ذلك كله شروح وتعليلاتفلسفية واجتماعية لبعض الظواهر وْالحوادث السياسية على طريقته في المقلمة . ثم محدثنا عما وقع بعد عوده إلى مصر من عوده إلى ولاية القضاء مراراً وتكراراً ، وما لني في ذلك مِن كيد خصومه وسعايتهم . ويصل ابن خلدون في رواية هذه الحوادث حْبى ختام سنة ٨٠٧ ه أعنى قبيل وفاته ببضعة أشهر فقط ، وتشغل

<sup>(</sup>۱) تحفظ هذه النسخة بدار الكتب تحت رقم (۱۰۹ م تاريخ ) ، والظاهر أجا قد نقلت عن إحدى النسختين الهغوظتين باستانبول التين سبقت الإشارة إليمها والتين اتخذتا أساساً لإغراج النسخة الهفقة من والتعريف بم التي طبعت بعناية بلغة التأليف والقرجمة والنشر (منة ١٩٥١) . وبالرخم نما يعتور هذه النسخة من التصحيف والنقص في بعض المبارات فإنها تكاد تطابق النسخة الهفقة في النص وفي القرتيب .

هذه الفصول في النسخة الحطية المشار إليها نحو أربعين صفحة كبيرة (١٠)، وتقع النسخة كلها في ماثة وتسع وأربعين صفحة . وفي القسم الأول منها الذي يقابل نسخة التعريف المتداولة زيادات وإضافات كثيرة ممايدل على أن ابن خلدون ، عاد أثناء مقامه في مصر ، فتناول ترجمة حياته بشيء من التنقيح والمهذيب .

وهذا «التعريف» الشامل الذي يتركه لنا ابن خلدون عن نفسه وحوادث حياته ، قطعة فريدة في الأدب العربي ؛ فهو صورة قوية ممتحة لتلك الشخصية المعتازة الحريثة ، رسمت في كثير من الحرية والصراحة ، حتى انها لتفصح في كثير من المواطن عن خواص صاحبا النفسية ، وليست هذه الحواص دائماً مما محمد أومما تقره الأخلاق الفاضلة . فهنالك الكرياء ، والزهو ، والأثرة ؛ وهنالك الطمع وحب التقلب، وشغف الدس، وانهاز الفرص بأى الوسائل، ثم هناك الحدود ونكران الصنيعة ؛ هذه كلها نلمحها من آذ إلى آخر ماثلة في أعمال المؤرخ ومواقفه حسيا يقصها علينا بنفسه . ولكن هـذه الحلال السيئة الاتبعد كثيراً عن خواص الشخصية الممتازة ، بل هي في الغالب خلال السياسة القوية الظافرة أو هي بعبارة أخرى مقومات السياسة « المكياڤيلية ، التي تتبوأ مكانها بين مذاهب السياسة الحديثة . ثم هي تقرن في الوقت نفسه بكثير من

<sup>(</sup>١) تشغل هذه الفصول في النسخة الحيلية من ص ١٠٠ إلى ص١٤٩. وهذا يبائها كما أوردها ابن خلدون : ولاية الدروس والخوانق . ولاية خانقاه بيبرس والنزل منها . فتنة الناصرى. السماية في المهاداة والإلحاق بين ملوث المغرب والملك الظاهر . سفو السلطان الى الشام لمدافعة الغظور (التبار) عن بلاده . لقاء الأمير تمرز تبصور) سلطان المفل والظظر .

حواص العبةرية وممزانها ؛ فهنالك إلى جانها ، نرى الحرأة والإقدام، وقوة النفس والتبات والحلد، ونرى وفرة الذكاء والدهاء وبعد النظر، ونرى قوة التأثير والإقناع ، ونرى النصاحة والبيان الساحر ، هذه الحلال البديعة كلها أيضاً بما نستشف ونشهد في أعمال ابن خلدون ومواقفه، وفي هذا وذاك يحدثنا المؤرخ بصراحة وحرية وبساطة تحمل على الإعجاب. ثم هنالك الحانب القصصي الشانق . وتلك الغار الحطرة التي تتخلل حياة المؤرخ ، ليست مما يقم في حياة الرجل العادي . فهو بجور من قصم إلى قصم ، وبجوز مخاطر النقمة والاعتقال والطاردة ، ويقضي حياته السياسية في توجس مستمر ؛ ويسر في ركب الحند ، وعمثل إلى جانب أميره في المعارك الحربية ، ويقوم بقضاء المهام الحطرة في أعماق الهضاب والصحاري . ونراه في دمشق في السبعين من عمره نخوض مخاطر جديدة، وينزل من أبراج المدينة المغلقة مدلى محبل، ويقصد إلى معسكر الفاتح في جرأة ؛ ونراه في مصر يقارع خصومه ويغالبهم رغم انفراده وكثرتهم ، ويفوز عالمهم فى ميدان النضال أكثر من مرة . أليست لهذه الحياة العنيفة الشائقة روعتها وسحرها ؟ إنا لنذكر حىن نقرأ وتعريف ابن خلمون ۽ تلك الترحمة الشهبرة التي تركها لنا بنڦونوتو تشليني (١) عن حياته الغريبة . فهنالك شبه عظم بين السيرتين رغم اختلافهما فىالنوع ، وكلتاهما تغيض بمواطن الحرأة والمخاطرة ،ومواطن

 <sup>(1)</sup> بنفونوتو تشائين Cellini (۱۰۰۰-۱۰۷۱) رسام وحفار و صائع إيطاله
 فيير ٤ شاش غار سياة غربية فياشة بالجرأة والمخاطرة . وترك لنا ترجمة نفسه في مجله
 ضغم . وتعتبر ترجمته من أبدع آثار عصر الإحياء .

الإفضاء والصراحة . وإذا كانت ترحمة الفنان الإيطالي تعتبر في الأدب النربي ، نموذجاً بديعاً للترحمة الشخصية ، وقطعة رائعة من العرض الساحر والقصص الشائق، فإن « تعريف» ابن خلدون يتبوأ مثل هذه المكانة في أدبنا العربي .

#### - r -

إن المعروف المتداول من تراث ابن خلدون هو موثقه التاريخي الكبير كتاب و المعرب بأجزاته النسبعة الكبيرة ، وملحقه و التعريف، وهواللى غدا بعد نشره كتاباً مستقلا عنوانه و التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً عندا بعد نشره كتاباً مستقلا عنوانه و التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً عندلف المناسبات ؛ ولكن ابن الخطيب يذكر لنا في ترجمته لابن خلدون ، في كتاب و الإحاطة في أخبار غرناطة ، ثبتاً آخر لا ثار ابن خلدون ، في كتاب و الإحاطة في أخبار غرناطة ، ثبتاً آخر لا ثار ابن خلدون ، في كتاب و الإحاطة في أخبار غرناطة ، ثبتاً آخر لا ثار ابن خلدون ، ابن رشد، وعلى السلطان أيام نظره في المقليات تقييداً مفيداً في المنطق ، ولحص عصل الإمام فخر الدين الرازى ، وألف كتابا في الحساب ، وشرع في شرح الرجز الصادر على في أصول الفقه بشيء لاغاية فوقه في وشرع في شرح الرجز الصادر على في أصول الفقه بشيء لاغاية فوقه في المكال ، ولا . وقد كتب ابن الخطيب هذه الترحة قبل أن يضع ابن خلون موثله التاريخي بأعوام كثيرة ، ولذا لم يذكر في هذا الثبت . ولم يصلنا من تلك الآثار أو الرسائل الى ذكرها ابن الخطيب سوى أثرين

<sup>(</sup>١) نفع الليب (بولال) ص ١٩٤ – رينقل المقرى ترجمة ابن السليب لابن خلدون كلها (ج ٤١٤ – ٢٧٩).

أحدهما من المحقق أنه من تأليف ابن خلدون ، والثانى يرجح أنه من تأليفه أيضاً . والظاهر أن هذه الآثارلم تكن ذائعة معروفة ، فلم تذكر التراجم المصرية المعاصرة عنها شيئاً ؛ والظاهر أيضاً أنها لم تكن فى نظر مؤلفها من الأهمية بمكان حتى أن ابن خلدون نفسه لايشير إليها فى التعريف بشىء . أما الأثر الأول الذى وصلنا من تراث ابن خلدون مما أشار إليه ابن الحطيب ، فهو مؤلف صغير فى الأصول وقفنا عليه أثناء محوثنا فى مكتبة دير الإسكوريال باسبانيا ، حيث تثوى المحموعة الأندلسية .

« لباب المحصل فى أصول الدين تصنيف العبد الفقر إلى الله تعالى الغى به عن سواه ، الراجى عفوه ، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرى ، غفر الله له ولوالديه ، ولحميم المسلمين ».

ويقول ابن خلدون فى مقدمته شرحاً لموضوع كتابه ، إنه درس على شيخه وأستاذه العلامة أفى عبد الله محمد بن ابر اهم الآبلى كتاب والمحصل، الذى صنفه الإمام الكبير فخر الدين بن الحطيب، وأنه نظراً لإسهابه وإطنابه، رأى أن محذف منه مايستغى عنه، وأن يترك فيه ما لابد منه، وأن يضيف كل جواب إلى سواله، « فاختصرته وهذبته، وحذو ترتيبه رتبته، وأضفت إليه ما أمكن من كلام الإمام الكبير نصر الدين الطوسى وقليلا من بنيات فكرى ، وسميته لباب المحصل ، فجاء محمد الله رائق اللفظ والمعى ، مشيد القواعد والمبنى ... ( الورقة ٤ ــ ١ ) .

ويقع المخطوط المشار إليه في خمسة وستين لوحة (ورقة) من القطع

الصغیر، وقد کنیت تحط مغر نی هو خط این خلدون نفسه، وقد جاء فی نهایته: « وافق الفراغ من اختصاره عشیة یوم الأربعاء التاسع و العشرین لصفر عام اثنین و خسین و سبعائة . و کنبه مصنفه الفقیر إلى الله تعالى، عبد الرحمن بن عمد بن خلدون الحضر می و(۱)

ومعى ذلك أن ابن خلمون كتب « لباب المحصل» ولما يبلغ التاسعة عشرة من عمره. والمرجع جداً أنه أول ماكتب. وكتابته له فى هذه السن المكرة، دليل على أن المؤرخ كان فى مستهل حياته يعمى بعلم الأصول عناية خاصة.

ويقسم ابن خلدون كتابه إلى أربعة أقسام أو أركان رئيسية ، الأول مها في البلسبيات ، والثانى في المعلومات ، ويتبعه الكلام على الموجودات عند الفلاسفة وعند المتكلمين ، والثالث في الإلميات ، والرابع في السمعيات، ويشتمل كل ركن على عدة أقسام . ويختم بالكلام على معى الإعان والكفر ، ثم عن الإمامة ، والشيعة وأنواعها . وتلخيصه وعرضه لكل ذلك واضح حسن الترتيب والتنسيق .

<sup>(</sup>۱) تحفظ هذه النسخة القريدة من أثر ابن خلدون بمكتبة دير الاسكوريال برقم المعقد : Casiri : Bibliotheca Arabico . راجع ١٦٠ (ورتبها في فهرس الغزيري ١٦٠٩ (ورجبها في فهرس الغزيري ١٦٠٩ ) . وقد قام أخيراً بتحقيقها ونشرها الأب الأوغسطيني لوسياتو روبيو Hispana Escurialensia أستاذ الفلسقة في دير الإسكوريال الملكي. وصدرت عن سهد مولاي الحسن يتطوان (سنة ١٤٠٦) في ١٤٩ صفحة . وقد جمل الإسانية مقروقة علم الناشر هذا النصر العربي الكتاب هو الجزء الأول . ثم نشر ترجمته الإسبانية مقروقة بحقدمة في قاريخ علم الكلام وجمله الجزء الثائل .

وثما مجدر ذكره أن نسخة لباب المحصل هذه ــ وهى النسخة الفريدة فى العالم ــ المحفوظة بمكتبة الإسكوريال ، كانت من مقتنيات مولاى زيدان سلطان مراكش المتوفى سنة ١٩٢٧ م ، وقد ذيل علما نخطه فى صفحتها النهائية (وقد قدمنا صورتها بعد) بعبارة تحليلية قوية عن ابن خلدون نثبتها فها يلى :

ه هو الإمام صاحب التاريخ العظم ارتحل من المغرب والتي بتيمور لنك بالشام ، وشفع فيهم فشفعه ، ثم غدر بهم بعد ذلك . وكان كثير التقل كالظل . استكتبه صاحب ولاية فاس، ثم صاحب تلمسان ، ثم صاحب تونس . ودخل مصر وولى بها القضاء أعنى في بعض الأعمال . وكان لا يستقر على حالة . وله في الأدب الله البيضاء، فغلب عليه الفقيه، واشتهر به وله مع ابن الحطيب الكاتب المشهور مكاتبات أدبية أبانت عن سلامة طبعه، وحدة ذهنه ، وقوة فهمه ، ورقة تحيله . واختصاره هذا لايأس به . وكتب عبد الله زيدان أمر المؤمن الحسني خار الله سبحانه له ٤ .

وأما الآثر الثانى من مؤلفات ابن خلفون بما أشار إليه ابن الحطيب، فهو شرحه المرجز الذى وضعه ابن الحطيب فى أصول الفقه وسهاه « الحلل المرقومة » ، وذكره فى ترحمته ضمن مؤلفاته (١١). وهذا الرجز هوعبارة عن أرجوزة فى ألف بيت لحص فها ابن الحطيب كتاب أصول الفقه الذى وضعه أبو إسحاق الشرازى المتوفى سنة ١٤٧٦هـ . وقد وقفنا خلال بحوثنا

 <sup>(</sup>١) يراجع ثبت مؤلفات ابن الخطيب فى ترجعته فى نفح الطيب ج ٤ ص ١٥٣ - ١٥٥ ، وقى أزهار الرياض ج ١ ص ١٨٩ -- ١٩٥ .

تامزَاله راغُ مزاختها وه چشکوریم کاریمکردالناسه قالمشرز لفدر عالماً شرز فیسر وسیم ماید کاهند مصنبه المبغی المستمل عشرالهی پخش خوارد لاختی

الستسة الأغيرة من كتاب لباب الهمسل ، وفها تاريخ كتابته ويله كلمة من ابزخلدون مكتوبة بخط مولاى زيدان سلطان مركش ؛ وقدكان الكتاب ملكاً له عكتبة جامع القرويين بفاس على نخطوط قديم عنوانه: ﴿ الحلل المرقومة فى اللمع المنظومة ﴾ ، وكتاب ﴿ اللمع ﴾ هو موالف الشيرازى المتقدم الذكر . ويضم هذا المخطوط شرحاً لأرجوزة من ألف بيت سميت بالاسم المتقدم ، وهذا مطلع الأرجوزة حسها أثبتت فى المخطوط :

الحمد لله الذي مصلحاقه في كل شيء أنه خلاقه والحمد لله الذي دليلسه في كل شيء واضح سبيله والحمد لله الذي دليلسه فإنما ينكر ربا أوجسه والحمد لله الذي من أنكره فإنما ينكر ربا صوره ويقع المخطوط المتقدم المتضمن لهذه الأرجوزة وشرحها في ١٧٦ لوحة من القطع الصغير ؛ وقد نسخ الخطوط حسيا سجل في نهايته في مناه ١٤٦٨ هـ ، وكتب مخط أندلسي . وهناك احيالان في شأنه ، فإما أن يكون صاحب هذا الشرح هو أبوسعيد فرج بن لب الذي ورد اسمه في آخر صفحة من المخطوط دون تعريف محكة وجوده ؛ وإما أن يكون ابن خلدون هو صاحب الشرح لأرجوزة صديقه ابن الخطيب، ويقوى الدنيا هذا الظن تلك العبارة التي وردت في ختام الكتاب، وهي بألفاظها وروحها تم عن أسلوب ابن خلدون ، وهي:

« وهنا والحمد لله، قد فرغت بما أردت، وحصلت على ما قصدت، من شرح قصيدته الفذة الحامعة ، النرة الساطعة . وأرجو من فضل الله ألا أكون قصرت فى إبانة معناها ، ولا أخللت بقاعدة مبناها ، ولعله يكون عند الله عملا معدوداً فى الأعمال الصالحة ، وغرضاً محموداً فى

الأغراض الناجحة ، ومزجاة فى ثوابه ، ومنجاة من عذابه ، واقد سبحانه عن تمغفرته »<sup>(۱)</sup>.

هذا ، وقد حصلت دار الكتب المصرية على نسخة مصورة من غطوط مغربي فى التصوف عنوانه و شفاء السائل لهذيب المسائل ٥ ، يقع فى سبعة و تمانن ورقة ( ١٧٤ صفحة ) ومنسوب فى صحيفة عنوانه والشيخ أبي زيد عبد الرحمن بن الشيخ الفقيه المحقق المشارك المبرور المقدس المرحوم أبى بكر محمد بن خلدون الحضرى، ٢٧. وينعت موافقه فى ديباجته و بالشيخ الرئيس الفقيه الحليل المدرس ، المحقق المشارك المتفنن ، العالم العلم ، الصدر الأوحد ، قطب العلوم الدينية ، ورافع راياتها ، وفاتح مفلقات المسائل العقاية ، والسابق إلى غاياتها ، أبوزيد عبد الرحمن ... اللخ ٥ .

والمحطوط قديم ذكر فى لمايته أنه كمل فى حمادى الأولى عام تسعين وثمانمائة ، أعنى بعد وفاة ابن خلدون باثنين وثمانين عاماً .

وأما موضوع الكتاب ، فقد أوضحه المولف فى فاتحته حيث يقول: وأما بعد فقد وقفى بعض الإخوان أبقاهم الله على تقييد وصل من عُدوة الأندلس ، وطن الرباط والحهاد، ومأوى الصالحين والزهاد، والفقهاء

<sup>(</sup>١) يحفظ هذا المخطوط بخزانة ( مكتبة ) جامع القرويين الكبرى برقم ٧٨ خروم . وقد لفت نظرى إلى وجوده صديق العلامة الأحتاذ محمد العابد الفاسي أمين ( محافظ ) الحزانة المذكورة . وتحن نشير إلى ذلك تنوجاً بفضله في معاونة إخوانه الباحثين الناهلين من كنوز هذه المكتبة العريقة .

<sup>(</sup>٢) وتحفظ هذه النسخة بدار الكتب برقم ٢٩٦٩ب.

والعباد ، مخاطب بعض الأعلام من أهل مدينة فاس حيث الملك يزأر ، وعجار العلم والدين تزخر ، وثواب الله يعد لأنصار دينه ويدخر ، طالباً كشف الغطاء في طريق الصوفية ، أهل التحقق والتوحيد المنوق وفي المعرفة الرجدانية ، هل يصح سلوكه والوصول به إلى المعرفة الصوفية ، ورفع الحجاب عن العالم الروحاني ، تعلماً من الكتب الموضوعة لأهله ، واقتداء بأقوالم الشارحة لكيفيته ، فتكنى في ذلك مشافهة الرسوم ، ومطالعة العلوم ، والاعباد على كتب الهداية ، الوافية بشروط النهاية والبداية ، كالإحياء والرعاية ، أم لابد من شيخ يتبن دلائله ، ويمنز غوائله ، و يميز المرضى ، والإمام العدل للأمة الفوضى ، ثم يقول والكلام في هذه المسائلة يستدعى تحقيق طريق الصوفية ، ثم يقول والكلام في هذه المسائلة يستدعى تحقيق طريق الصوفية ، وتميزها من بين سائر الطرق ، وكيف استقرت عند الصدر الأول منهم في نوع من العبادة والمحاهدة والمحاهدة والمحاهدة علما ، ثم صاروا إلى مجاهدات أخرى ، وغلب امم وانحتصت بهذا الاسم ، ثم صاروا إلى مجاهدات أخرى ، وغلب امم التصوف علمها ، وهو المشهور عند الكافة » .

ويشتمل الكتاب على الأبواب الآتية :

 (١) الكلام في تحقيق طريق المتصوفة وتمييزه على الحملة من بين طرق الشريعة ، ومدلول هذا اللقب عند من سلف منهم في الأمة .

(۲) الكلام فى المجاهدات بإطلاق وأقسامها وشروطها.

(٣) الكلام فيا تقل المتأخرون اسم التصوف إليه والرد عليهم في نظك.

(٤) الكلام في اشتراط الشيخ في المجاهدة وفي أي المحاهدات بحب.

(٥) القول في سمت إليه هم القوم من المجاهدات ، وما حملهم عليها من البواعث ، وكيف غلب استعال اسم التصوف في مجاهداتهم الأخرى ، واختص بها عند الكافة ، وانتقل إليها عن هذه المجاهدة الأولى ، وتحقيق هذه الطريقة .

هذه هي الموضوعات التي يتناولها الكتاب ، وهي بعض مسائل التصوف؛ وقد تناول ابن خلدون موضوع التصوف في المقدمة في فصل جامع لحص في مسائل التصوف، واختلاف مذاهبه تلخيصاً بديماً (۱). ومن الواضح مما ورد في صفحة عنوان الكتاب المذكور من نسبته إلى ابن خلدون ، ومما وصف به مؤلف الكتاب من نعوت ، بل وما يبدو في روح أسلوبه ، وما يتخلله من عبارات خاصة في الوصف والتعبر ، أن هذا الكتاب هو من تأليف ابن خلدون نفسه .

و مما مجدر ذكره أنهذا الكتاب لم برد فى الثبت الذى أورده ابن الحطيب عن مؤلفات ابن خلدون . فهو إذاً فيا يبدو من إنتاجه بعد ذلك . وربما يكون قد كتبه خلال إقامته فى فاس بن سنتى ٧٦٠ و٧٦٧ ه .

هذا ، وقد يكشف لنا الزمن عن آثار أخرى المفكر العظيم ماترال مطمورة فى بعض المحموعات المغربية الحاصة، وهى التى كشفت لنا فى العصر الأخير من كثير من ذخائر الأندلس ، التى كان يحشى أن تكون قد فقدت إلى الأبد.

<sup>(</sup>١) القلمة ، ص ٢٩٠ – ٢٩٦.

# الفضيل لرابع

### ان خلدون والنقد الحديث

أولى عهد البحث الغربي بابن خلدون . المباحث الأولى عنه وعن مؤلفه . نشر الملقدة وترجمتها . ظهور نظرياته وآرائه . رسالة فون كريم عنه . ابن خلدون مؤرخ الحضارة الإسلامية . تمليق الأستاذ شميت على هذا الوصف . وأى دي بوير . ابن خلدون الفسلسوف . ابن خلدون الإجهامي . تحليل السلامة جمبلونتش لنظريات ابن خلدون الإجهامية . فريرو و ليأين . تقلير الأستاذ مونيه المقدة . فلسفة ابن خلدون الوضعية . تشارم ابن خلدون . دواسات الساء الإسهان الراث ابن خلدون . بونس بويجس . بحث السلامة أتاميرا . بحث الفيلسوف أورتيجا . . وأى فون فيستنك في تعليق نظرياته على التاريخ الحديث . ابن خلدون الإتصادية . التاريخ واجهامي . بحث السلامة أويني . وسالة الاسادية وفيلسوف التاريخ واجهامي . بحث السلامة تويني .

يرتفع النقد الغربي بتراث ابن خلدون إلى أسمى مكانة . وقد عرف التفكير الغربي قبل ابن خلدون طائفة كبيرة من المفكرين المسلمين لم يرتفع كثير مهم إلى مكانته ، وعرف قبله كثير آمن المؤرخين المسلمين ، لا لأنهم أجلر بالبحث والتعريف ، ولكن لأنهم ظهروا في عصور الإسلام الفتية الزاهرة أو لأنهم تناولوا نواحى عنى مها التفكير الغربي (1). ولكن

<sup>(</sup>١) عرف الغرب مؤرخين مثل المسمودى وأبى الفدا وابن العبرى وابن خلكانه وابن عربشاه قبل ابن خلدون بعصور طريلة ؛ وترجمت بعض مؤلفاتهم إلى اللائيئية . ونشر تاريخ ابن العبرى وتاريخ ابن عربشاه ( تاريخ تيمور) في انجلترا بتصهما العرقيه مئة متصف القرن السابع عشر .

10. خلدون ظهر في عصر سرى فيه الإنحلال إلى صولة الإسلام وسيادته، واضمحل التفكير الإسلامي، فلم يكن أجدر العصور بالتعريف والبحث: ولبث تراث ابن خللون مغموراً في الشرق والغرب مدى قرون ، يكاد الشرق بجهله ، ولايعرف الغرب شيئاً عنه . وفي سنة ١٦٩٧م ظهرت عنه في موسوعة « دربلو» الشرقية أول ترحمة غربية (١٠) . وهي ترحمة موجزة فياضة بالخطأ . ومضى بعد ذلك أكثر من قرن قبل أن يعني التفكير الغربي بشأنه ، حتى نشر المستشرق الفرنسي سلقستر دى سامى صنة ١٨٠٦ ترحمة ابن خلدون مع ترحمة فرنسية لفقرات من المقلمة في قاموسه Chrestomathie Arabe . ثم نشر بعد ذلك بأعوام ترحمة لمقتطفات أخرى من المقلمة , وعاد فنشر سنة ١٨١٦ ترحمة أوفى لابن خلدون في قامو س التراج العام Biographie Universelle مع و صف مسهب للقدمة ابن خلدون . وفي نفس الوقت نشر المستشرق النمسوى فون هامار رسالة بالألمانية عن ١ اضمحلال الإسلام بعد القرون الثلاثة الأولى للهجرة ع ٣٠٠ ، تعرض فها لبعض نظريات ابن خلدون في انحلال الدول ، ووصفه بأنه « مونتسكيوالعرب» . ونشربعد ذلك ترحمة ألمانية ليعض مقتطفات من المقدمة ، ثم نشر وصفاً لبعض أجزاء المقدمة في في المحلة الأسبوية ٣٦٠) . واستمر دى ساسي وبعض زملائه المستشرقين

D'Herbélot : Bibliothèque Orientale.

<sup>(1)</sup> Von Hammer-Pargstall : Uber den Verfall des Islams nach ( Y )

den ersten drey Jahrhunderten der Hidschrat (1812). Journal Aslatique (1822). (7)

على نشر مقتطفات مترحمة من مقدمة ابن خلدون أو تاريخه ، والبحث الغربي فيما بنن ذلك يزداد اهتماماً بابن خلدون وتراثه ، وإعجاباً يقوة تفكيره وطرافته ، حتى نشر كاترمير مقدمة ابن خالمون كاملة بنصها العربي سنة ١٨٥٨، ونشر دىسلان بعد ذلك ببضعة أعوام ترحمة كاملة المقدمة ، وعندتذ ظهر ابن خلمون للتفكير الغربي في روعة ابتكاره ، وظهرت قيمة ذلك التراث الباهر الذي غمره النسيان مدي عصور . ومنذ منتصف القرن التاسع عشر يعنى النقد الغربي بابن خلدون ونظرياته الاجمَّاعية عناية خاصة . كان وقوف الغرب على تراث ابن خلدون اكتشافاً علمياً حقاً ، وكان أعجب ما في هذا الاكتشاف أن يظفر الغرب في تراث المفكر المسلم ، بكثير من النظريات الفلسفية والاجبَّاعية والاقتصادية، التي لم يطرقها البحث الغربي إلابعد ابن خلفون بعصور طويلة . أجل اكتشف النقد الغربي لدهشته وإعجابه في تراث ابن خلدون کثیراً مما ردده میکاثیللی بعده بقرن ، وما ردده ثمیکو، و،ونتسكيو ، وآدم سميث ، وأوجست كونت(١) بعده بقرون ، وكان المعتقد أن البحث الغربي أول من اهتدى إلى فلسفة التاريخ ، ومبادئ الاجمّاع ، وأصول الاقتصاد السيامي ، فإذا بابنخلمون يسبقه بعصور ويغزو في مقدمته هذه الميادين ، ويعرض كثيراً من نواحمها ونظرياتها

<sup>(</sup>۱) مکیائیلی مؤرخ وسیاسی ایسالل ( ۱۶۲۹ – ۱۵۲۷). ولیکومؤرخ وفیلسوف ایسالل (۱۲۲۸–۱۷۷۶) رمونتسکیو مشترع وفیلسوف واجهامی فرنسی (۱۲۲۹ – ۱۷۷۵) وآدم سمیث اقتصادی انجلیزی (۱۷۲۳–۱۷۹۰) وأرجست کونت فیلسوف فرنسی وهو واضیم أصول الفلسفة الوضعیة (۱۷۹۸ – ۱۸۵۷).

بقوة وبراعة . ومن ثم فإنا نرى النقد الغربي ، بعد أن اكتشفه و درسه ، يرتفع بتراثه إلى أسمى مكانة ، وينظمه فى سلك الفلاسفة ومؤرخى الحضارة وعلماء الاجماع والاقتصاد السياسى ، بل ويعترف له بفضل المبتى فى هذه الميادين .

#### - 1 -

كانت الناحية التاريخية الفلسفية فى تفكير ابن طلون ، أول ما عبى النقد الغربي بدرسه ، ولكن الناحية الاجهاعية ما لبثت أن لفتت أنظار طائفه من علماء الاجهاع ، وأخلت تتفوق على ما عداها من نواحي تفكيره . ومنذ أواخر القرن التاسع عشر نرى نظريات ابن خلدون الإجهاعية تشغل فراغاً كبيراً فى التقد المعاصر ، ويتناولها حتى يومنا طائفة من الفدة الاجهاعين بالدرس والتحليل المقارن .

وكان في مقلمة من درس تراث ابن خللون من الناحية التاريخية الفلسفية المستشرق النمسوى الكبيرالبارون فون كريم ، فكتب عنه بالألمانية رسالته الشهيرة فابن خللون و تاريخه لحضارة اللول الإسلامية به (١١) مورخ خضارة المعلوم بثينا سنة ١٨٧٩ . ويعتبر فون كريم ابن خللون مورخ المسلمية ، مورخ المحضارة المعوب الإسلامية ، كانه من بين المورخين المسلمين أول من خصص فصولا ضافية التحدث عن النظم السياسية و أنواع الحكم ، والحطط العامة ، كالقضاء والشرطة

Von Kremer : Ibn Chaidùn und seine Kultur - Geschichte ( ) der islamischen Reiche.

والإدارة تطورها فى اللمول الإسلامية ، وعن النظم الإقتصادية والتجارة والمكوس والضرائب ، وعن المهن والحرف والصنائع ووجوه الكسب والمعاش ؛ ثم عن العلوم والفنون والآداب وأصنافها وأحوالها وتطورها فى العالم الإسلامى ؛ وهو اعتبار صادق من بعض الوجوه فقط لأن ابن خلدون لايعالج هذه المسائل مستقلة أولذاتها ، وإنما يعالجها كصور فقط من هذا العمران الذى هو موضوع محثه ودرسه . ومراحل الحضارة مقياس لمراحل العمران .

ولم يلق هذا الوصف الذى أسبغه فون كريمر على ابن خلدون تأييداً كبيراً من النقدة . ويقول الأستاذ شميت وهو من أحدث من درس ابن خلدون ونقده ، في التعليق على هذا الرأى ماياتي :

و إذا وجب مع بعض التحفظ أن نعتبر ابن خلدون مؤرخاً للحضارة، فيحسن أن نتدبر ما إذا لم يكن قصد ابن خلدون الحقيق سواء في هذا القسم من مؤلفه أو في تاريخه السياسي، هو أن يقدم لنا أمثلة إيضاحية تبين لنا ما يعتبره موضوع التاريخ وجوهره، لا أن يقدم لنا تطبيقاً كاملا للقواعد التي قررها . ذلك أنه في الفصول الأولى من مقدمته يعالج المسائل التي تختلج بها ذهنه ، بمنهى الإفاضة ، كأصول النقد التاريخي ، ويعالج والقواعد الأساسية التي يجب أن يستند إليها البحث التاريخي ، ويعالج بالأخص فكرته في فهم التاريخ ومداها وعواملها ونتائجها المنظمة أو قوانينها . ولقد كانت هذه الفكرة العظيمة المستنبرة في فهم التاريخ بأنه صول الطبعية وناشئاً عن

تأثير الوسط وتفاعل الفرد والحياعة ، خليقة بأن تجعل كتابه و مفتتح عهد جديده لو لم تكن الحضارة التي وصفها صائرة إلى الانحلال العاجل، واللغة التي كتب ما مجهولة من الأمم الفتية التي قلىر لها أن تمضي بالمهمة، محيث غدا استمرار النقدم العلمي مستحيلا ، واضطر بناة الحضارة الحدد أن يشقوا طريقهم ببطء ، دون المعاونة التي كان بوسعه أذبة لممها إلى بعض المراتب السامية التي تبوأها هو من قبل ع<sup>(1)</sup>.

ويعتبر دى بوير (الهولندى) ابن خلدون فليسوفاً ، ويضعه في ثبت الفلاسفة المسلمين إلى جانب ابن سينا والغزالي وابن رشد وابن طفيل ، وبنوه بقيمة المنطق في صوغ نظرياته ، ويصفه بأنه مفكر مترن ؛ فهو ينكر ثمرة الكيمياء والعرافة بحق ، وكثيراً مايعارض مبادئ الفلسفة المعقلية ، عبادئ الإسلام البسيطة ، سواء عن اعتقاد شخصي أو لاعتبار سياسي . بيد أن الدين لم يوثر في آرائه العلمية بقدرما أثر ب الأرسطوطالية الأفلاطونية . وقد أثرت في تكوين ذهنيته جمهورية أفلاطون وفلسفة فيثاغورس الأفلاطونية ؛ وكذلك المؤلفات التاريخية لأسلافه المشارقة ولاسميا المسعودي ، أيما تأثير . وقد حاول ابن خلدون أن يؤسس نظاماً فلسفياً ؛ وهو يقول لنا إن هذا النظام إنما هو الحياة الاجتماعية ، ومادة فلسفيا ؛ وهو يقول لنا إن هذا النظام إنما هو الحياة الاجتماعية ، ومادة المتمم كلها وثقافته الفكرية . ومهمة التاريخ هي أن يبن كيف يعمل

N. Schmidt: Iba Khaldur, Historian, Sociologist (1) and Philosopher (New-York 1980) p.p. 15-16.

الناس وكيف محصلون أقواتهم ، ولماذا يقاتلون بعضهم بعضاً ، وكيف مجمعون في محاعات كبيرة في ظل بعض الزعماء ، وكيف يلهمون أخيراً في ظل حياة الحضر ، رغبة العناية بالفنون والعلوم الرفيعة ، وكيف تتقدم الحضارة من البداية الحشنة إلى الرف الناع وتزدهر ، ثم تضمحل أن يشرح بإقاضة تطور المجتمع وتقلمه الأسباب وعلل معينة ، وأن يشرض ظروف الحنس والإقليم ووسائل الإنتاج وما إليها ، وأثرها في تكوين ذهن الإنسان وعاطفته وفي تكوين المجتمع . وهو يرى في سير الحضارة تناسقاً داخلياً منظماً . ومختم دى بوير حديثه عن ابن خلدون عالمي عاياتي ولكن في سيل المحضارة تناسقاً داخلياً منظماً . ومختم دى بوير حديثه عن ابن خلدون عايات عن من يتم محته في سبيل المحتمية ، ولكن في غير الإسلام ، فكما أنه كان دون سلف فكللك المحتمية ، ولكن في غير الإسلام ، فكما أنه كان دون سلف فكللك

- Y -

بيد أن النقد الغربى كان أكثر الهاماً بفلسفة ابن خلدون الإجهاعية . وقد لتى ابن خلدون من هذه الناحية ذروة الإعجاب والتقدير ، وعلى كثير من علماء الاجماع المعاصرين بتحليل نظرياته الاجماعية ومقارنها بنظريات أقطاب الإجماع المحدثين .

ومنهولاء النقدة العلامة الاجباعي لدڤيج جمبلوڤتش؛ فهو مخصص

T. J. de Boer : Geschichte der Pailosophie im Islam (1901). ( \ ) pp. 177-184 .

لابن خلدون في مباحثه الاجهَاعية فصلا كبيراً ، ويصفه بأنه اجمَّاعي أو من علماء الاجماع ، ويتناول طائفة من آرائه الاجماعية بالتحليا. والقارنة ، ويبين أنه قد سبق في كثير من هذه الآراء أقطاب الاجتماع المحدثين. فهو مثلا قد اهتدى إلى نظرية الأجيال الثلاثة الحاصة بهوض الأسر وانحلالها قبل أن يعرضها أوتوكار لورنتس في أواخر القرن التاسع عشر . ويقول حملوڤنش إن ابنخلدون يرتفع إلى ذروة البحث الإجهاعي حيمًا يعرض ملاحظاته عن تفاعل الحاعات الإجماعية ،وكيف أن هذه الحاحات نفسها إنما هي ثمرة الوسط. وآراؤه في هذا المقام عن الأجناس الغالبة في منهى الأهمية . وفي أقواله عن الوسط و-وثراته ما يدل على أنه عرف، قانون التشبه بالوسط ، قبل أن يعرفه داروين(١) محمسة قرون ؛ وفيها يقوله عن تشبيه الإنسان بالحيوان في الحضوع للقوانين الإجتماعية العامة ، مايدل على أنه عرف مبدأ « وحدة المادة » قبل أن يعرفه هيكيل ٣٠ . ومن المدهش أن نرى كم تتفق الإجراءات التي ينصح ابن خلمون باتخاذها للفائحين الظافرين لكي يؤيدوا سلطانهم، مع النظم الحربية التي أثبت البحث التاريخي الحديث أن مؤسسي الدول الأوربية في العصور الوسطى قد اتخذوها ، بل إن فضل السبق يرجع محق إلى العلامة الاجتهاعي العرني ( ابن خلدون ) فيما يتعلق سهذه النصائح

<sup>(</sup>١) داروين Darwin علامة طبيعى انجليزى اشهر بمباحثه عن أصول الإنسان والأنواع ، ومؤثرات الوسط ( ١٨٥٩ – ١٨٨٧ ) . (٢) ليرنست ميكيل علامة يبولوجي وطبيعي ألمان اشهر مثل داروين بمباحثه عن

 <sup>(</sup>۲) پرتست هیدیل هدم پیوتوجی وهیینی . نمای تستهر مین تدارین . ب ت عربی ایان الدین . ب ت عربی ایان الدین این میدید ( ۱۹۱۶ ) .

التي أسداها مكيافيللي بعد ذلك بقرن إلى الحكام في كتابه والأمر . . وحتى في هذه الطريقة الحافة لبحث المسائل وفي صبغتها الوقعية الحشنة ، كان من المستطاع أن يكون ابن خلدون نموذجاً للإيطالي البارع الذي لم يعرفه بلا ريب . هذا وقد استطاع ابن خلدون أن يقرر منذ خمسة قرون أصل السلطتين الروحية والزمنية ، كما يقررها أساتذة المقانون السياسي والقانون الكنسي .

وأخراً يقول حملوفتش: و لقد أردنا أن ندلل على أنه قبل أوجست كونت ، بل قبل فيكو الذي أراد الإيطاليون أن يجعلوا منه أول اجتماعي أوربى ، جاء مسلم تتى فدرس الظواهر الاجتماعية بعقل متزن ، وأتى فى هذا الموضوع بآراء عميقة، وما كتبه هو مانسميه اليوم: علم الاجتماع ه<sup>(1)</sup>. وفى نفس الوقت الذي أدل فيه حملوفتش جده الآراء تناول تفكير ابن خلدون باحث اجتماعي إيطالي هو فريرو ، فأيد وصف حملوفتش لابن خلدون بأنه و اجتماعي ونوة بطرافة ابن خلدون وسبقه في هذا الميدان (٢). ويوافقهما في ذلك الكاتب الاجتماعي الروسي ليثين فيعتبر الين خلدون فيلسوفاً و اجتماعياً و .

ودرس مسيو مونييه أستاذنا السابق بكلية الحقوق ، ابنخللون من الناحية الاقتصادية والاجتماعية في محشن قويين ، يتناول في أولها آراء

L. Gumplovicz: Un Sociologiste arabe au XIV siècle (dans ( \ ) Aperçus Sociologiques ) pp. 201-226.

A. Ferreiro : Un Sociologo arabo del secolo XIV ( y ) (La Ritorma Sociale 1897).

ار خلدون الاقتصادية(١) وفي الثاني آراءه الاجبّاعية ، ويعتبره فيلسوفاً واقتصاديًا واجتماعيًا معًا . ويصف مقدمته وتفكيره بما يأتى : ٩ إنها مزيج عظيم من القوانين(الكونية، وموسوعة لعلوم العصر؛ وتحتوى على أجزاء متفرقة لبحث كامل في علم الاجمّاع . وطريقُها بالأخص بديعة، تدلل على ذهن علمي حق . وإذا كانت آراء ابن خلدون لاتعبر عن مثل وضعي أعلى ، فهي مع ذلك تقوم على الملاحظة التحليلية للحوادث ، وهي مرآة الواقع . وليست فلسفته سوى شرح وتعليل لتاریخه ، وشروحه تشهد بذهنية وضعية كان فيلسوفنا يسبق مها عصره ٤ . ثم محلل مسيو مونييه نظريات ابن خلدون الإجتماعية ويقسمها إلى قسمين هما: القوانين العامة للحياة الاجبَّاعية ، وقوانـن التطور الاجبَّاعية ؛ ويصفها بقوله : ﴿ وَإِذَّا فإن فلسفة ابن خلدون الإجهاعية بغشاها على ما يظهر استنتاج بالغ التشاؤم . فالمحتمع ليس إلا لحظة في مجرى الأشياء الكوني ، وهو يفني كما يفني كل شيء . والحياة كالرَّوى ، وكل تغيير يقتضي عكسه، وكل ارتفاع يعقبه سقوط... ولكن تشاؤم ابن خلدون تشاؤم مستسلم غير مكترث ؛ فهو لامحكم و إنما يشاهد . وهو بذلك يدلل على ذهنية عامية حقة ، وبذا بجب أن يفسح له مكان في تاريخ الإجماع الوضعي، ٢٦٠ وينوه معظم نقدة ابن خلدون لهذا النشاؤم الذي يطبع فلسفته . ويقول

René Maunier: Les idées économiques d'un philosophe (1) arabe (Revue d'histoire économique et sociale, 1912), Maunier: Les idées sociologiques d'un philosophe arabe (7) au XIV siècle (l'Egypte contemporaine 1917, p. 31).

لنا فون كر عر إن ابن خلدون يذهب في تشاومه إلى حدود بعيدة، و بقار نه في ذلك بأني العلاء المعرى . و يعتقد أن مصدر هذه العاطفة هو انحطاط الدول و الحضارة الإسلامية في العصر الذي كتب فيه ابن خلدون . ولكن فريرو يرجعها إلى ظروف الحياة السياسية العاصفة التي تقلب فيها ابن خلدون ، وما بثت إلى نفسه من مرارة وخيبة أمل . على أن كثيراً من الناحية الوقعية الملسفة ابن خلدون يرجع إلى هذه العاطفة ؟ ولم يكن تشاومه نزعة شخصية كامنة في أخلاقه ، ولكنه صفة لتفكيره فقط، ونتيجة للبحث والدرس . أما ابن خلدون نفسه ، فكان كما تدل حوادث حياته أكثر ميلا إلى الثقة و الإبهاج والتفاول .

وقد عنى العلماء الإسبان بنوع خاص ، بدراسة مقدمة ابن خلدون ونظرياته التاريخية والاجهاعية . وكان فى مقدمة من أشاد منهم بأهمية المقدمة وقيمتها ، العلامة المستشرق بونس بويجس ، فهو يقول لنا فى فاتحة ترحمته لابن خلدون :

و ظهر ابن خلدون في القرن الرابع عشر الميلادي و كتحليل و محتصر للحضارة الإسلامية في عصره ، وكشخصية من أعظم ممثل التاريخ الفلسي البعيد المدى. وهو قد ولد حقاً يتونس. ولكنه يرجع إلى أصل أندلسي ( إسباني)، وقد در سعلي ابن الخطيب وغيره من علماء غرناطة، ومن ثم فني وسعنا أن نقول مع الأستاذ ربيرا و إن الوطن الإسباني يستطيع عتى أن يُسب إليه أعظم إنتاج تاريخي في العلوم الإسلامية و (1).

Pons Bolgues : Hisioriadores y Geograficos Arabigo- ( 1 ) Espanoles (Madrid 1898) p. 358 -- 351

وتلاه العلامة المؤرخ رافائيل ألناميرا ، فوضع محمه الشهير عن نظرية ابن خلدون التاريخية (٢) وهو البحث الذي ترجم إلى لغات كثيرة ، واقتيس منه معظم الباحثين في هذا الميدان . وبالرغم من أن ألتاميرا ينقد آراء ابن خلدون في بعض المواطن ، فإنه مع ذلك يشيد بتفكيره وتراثه ، ينظرية ابن خلدون في نقد التاريخ ، أنها تقوم على قاعدتين : الأولى مأخوذة من وحدة النفسية الاجهاعية ، التي تحدث جوهراً دائما في كل الأمم من وحدة النفسية الاجهاعية ، التي تحدث جوهراً دائما في كل الأمم عكن وفقاً لها أن نحكم باحهال أو إمكان حادث منسوب إلى شخص ما أو أمة ما . والثانية تعترف في ظل هذه الوحدة ، يامكان الاختلاف ما أو أمة ما . والثانية تعترف في ظل هذه الوحدة ، يامكان الاختلاف كل التائيج التي يتضمنها ، والتي تتميز بأهميها بالنسبة لفكرة التاريخ . كل التأم مي تأملنا العمق الذي تنساب إليه ، فإن الأمر يبدو محققاً ، إذا نم أخذنابدقة الكلات التي صيغ فها .

ويرى ألتاميرا بعد ذلك أن و المقلمة ، هى من الناحية الإجماعية و نظرية للحضارة ، حقيقية وكاملة جداً ، تدرس فها العناصر التي توثو في إنتاج وتوسعة هذا الحدث الاجماعي ، وتطوراته التاريخية ، واتجاهاته الحوهرية ، والقوانين التي تحكم حياته ( النشأة والتقدم والاتحلال ) ،

Rafael Altamira: Notas Sobre la Doctorina historica de (1) Abenjaldum (Homenaje a Francisco Codera 1903) وموث تنش ترجمة هذا البحث كاملة في نهاية الكتاب .

ولاسيا عامل السكان ، وبعض تيارات مثالية أخرى ، يرى ابزخلدون أنها ، تحكم بطريقة ما ، سائر الحركة الحضارية .

ويحتم ألتامير بحثه المذكور بقوله: «كفي أنه في القرن الرابع عشر، حياً كانت دراسة التاريخ الأوربي في منهي النقص، ومنهي البعد عن آراء كالتي يعرضها ابن خلدون، ويدافع عها، قد كُتب كتاب كالمقدمة درست فيه أو افترضت كل المسائل، التي غدت فيا بعد، على تفهمها عختلف الصور، هي المهمة الحوهرية للمؤرخين المحدثين ».

ويقول ألتاميرا أيضاً في كتابه « تاريخ اسبانيا والحضارة الإسبانية » عند ذكر ابن خلدون وتاريخه « وقد اشتمل تاريخه على مقدمة ، هي في الحقيقة مؤلف في الاجهاع والفلسفة التاريخية ، لم يفقه حتى أيامنا في الأهمة أي مؤلف آخر »(١).

وكتب الفيلسوف الإسبانى خوسيه أورتيجا إى جاست ، محناً عن المسائل الإفريقية التى كانت قائمة فى وقته ، عطف فيه على نظريات ابن خلدون ، في شرح تطورات التاريخ الإفريقي ، وهو يعتبره و إفريقيا عقرياً، ذا عقلية مستنبرة مصقولة، يدخلنا في هذا المحيط التاريخ، الذي لايتاتى لذهننا أن يصل إليه ، ثم يصفه بأنه و فيلسوف التاريخ الإفريق » . ويعتبر أورتيجا أن مقدمة ابن خلدون ، هى من حيث الزمن ، أول كتاب يوالف فى و فلسفة التاريخ وأن الذي كان يمكن أن يطمح قبله

R. Altamira: Historia de Espana y de la Civilización ( \ ) Espanola (T. 11. p. 358)

إلى مذه المكانة ، هو القديس أوغسطين ، لولا أنه عنى بعلم و اللاهوت فى التاريخ « . ثم يقول إن ابن خلدون هو عقلية واضحة كلها ضوء ، وأن ضوءه العقلى يمزق كل غموض ، ويصل نقيا إلى الأشياء . وكتابه عن فلسفة التاريخ ، هو فى نفس الوقت أول « علم اجماع «(1) .

ويدرس الكاتب الألماني فون فيسندنك نظريات ابن خلدون في نشوء اللول وانحلالها ، ويرى فيه ذهناً وافر الابتكار ، ومثلا أعلى في التفكير الهربي ، وآخر نجم سطع في أفق التفكير الإسلامي الحر. ويعتبره مثل فون كريم موثر خاً للحضارة Kultuthisroriker : ويرى فيه محق إماماً لمدرسي مكيافيللي وفيكو ؛ وعاول أن يطبق نظرياته في سقوط اللمول والأسر على الإمر اطورية الألمانية والدول الأوربية فيقول : وقد يلوح للألماني في الوقت الحاضر أن هذه الآراء القياضة بالتشاوم ليست من ابتكار مفكر أجنبي ، فإن الإمر اطورية الألمانية لم تعمر طويلا ، ثم ذوى غصنها غضاً إلى عالم الفناء بسرعة خارقة ؛ فهل مجب طويلا ، ثم ذوى غصنها غضاً إلى عالم الفناء بسرعة خارقة ؛ فهل مجب عن سقوط المرابطين والموحدين ؟ إن نظريات ابن خلدون تقدم إلى للتأمل فرصة صادقة ؛ بقف مورخ الحضارة المسلم الكبر وحيداً في المشرق ، فرصة صادقة ؛ بقف مورخ الحضارة المسلم الكبر وحيداً في المشرق ، فرصة صادقة ؛ يشع عورخ الحضارة المسلم الكبر وحيداً في المشرق ، في يسج على منواله ناسج ، ويطبق ماكان يشعر به أو يسعو إليه على أوربا في القرن التاسع عشر أصح تطبيق وأتمه . وتلوى يدو والدي على أوربا في القرن التاسع عشر أصح تطبيق وأتمه . وتلوى يدو والموالي والمورن المناورة المناورة المحرد تطبيق وأتمه . وتلوى يدو إليه على أوربا في القرن التاسع عشر أصح تطبيق وأتمه . وتلوى يدو والمورد المحرد تطبيق وأتمه . وتلوى يدو والمدين المحرد تطبيق وأتمه . وتلوى

<sup>(</sup>١) يراجع بحث الملامة أورتيجا في مجلة الإسكنادور التي كان يصدرها : El Eapectador : T. VIII. 1934 (Madrid) p. 11—33 وقد نشر نا خلاصته في مهاية الكتاب .

ميول الفكر والسياسي الإفريق في معترك الحوادث مهما كانت وجهتها ، دويًا يتردد صداه في عالم أفكار عصرنا ه<sup>(١)</sup> .

- " -

درس الأستاذ استفانو كلوزيو ابن خلدون من ناحية أخرى هى الناحية الإقتصادية . ويرى كلوزيو بادئ ذى بده د أن ابن خلدون من حيث الحنس الذى انحدر منه ، والبلد الذى ولد فيه ، والحضارة التى ينتمى إليها ؛ يمكن أن يوضع فى صف عظاء الرجال الذى يتبوأون فى التاريخ أسى مكانة ، وقد اكتشف ابن خلدون آفاقاً جديدة فى ميدان العلوم الإجهاعية . ولكنه لا يجارى مكيافيلى كورخ ، لأنه لم يعرف أو لم يرد أن يعلى النادئ التي عرضها فى مقلمته ليشرح أسباب الحوادث التي يقصها فى تاريخه . ومع ذلك فقد سبق مكيافيلى ومونتسكيو وفيكو ، للى وضع أصول علم جديد هو اللرس النقدى التاريخ . وتلك حقيقة لين وضع أمارى المستشرق والمؤرخ الإيطالى الكبير قبل كلوزيو ، فوصف ابن خلدون بأنه أول كاتب فى العالم عالج موضوع وفلسفة التاريخ . وتلك حقيقة كلوزيو نظرية ابن خلدون فى « الحبر الاجهاعي» ويرى أنها موجودة فى كلوزيو نظرية ابن خلدون فى « الحبر الاجهاعي» ويرى أنها موجودة فى تلك العبارة التى يسهل بها ابن خلدون حديثه عن أجيال البدو والحضروهى: ولان اختلاف الأجبال فى أحوالم إنما هو باختلاف عملهم من المعاش ه (٢).

Von Wesendonk : Ibm Khaldun, Ein arabischer (1) Kulturhistoriker des XIV Jahrhunderts ( Destsche Rundschau, Januar 1923)

وقد نشرنا ترجمة كاملة لبحثه في نهاية الكتاب .

<sup>(</sup>٢) القدمة ، ص ١٠١.

على أن كلوزيو ينوه بالأخص بنظريات ابن خلدون الاقتصادية ، فيقول لنا ه إن المؤرخ البربرى العظيم استطاع في العصور الوسطى أن يكتشف مبادئ العدالة الاجباعية والاقتصاد السياسي قبل كونسيديران وماركس وباكونين، (٢) ثم علل آراء ابن خلدون عن عمل الدولة من الناحية الاقتصادية وآثاره السيئة ، وعن القوى السياسية والطوائف الاجباعية ، وعن طرق الملك وأنواع الملكية ، وعن مهمة العمل الاجباعية ، وتقسيم العمل إلى حر ومأجور ، وكون العمل الحرمصدراً للرزق (المعاش) ثم عن فانون العرض والطلب. ويرى كلوزيو في ذلك كله أن ابن خلدون كان اقتصادياً مبتكراً يعرف مبادئ الاقتصاد السيامي ويطبقها بذكاء وبراعة قبل أن يعرفها البحث الغربي بعصور طويلة . ويختم مخه بما يأتي : و إذا كانت نظريات ابن خلدون عن حياة المختم وغتم مخه بما يأتي : و إذا كانت نظريات ابن خلدون عن حياة المختم المعمل والملكية والأجور يضعه في مقدمة غلاسفة التاريخ ، فإن قهمه الدور الذي يؤديه العمل والملكية والأجور يضعه في مقدمة علماء الاقتصاد الخدئين وثديه العمل والملكية والأجور يضعه في مقدمة علماء الاقتصاد الخدئين وثديه العمل والملكية والأجور يضعه في مقدمة علماء الاقتصاد المخدين وثاري

<sup>(</sup>١) كونسيديران إشتماكى فرنسى له عدة مؤلفات فى الاشتراكية (١٨٠٨ – ١٩٨١) . وكارل ماركس إقتصادى واشتراكي ألماني كيير ومؤسس الاشتراكية المنطرقة ، ومؤلف أعظم كتاب فى الاشتراكية « رأس المال » ، (١٨١٨–١٨٨٣) . وباكونين ليجتابى واقتصادى روسى ومؤسس مبدأ اللاحكومية (١٨١٤–١٨٧٦) .

S. Colsio : Comribution à l'étude d'Ibu Khaldonn (Revue ( r ) du Monde musulman : XXVI - 1914).

وقد وضم الدكتور محمد عل نشأت رسالة قيمة فى نظريات ابن محلمون الاقتصادية عنوانها و رائد الاقتصاد ابن خلمون ( ( القاهرة سنة ١٩٤٤ ) .

#### - Y -

ومن أحدث المحوث النقدية في دراسة ابن خلدون محثان بالإنجليزية ، أولها رسالة للأستاذ ناتانيل شميت الأستاذ مجامعة كورنل بأمريكا والثانى فصل للعلامة المؤرخ الإنجلىزي الأستاذ أر نولد توينيي . وقد درس الأستاذ شمیت ابن خلدون کموًرخ و فلیسوف و اجهاعی (۱). و هو یری أن ابن خلدو**ن** كمؤرخ مكن أن يوضع في صف مؤرخين عالمين مثل ديودوروس الصقلي، ونقولاوس الدمشي أو تروجوس بومبيوس ممن كتبوا في القرن الأول الميلادي ، أومؤلفن من كتاب القرن الثامن عشر مثل جاتىرو وشلتسر ، هذا مع كونه يتفوقعلهم سواء في الانتفاع بالمصادر القديمة أو الرواية الأصلية؛ ولو أن ابن خلدون لم مخلف لنا سوى تار مخه السياسي، لكان أثراً ينبيء عن همة لاتنفد ، وغزارة في المصادر ، وحكم سديد ، ولكان بالنسبة لبعضالعصور مصدرا نفيسا للرجوع ؛ بل لكان في عدوله عن طريقة الحوليات ما يرفعه بكثير عن مستوى رجال مثل البخاري والمسعودي والطبري وابن الأثبر . على أن حق ابن خلدون في الشهرة الحالدة لايرجع إلى تاريخه بل يرجع إلى ذلك الأثر المدهش الذي كتبه مقلمة لتاريخه ؛ فهنا تبدو عبقريته في روعة بهائها ، وهنا ينثر بيدين نديتن ثمرات تأملاته الناضجة عن سىر التاريخ البشرى .

وأما من حيث فلسفة التاريخ فيرى الأستاذ شميت أن ابن خلمونهو الذى اكتشف ميدان التاريخ الحقيقي وطبيعته ؛ وهو بلاريب صادق

N. Schmidt: Ibn Khaldun; Historian, Sociologist, and (1) Philosopher.

حين يقول ، إن أحداً من المفكرين المسلمين قبله لم يطرق موضوعه ، و إذا كانت معرفتنا بعلوم القلماء أعظم وأغزر ، فإنا مع ذلك نستطيع اليوم أن نقول إن ابن خلدون كان محق أول كاتب استطاع أن يعرف موضوع التاريخ لهذه الصورة ، وأن ينظر إلى التاريخ كعلم خاص يبحث في الحقائق التي تقع في دائرته . بل لم يقل أحد غير ابن خلدون إن التاريخ علم خاص موضوعه بحث حميع الظواهرالاجماعية في حباة الإنسان . فإذا كان مجدر بنا أن نتوسع في فهم التاريخ إلى هذا الحد ، وإذا كان التاريخ علماً ، فإن التونسي العظم الذي ابتكر هذا الرأى ودافع عنه ليس له سلف فيا يظهر ، ومن حقه أن يعتبر أنه المكتشف. وهنا بلا ريب أروع ابتكاراته وأكثرها طرافة ، وإن كان ذهنه النافذ قد شق طرقاً جديدة في نواح كثيرة . وقد لاحظ ابن خلدون في دراسة الدول وقيامها وسقوطها أن أسباب هذه التطورات لاترجع فقط إلى البواعث والأطاع ، وإلى الأغراض والغايات ، وإلى قوة الإرادة ، لمدى الأفراد ؛ ولاحظ أن تأثير هذه العوامل لانخضع فقط لخواص الحماعات التي تنتمي إلىها ، واكنها تخضع أيضاً للظروف الإجهاعية العامة . وقد حمله ذلك على أن يبحُّث العواءل التي تؤثر في هذه الظروف الإجبَّاعية وتكيفها، وانتهى إلى أنها ترجع إلى خواص قومية وجنسية . ولكته لاحظ أيضاً أن هذه الخواص نفسها ترجع إلى مؤثرات الوسط الطبيعية كالإقلم، والماء، والأرض، والموقع، والغذاء. وإذاً فمن الضرورى لكي نفهم التطور السياسي، أن ندرس كل مظاهر الحياة الإجهاعية ؛ ولكى نفهم هذه بجب أن نحسب حساباً للعوامل الطبيعية، ومن ثم كان اتساع نطاق التاريخ ، واتساع مهمة المؤرخ ، إذ يغلو المتاذ التاريخ علم المجتمع الإنسان ، وإذا فهو علم الاجماع . ثم يقول الأستاذ شبيت إن ابن خلدون رغم طابعه الإسلامي إنما هو فيلسوف مثل أوجست كونت ، وتوماس بتكيل ، وهربرت سبنسر . وفلسفته التاريحية ليست كفلسفة هجل (١) تحليلا للقضاء والقدر . وإذا كان يذكر خلال محمة كثيراً من أيات القرآن ، فليس لذكرها علاقة جوهرية بتدليله ، ولعله يذكرها فقط ليحمل قارئه على الاعتقاد بأنه في محمه معنم النقدة وأما عن الناحية الاجماعية ، فإن الأستاذ شميت يرى مع معنم النقدة أن ابن خلدون هو مؤسس علم الاجماع ، ويرى بالأخص مع حباوقتش أن الاجماع وجد قبل أوجست كونت بعصور طويلة ، وأن ابن خلدون ذهب في تفكره إلى حدود لم يذهب إلها كونت ، وأنه فيا عالج من خواص العادة والإقلم، والأرض، والغذاء ، قد سبق مونتسكيو وبكل وسبنسر وغيرهم (٧٧).

هذا ، وقد كتُب العلامة المؤرخ المعاصر الأستاذ أرنولد تويني ، عن ابن خلدون ومقدمته فصلا ضمن دراساته التاريخية المشهورة عن « نمو الحضارة ، ،وهر يعتبره سابع سبعة من النجومالمؤرخين هم: توكوتيدوس

<sup>(</sup>۱) توماس بكل كاتب ومؤرخ اجهامي انجليزي ، وله مؤلف شهير في تاريخ الحضارة الإنجليزية ( ۱۸۲۱–۱۸۲۳) وسيسر فيلسوف انجليزي ومؤسس فلسفة التعلور (۱۸۲۰–۱۹۰۳) . وهبل فيلسوف ألماني كبير ، درس فلسفة الدين والروحيات ، والإلهات (۱۷۷۰) .

<sup>(</sup>١) وأجع رسالة الأستاذ شميت المشار إليه ص ١٧ و ١٩ و ٢٣و ٢٤ و ٢٧ ٢٠ ٢٠ ٢٠

(ثیودید ) ، ویوسیفوس ، ومکیافیالی ، وبولیبیوس ، ولورد کلارندون ، واین خلدون .

وهو يعتبر ابن خلدون عبقرية يمكن أن يقارن عملها يعمل توكونيدوس أو مكيافيلي من من حيث عمق الأفق واتساعه ، ومن حيث القوة العقلية المخضة ، وبرى أن نجم ابن خلدون بيدو أكثر تألقاً إذاء كتافة الظلام التي سطعت أمامه . ذلك أنه بينها نجد توكوتيدوس ومكيافيللي وكلارندون ، كلهم نماذج ساطعة لأوقات ساطعة ، إذا بابن خلدون ، يبدو وحده نقطة النصوء الوحيدة في ذلك الأفق ، وإنه ليبدو أنه لم يستوح أحداً من أسلافه ، ولم يجد أقوانا بين معاصريه ، كما أنه لم يشعل شرارة إلهام أسلافه ، ولم يجد أقوانا بين معاصريه ، كما أنه لم يشعل شرارة إلهام ولتاريخه العام ، وقد ألم وصاغ فلسقة لتاريخ ، هي بلاريب أعظم عمل من نوحه ، ابتكره أي مقل ، في أي عصر أو في أي بلد يه(١).

. . .

ونكتني بما قدمنا من آراء النقد الغربي في تراث ابن خلدون وتذكيره ؟ ومما تقدم نرى أنا النقد الغربي يرتفع بنراث ابن خلدون إلى أسمى مكانة من التقدير والإعجاب ، ويضع تفكيره بين أرفع وأنفس تمرات التفكير البشرى .

A. Toyabes: A Study بالشاذ أليه ضمن كنابه المشاد توينبي المشار إليه ضمن كنابه Of History; Vol. Ill — The Growth of Civilizations — (Oxford July).
 328 - 321 - 328 باية الله المسلم كاملة للكتاب .

# الفضالخامش

### ابن خلدون ومكياثيللي

وجه الشبه بين مكيائيلي و ابن علدون . فلسفة مكيائيلي الاجباعية كا يعرضها في كتاب والأميره . صلة مباحثه بموضوع السياسة الملكية الذي عالحه العرب . الناسية العملية الحافة في فلسفته . تماذج من آرائه في علال الأمير الأمثل . منصر القسوة و المنت في الفلسفة المكيائيلية . التقاء ابن علدون و مكيائيلي في مواطن كثيرة . ابن علدون أمناذ المدرسة المكيائيلية . هل تأثر مكيائيللي يتفكير ابن علدون أوغيره من المفكرين المسلمين . هل يكون الحسن بن الوزان صلة هذا التأثير . بعد هذا الفرض . المفكر ان كلاهما مبتدع مبتكر .

#### -1-

بعد وفاة ابن خلدون بأكثر من قرن ؛ وضع نيكولو مكياڤيللى للمؤرخ والسياسي الإيطالي(١) كتاباً يتبوأ في التفكير الغربي مكانة كتلك التي تتبوأها مقدمة ابن خلدون في التفكير الإسلامي . ذلك هو كتاب و الأمير ((Il principe) ، وهو كاثر ابن خلدون قطعة بديعة من التفكير

<sup>(1)</sup> نيكولو مكيائيلي Nicolo Machiavell كاتبوه ورخ وسياسي إيطالى كبير.
ولد سنة ١٩٦٩ مدينة فيرنترا ( ظورنس ) وتوفى بها سنة ١٩٥٧ ، واشتغل حيناً سكر تيراً
السياسة الحارجية في حكومة فيرنترا وكلف بعدة مهام سياسية في إيطاليا وفرنسا وألمانيا.
ولما عاد آل مدينتي لحكير فيرنترا سنة ١٥١٧، قبض عليه بممة التآمر وعلب م أفرج عنه
يوساطة البابا ليون العاشر. وعندئا اعترال الحياة العامة وكتب عدة مؤلفات شهيرة مها
كتابه والأمير، وتاريخ فيرنترا ومقالات عن ليش المؤرخ الروماني ؛ وعدة رسائل

السياسي والاجمّاعي ، تمتاز بكثير مزالقوة والطرافة والابتكار الفائق . وإذا لم يك بن الأثرين كثير من أوجه الشبه المادى ، فإن بينهما كثيراً من آوجه الشبه المعنوى. وبين الذهنين بالأخص مشامة قوية من حيث الظروف والبيئة التي تكون كل فها، ومن حيث فهمه التناريخ والظواهر الإجمَّاعية ، ومن حيث قوة العرض والاستدلال بشواهد التاريخ . ونستطيع أن نرجع كثراً من أسباب هذه المشاسة بنن المفكرين العظيمين إلى تماثل عجيب فى العصر والظروف السياسية والاجتماعية التي عاش كل مهما فها . فقد كانت الإمارات والحمهوريات الإيطالية التي عاش مكياڤيللي فىظلها تعرض فى إيطاليا نفسالصور والأوضاع السياسية الى تعرضها المالك المغربية أيام ابن خللون ، من حيث اضطرام المنافسات والحصومات فيا بينها ، وطموح كل مها إلى افتتاح الأخرى ، وتقلب إماراتها ورياستها بن عصبة من الزعماء والمتغلبين . وقد اتصل مكياڤيللي سهلمه اللول ، وقضي عصراً في خلمة إحداها وهي وطنه . فرنتزا (فلورنس) وانتلب لمهام سياسية مختلفة ؛ واستطاع أن يدرس عن كثب كثراً من الحوادث والتطورات السياسية التي تعاقبت في عصره، وأن يجل من هذا الدرس مادة لتأملاته عن الدولة والأمىر ، كما جعل ابن خلدون من الحوادث التي عاصرها و اشترك فها مادة لدرسه وتأملاته. على أن المفكر المسلم أغزر مادة وأوسع آفاقا من المفكر الإيطالي بـ ذاك أن ابن خلدون يتخذ من المحتمع كله وما يعرض فيه من الظواهر مادة لدرسه ، ومحاول أن يفهم هذه الظواهر وأن يعللها على ضوء

التاريخ ، وأن يرتب على سرها وتفاعلها قوانيز اجماعية عامة . ولكن مكياڤيللي يدرس الدولة فقط ، أو يدرس أنواعاً معينة من الدول هي التي يُعرضها التاريخ اليوناني والروماني القدم . وتاربخ إيطاليا في عصره؛ ويدرس شخصية الأمر أو المتغلب الذي عكم الدولة ، وما يلحق مها من الخلال الحسنة أو السيئة ، وما يعرض لها من وسائل الحكم . وهذه الدراسة المحدودة المدى تكون جزءاً صغيراً فقط من دراسة ابن خلدون الشاسعة ، هو الفصل الثالث من الكتاب الأول من المقدمة ، وهوالذي يدرس فيه أحوال الدول العامة والملك والمراتبالسلطانية . وحتى في هذا المدى المحدود يتفوق ابنخلدون علىمكياڤيللى تفوقاً عظما ؛ ويبتدع هنا نظرية العصبية ، ونظرية أعمار الدول ، ويتناول خواص الدولة من الناحية الا جمَّاعية ؛ وإن كان مكياڤيللي من جهة أخرى يتفوق على ابن خلدون في سلاسة المنطق، ودقة العرض والتدليل، ورواء الأسلوب. كتب مكياڤيللي كتابه و الأمبر، سنة ١٥١٣ وأهداه إلى لورنزو دى مديتشي (الثاني) أمر فرنتزا ، وهو يشر إلى غرضه من وضع كتابه في قوله للأمبر في خطاب الإهداء : وومع أنى أعتبر هذا المؤلف غير خليق بمطالعة محياك ، فإنى أعتمد جل الاعتماد على عطفك ورقتك في قبوله ، فلست أستطيع في إهدائك خبراً من أن أقدم إليك فرصة لتفهم فى أقصر الأوقات كل ماعرفته خلال أعوام طويلة، وفى غار منالمتاعب والأخطار، وفي قوله: ٩ فتناول ياذا الفخامة هذه الهدية الصغبرة بنفس الروح الذي أرسلها به ؛ وإناث إذا قرأته بإمعان وتأمل ، فسوف تعرف

خالص رغبي في أن تظفر سهذه العظمة التي عني سها حسن الطالع وتمني ما خلالك، (١). وإذن فقد أراد مكياڤيللي أن يقدم بكتابه ، الأمر، مرشداً لأمراء عصره ، يرشدهم إلى أمثل طرق الحكم ، وأمثل الوسائل لسيادة الشعوب التي مجكمونها . ومكياڤيللي يستمد آراءه ونظرياته من حوادث التاريخ القدم ، وبالأخص منحوادث عصره التي شهدها وخيرها ، ويرتب علمها أحكاماً وقواعد عامة كما يرتب ابن خالمون مثل هذه الأحكام والقواعد على دراسته للمجتمع ؛ ويبسط مكيائيللي دراسته في محوث موجزة ، ويبدأ بالحديث عن أنواع الإمارات ، ووسائل اكتسامها ، وعن الوسائل التي تحكم مها المدن أوالإمارات التي كانت تعيش في ظل قوانيمًا قبل أن تغلب ، وعن الإمارات التي تقوم بالفتح وكفابات الأمير الشخصية ، وعن تلك التي تغنم على يد آخرين أو بطريق الحظ ، أو تلك الى تغنم بالغدر والحيانة ، وعن الإمارات المدنية والدينية ، وعن أنواع الحيوش والحنود المرتزقة ، وما مجب أن يعرفه الأمر عن فن الحرب . ثم يتناول بعد ذلك شخصية الأمىر، وما محمد فيه من الخلال وما يذم ، وعن الكرم والشح ، والرأفة والقسوة ، وعن الطريقة التي بجب أن محفظ سها الأمراء وعودهم ، وعما مجب علمهم لتجنب بغض الشعب واحتقاره ، وما مجب علمهم لاكتساب الشهرة والمحد ، وأخبر أ يتحدث عن حُبجاب الأمبر ( أمنائه ) وعن وجوب تجنب الملق ؛ وعن الأسباب التي فقد مها أمراء إيطاليا

<sup>(</sup>١) كتاب الأمير The Prince الترجمة الإنجليزية طبعة إفريمان ص ٢ و٣ .

دولم ، وعما يمكن أن يوديه حسن الطالع فى سير الشئون البشرية ، ثم يختم بالحث على تحرير إيطاليا من نير الأجانب أو غزوات البرابرة كما يسمهم .

تلكهي المباحث التي جعلها مكياڤيللي قوام فاسفته عن الدولة والأمر. ويبدو بالأخص مماكتبه عن ﴿ الأمر ﴾ أنه يعالج موضوعاً عالحه المفكرون المسلمون قبل ابنخلنون بعصور طويلة، هو موضوع والسياسة الملكية ، وهو موضوع ينتظم منذ القرن الثالث المجرى فى التفكير الإسلامي إلى بحث أو علم خاص ، هو علم السياسة على نحو ما بينا فى فصل سابق . وقد رأينا ثما تقدم أن ( السياسة ) كانت تفهم عند العرب في العصور الأولى عمني ضيق جداً هو شرح الخلال الحسنة التي مجب أن يتصف مها الأمر . والعيوب الى مجب أن يرأ منها لكى يصلح لرآسة الدولة وتبوىء الملك ، ولكى يستطيع الحكم بأهلية وكفاية . ثم توسع المفكرون المسلمون في فهم معنى ﴿ السياسة ﴾ وقسموها إلى عدة أنواع ، وتناولوا و السياسة الملكية ، من الناحية الفقهية وكذامن الناحية الإدارية ، ومحثوا مركز الأمر من الناحية الشرعية ، وتحدثوا عن الحطط السلطانية ، وظاهر أن ما يتناوله المفكر الإيطالى منخواص الأمر وخلاله وواجباته هو ضرب مما تناوله المفكرون المسلمون منذ أو اخر القرن الثالث الهجري. من ذلك ماكتبه ابن قتيبة في كتاب و عيون الأخبار، والماوردي في كتاب الأحكام السلطانية ، والطرطوشي في كتاب «سراج الملوك» والغزالى في كتاب « التبر المسبوك » ثم ابن الطقطتي في كتاب « الآداب السلطانية » .

و هو موضوع تناوله ابنخلدون فيما تناول منآحوال الدول العامة والملك، إذ يتحدث هنا عن حقيقة الملك وأصنافه ، وعن معنى الحلافة والإمامة وعن مختلف المذاهب والآراء في حكم الإمامة ، ثم عن الخطط السلطانية(١). وحديثه في ذلك عتاز عن حديث أسلافه عا يتخلل محثه و تدليله من الملاحظات والتأملات الاجتماعية التي لم يوفق إلها باحث قبله . على أن مكياڤيللي عتاز في محثه بروح عملية جانة . وبينها يتحدث المفكرون السلمون عن الأمر أوالحاكم كما مجب أن يكون ، وعن خلاله المثلى كما مجب أن تكون ، إذا بالمفكر الإيطالي ينظر إلى الأمير الأمثل نظرة عملية محضة . فيصفه كما هو فى الواقع ، ويتصور خلاله المثلى فيما هو حادث بالفعل ، ويرتب تدليله ونتائجه على ما أحرز الأمر وأحرزت خلاله من النجاحأوالفشل دون تأثر بما إذاكانت هذه الصور والحلال تتفق مع مبادئ الأخلاق المثلى كما فهمتخلال العصور. ومن هنا تستمد فلسفة مكياڤيللي لونها القائم، وتوصيم آراؤه ونظرياته السياسية بتلك الصرامة والقسوة والخبث التي جعلتها حتى عصرنا مضرب الأمثال للسياسة الغادرة التي لاضمىر لها ولا وازع ، والتي جردت من كل نزاهة وعفة ، وتغاضت عن كل المثل الإنسانية والأخلاقية . وإلى القارئ بعض نماذج من تلك الآراء التي طبعت فلسفة مكياڤيللي ، وأمره الأمثل ، بذلك الطابع الأسود :

١ ــ د ليس على الأمير أن يجزع لما يناله من لوم على تلك الرذائل

<sup>(</sup>١) راجع القدمة ، ص ١٥٦ و ١٥٨ إل نهاية الباب .

التى لا ممكن دومها إنقاذ الدولة إلا بصعوبة، ذلك أنه إذا محث كل شيء بعناية، ألفينا أن شيئاً يبدو كالفضيلة، إذا اتبع، فإنه يؤدى إلى خرابه (أى الأمر) وألفينا شيئاً آخر يبدو كالرذيلة، إذا اتبع فإنه مع ذلك يؤدى إلى سلامه ورخائه ».

٧ — 8 ليس أكثر تبديداً للمال من الحود والبذخ ، إذ سرعان ما تعجز عن المضى فيهما ، وتغلو إما فقيراً أوعتقراً ، أوتغلو إذا أردت أن بجتب الفقر ، جشعاً كروها . وبجب على الأمير أن يحرص قبل كل شىء على ألا يكون محتمراً أو مكروها . وإذا فعضر أن يشهر الأمير بالضعة التى تثير اللوم دون بغض ، من أن يرخم الإنسان من طريق البحث عن الشهرة بالحرد ، على أن يوصم بالحشع الذي يثير اللوم والبغض » . ٣ — «كان شرّارى بورجيا يعتبر قاسياً ؛ ومع ذلك فإن قسوته أرضت رومانيا (من الولايات البابوية ) ووحدتها وردت إلها السلام والولاء . ولو تأملت ذلك حق التأمل ، لرأيت أنه كان أكثر رحمة من الشعب الفير نتسى الذي أراد أن يتجنب الشهرة بالقسوة ، فترك «بستويا» والولاء ، فليس عليه أن بهم بوصمة القسوة ، لأنه بذلك يكون أكثر رحمة من أولئك الذين يفرطون في استعال الرحة ، فتثور القلاقل ، ويقمها القتل والهب » .

٤ - و وهنا يبدو سؤال : هل خير أن يُحب الإنسان من أن يُرهب أو يرهب من أن يحب ؛ و يكن أن نجيب بأنه من المرغوب أن يكون

الإنسان محبوباً مرهوباً ، واكن مادام اجهاعهما فى شخص واحد غير ممكن ، فإنه لحمر وأكثر سلامة أن يُرهب الإنسان من أن محب ، إذا وجب أن يتصف بإحدى الصفتن ، .

ه ــ « لايستطيع الأمير العاقل ، وليس عليه أن محفظ العهد ، إذا كان مثل هذا الوفاء قد يتقلب ضده ، وإذا لم يبق للأسباب التي حملته على قطمه وجود» .

٣ - و إذاً فليس من الضرورى أن ينصف الأمر بالحلال الحسنة التي ذكرتها، ولكن من الضرورى أن يبلو كأنه يتصف بها .. ولا يستطيع الأمر ، ولاست الأمر الحديد أن يراعى كل الأمور التي يُخدر الناس من أجلها ؛ لأنه كثراً ما يُرغم لكى يحفظ اللواة على أن يتصرف بغير ما يقضى به الإخلاص والصداقة والإنسانية والدين . و إذاً فن الضرورى أن يكون عقله متاهباً ليعمل طبقاً لتقلب الربح و الحظه .

٧ - وقال مشيراً إلى سياسة ملك اسبانيا فرناندو الكاثوليكي ضد المسلمين عقب سقوط غرناطة : يا إنه ينتحل الدين دائماً عدراً للقيام بأعمال عظيمة ؛ وقد ثابر بقسوة صالحة على إخراج المسلمين من مملكته وتطهيرها مهم ، وليس ثمة أبدع من هذا العمل وأندر منه (١٠).

نستطيع من هذه النماذج الموجزة أن نفهم روح الفلسفة المكياڤيللية فى تصوير الدولة والأمبر . وهى فلسفة تقوم على الحقائق العملية ،

 <sup>(</sup>١) راجع الترجمة الإنجليزية لكتاب الأمير The Prince ، ص ١٢٣ و ١٣٠٠ و ١٣٠٣ و ١٣٤ و ١٤٣ و ١٤٤ و ١٧٤ ( الطيمة للشار إليها ) .

وتحتل هذه الحقائق رغم جفائها وروعتها المكان الأول فى بناء الدولة فى سياسة الأمهر . فالنفاق ، والشح والضعة، والتسوة والإرهاب ، والغدر والنكث بالعهد، وإهدار الإخلاص والصداقة والأمانة والدين، وما إلها مما ينافي المثل الفاضلة ، وتأباه الأخلاق والإنسانية ، ليس مما تنكره الفلسفة المكياڤيللية ، ولا مما يشن السياسة التي تقوم عامها ؛ ومن ثم كان الأمر والسياسي الأمثل في نظر مكياڤيللي طغاة لحأوا في تأييد سلطاتهم إلى أروع الوسائل وأشنعها مثل البابا اسكندر السادس ، وابنه شنزارى بورچيا ( دوق ڤالتتينو) (١) . ويتناول مكياڤيللي طرفاً من حياة شنز ارى بورچیا الذی عرفه واتصل به فیرسالة خاصة ، ویبدی إعجابه بتلك الخطط والوسائل اللموية التي ابتدعها ودبرها شنزارى للبطش نخصومه من الأمراء والقادة وقتلهم غدراً وغيلة . ومن ثم كان ذلك الطابع الأسود الذي ما يزال يدمغ والسياسة المكيافيلية ، إلى عصرنا . بيد أنه من الحق أن يقال إن المفكر الإيطالي يبدى في صوغ فلسفته كثيراً من القوة والبراعة وبعد النظر ، وان هذه النظريات والمبادئ التي قد يحكم عايها من الوجهة النظرية الخالصة ، كانت وما زالت على كر العصور قوام السياسات الظافرة ، وما تزال إلى بومنا عنوان السياسة العملية القوية .

<sup>(</sup>۱) البابا اسكندر السادس أواسكندر بورچيا تولى البابوية من سنة ۱۵۹۳ إلى وفاته سنة ۱۵۰۳ ، وابنه شيزارى طاغية رومانيا وبعض الولايات الإيطالية الأخرى ، ولد سنة ۱۶۷۲ وتوفى سنة ۱۵۰۷ بعد خطوب وحوادث عظيمة . واشتهر بالجرأة والغدر والقسوة الوائمة .

#### - Y -

بتناول ابن خلمون كما قدمنا موضوع الدولة والملك بإفاضة، ويبحثه من نواح أوسع وأبعد مدى ، ويتفوق على مكيافيللي تفوقاً عظما في معالحته من الناحية الإجباعية . ويلتني المفكر ان العظمان في مواطن كثيرة . مثال ذلك ما بقوله ابن خلدون في فاتحة مقدمته عن قيمة التاريخ في درس أحوال الأمم ، ثم أقواله عن آثار البطش والسياسة العاسفة في نفوس الشعب ، وعن خلال الأمىر وتطرفه أوتوسطه فيها ، وعن حماية اللولة وأعطيات الحند ، وعن منافسة الأمر للرعية في التجارة والكسب ، وعن تطلع الأمير إلى أموال الناس ، وأثر ذلك في حقد الشعب عليه ، وعن تطرق الحلل إلى الدولة، وامتداد يد الحند إلى أموال الرعية، وكذا مايقواء عن كتبة (أمناء) السلطان(١١)، فهذه كلها نقط أو موضوعات يعالحها مكياڤيللي أويقترب منها ، سواء في كتابه الأمىر أوفي كتابآخر له هو تاريخ فرنتزا (Istorie Fiorentine) تتخلله تأملات فلسفية واجماعية كثيرة (٢) . وقد لايتفق مكياڤيللي مع ابن خلمون في الرأي أو في منحي التفكير دائمًا ، ولكن كثيراً ممايقوله المفكر المسلم يتردد صداه فها بقوله الفكر الإيطالي . فابن خلدون هو محق أستاذ هذه الدراسة السياسية الاجهَّاعية الَّتي تناول مكياڤيللي بعده بنحو قرن بعض نواحيها ، وهو

<sup>(</sup>۱) راجع المقلمة ، ص ۷ و ۱۵۷ ، و ۱۵۸ ، و ۲۳۵ ، و ۲۳۹ ، و ۲۲۸ و ۱۵۱ د ۱۵۱ .

<sup>(</sup>۲) قارن ماكنيه مكيائيللى فى موضوعات مماثلة فى كتاب والأمير» ص ۹۸ و۱۹۰۸ و۱۱۸۸ و۱۲۲ و ۱۲۹ و ۱۸۹ ، و۱۸۳ وغيرها .

بالأخص صاحب الفضل الأول في فهم الظواهر الاجبّاعية ، وفي فهم التاريخ وحوادثه وتعليلها ، وترتيب القوانين الاجباعية علما لهذا الأسلوب العلمي الفائق.

قال العلامة الإجباعي حمبلوثتش : ١ إن فضل السبق يرجم محق إلى العلامة الاجهامي العربي ( ابن خلدون ) فيما يتعلق مهذه النصائح التي أسداها مكياڤيللي بعد ذلك إلى الحكام في كتابه و الأمر ، وحتى في هذه الطريقة الحافة لبحث المسائل، وفي صبغها الوقعية الحشنة، كان من المستطاع أن يكون ابن خلدون نموذجاً للإيطالي البارع الذي لم يعرفه بلا ريب، (١١). وقال استفانو كلوزيو مقارناً الإرخلدون عكياڤيللي: ﴿ إِذَا كَانَ الفَلُورَسِي العظيم (مكياڤيللي) يعلمنا وسائل حكم الناس، فإنه يفعل ذلك كسياسي يعيد النظر ؛ ولكن العلامة التونسي ( ابن خلدون) استطاع أن ينهذ إلى الظواهر الاجياعية كاقتصادي وفيلسوف راسخ، مما محمل محق على أن نرى في أثره من سمو النظر والنزعة التقدية ما لم يعرفه عصره ٤٣٠. وقد تتساءل أخبراً ، هل وقف المفكر الإيطالي على شيء من تراث ابن خلدون واسترشد به ، أم وقف على شيء من آثار المفكرين المسلمن فى موضوع السياسة الملكية وانتفع جا ؟ نعتقد مع العلامة حبلوقتش أن مكياليللي لم يعرف حن كتابة ﴿ الأمرِ ﴿ شَيْئًا عَنِ ابْنِ خَلِدُونَ أُو عَنِ آثاره ، ولم يعرف من جهة أخرى شيئاً من آثار الفكرين المسلمين في

<sup>·</sup> Gumplowicz : Aperçus sociologiques (p. 217).

<sup>(1)</sup> Colosio : Introduction à l'étude d'Ibn Khaldoun (ibid). (Y)

موضوعه . صحيح أن بعض نواحي التفكير الإسلامي كانت معروفة في إيطاليا قبل مكياثيالي وفي عصره ؛ وكانت ثمة علائق فكرية قدممة بن مسلمي الأندلس وشمال إفريقية ، وبين المحتمعات الفكرية في إيطاليا، وكانت آثار إسلامية كثيرة قد ترحمت يومئذ إلىاللاتينية . ولكنا لانلمح فى أثر مكياڤيللى شيئاً يدل على أنه عرف ابن خلدون أو أىمفكر مسلم نى موضوع. . وإذا كانت ثمة وجوه شبه كثيرة بين المفكرين منحيث فهم التاريخ وتحليله ، واستقراء الحوادث ، وترتيب القوانين الإجمَّاعية فذلك يرجع كما قدمنا إلى تقارب عظم بين الذهنين ، وإلى تماثل في العصر والظروف التي عاش فهاكل منهما ، وإلى تماثل في الحبرة السياسية التي اكتسها كل منهما ، نخوض حوادث عصره والاتصال بأمرائه وساسته . وربما يكون مكيافيللي قد عرفشيئاً عن ابنخلدون ومقدمته في أواخر حياته بعد أن وضع كتابه ﴿ الأمر ﴾ بنحو عشرة أعوام ، أعنى حوالي سنة ١٥٢٣ أو ١٥٢٤ ؛ فني ذلك الحين كان الكاتب الأندلسي المتنصر ، الحسن بن محمد الوزان الفاسي الغرناطي المعروف باسم ليون الإفريق Léo Africanus يقم في رومة ويتجول في شمال إيطاليا . وهو غرناطی ولد حوالی سنة ۱٤٨٨ م ، ونشأ فی فاس ودرس بها ، وقام فى فتوته ببعض رحلات فى أنحاء المغرب والمالك السوداء المجاورة ، وقام ببعض المهام السياسية لبلاط فاس ؛ ثم رحل إلى المشرق ، وزار مصر وقسطنطينية . وعند عودته من رحلته الثانية إلى وطنه في سنة ١٥٢٠م ، أسرته في البحر عصابة من القراصنة الصقليين، وحملته إلى رومة ، وأهدته إلى البابا ليون العاشر ، ونصر باسم « يوهانس ليو، أو يوحني الأسد . وفيرومة انقطع للبحث والتأليف ، ووضع كتابه الشهير في وصف إفريقية » ثم ترجمه إلى الإيطالية؛ ووضع قاموساً للكلمات العربية واللاتينية والعبرية ، مازالت توجد نسخته الأصلية نخطه محفوظة ممكتبة الإسكوريال . ويقول لنا ليون في عبارة عربية غنتم بها قاموسه ، إنه أتمه في يناير سنة ١٥٧٤ عدينة بولونيا في شمالي إيطاليا على مقربة من فىرنتز (١٧). أما معجمه الحغراني فقد أتمه برومة حسيما يقرر لنا في خاتمته في شهر مارس سنة١٥٦٦ . ومن الممكن بل لعله من المرجح أن يكون ابن الوز ان قد التتي تمكياڤيللي و عرفه في رومة باعتباره من أعلامالتفكىر والكتابة يومثذ . وكان مكياڤيللي بالفعل في رومة سنة ١٥٢٥ ، قصدها لىرفع كتابه « تاريخ فىر نتز ا » إلى صديقه وحامية البابا كلنمضوس السابع (چولیانو دی مدیتشی) . ولو صح هذا اللقاء والتعارف لکان ثمة مجال للقول بأن مكياڤيللي قد وقف على شيء من آثار التفكير الإسلامياليم. لابد أن يكون ابن الوزان قد أذاعها وتحدث عنها بن أصدقائه الإيطالين؟ ومن المرجع أن يكون ابن خلدون في مقدمة المفكرين المسلمين الذين يشملهم مثل هذا الحديث ، لاسها وقد كان صيته ما يزال قوياً ذائماً في إفريقية والمغرب حيث نشأ ابن الوزان ودرس . على أنه مهماكان من شأن هذه الفروض ، فلسنا نستطيع أن نقول إن مكياڤيللي قد انتفع في

<sup>(</sup>١) راجع مدم المكتبة العربية الإسانية في الإسكوريال ففيه تنتل هذه الخاتمة . (١) Casiri : Bibliotheca Arabico-Hispana Escurialensis I, (p. 172).

صوغ فلسنته السياسية ، والاجهاعية بشيء من آثار التفكير الإسلامى ؟ ولسنا نلمح في كتابه أثراً لهذا التفكير . ومكيافيللى ذهن مبتدع مبتكر بلاريب ، كاكان ابن خللون ذهناً مبتكراً مبتدعاً ، وقد شق كلا المفكرين العظيمين طريقه لنفسه . وألم وحي نفسه ؛ وكان كتاب والأمير ، فتحاً عظياً في تفكير عصر والإحياء ، الأوربي (الرينصانص ) ، كما كانت مقدمة ابن خلدون فتحاً عظها في الفكر الإسلامي .

## الملحق الأول

### بيان فهرسي عن كتاب العبر

ظهور القطع الأولى من مؤلف ابن خلمون . نشر المقدمة فى باريس ومصر . إخراج مطبعة بولاق المؤلف كله . صيغة الإهداء فى النسخة المتداولة ومدلولها . ما ترجم من أثر ابن خلدون إلى مختلف اللفات . ما يوجد من مخطوطات أثره .

#### -1-

لبث تراث ابن خلدون رغم أهميته ونفاسته حتى منتصف القرن الماضي عتجباً ، بعيداً عن التداول العام إلا فقرات ومقطفات صغيرة من مقدمته وتاريخه تنشر ترحمها من وقت لآخر . وفي ذلك الحن بدأت العناية بنشر آثاره ؟ فنشرت المقدمة ، ونشرت قطع عتلفة من تاريخه . وظهرت أول قطعة كبيرة من آثاره بباريس صنة ١٨٤١ حيث نشر المستشرق نويل دى قرحيه مقتطفات من «كتاب العبر » تتضمن تاريخ في الأغلب ودولة الإسلام في صقاية مع ترجمة فرنسية بعنوان Histoire بعنوان المحاددة والمحمد المحمدة المحمدة المحمدة المحمدة المحمدة في باريس في ثلاث عملدات ، أصدرها المستشرق كاترمير عن نسخة مخطوطة بالمكتبة الملكية ، ضمن المجموعة المساة ومذكرات ومقتطفات من المحمدة والمحمدة والمخموعة المحمدة المحمدة المحمدة المحمدة المحمدة المحمدة المحمدة المحمدة عطوطة عطوطة عطوطات مكتبة الملكية ، ضمن المجموعة المساة ومذكرات ومقتطفات من المحمدة وهي تشمل ضمن هذه المحموعة ، المحلدات المحمدة المحموعة ، المحلدات المحموعة ، المحلدات المحموعة ، الحلدات

السادس عشر إلى النامن عشر . وفي نفس ذلك التاريخ نشرت المقدمة عصر لأول مرة ( سنة ١٢٧٤هـ ١٨٥٨م ) بعنايد الشيخ نصر الهوريني عن نسخة نخطوطة أخرى ، تنضمن بالديباجة فقرة إهداء المؤلف لم ترد بنسخة باريس . ونشرت المقلمة في بىروتسنة ١٨٧٩، ثم نشرت بعد ذلك مراراً. وعنيت طبعة بولاق بإخراج أثر ابن خلدون (كتاب العس كله ، فظهر تباعاً في سبعة مجلدات كبيرة ، وثم طبعه سنة ١٢٨٤ هـ ( ١٨٦٨ م) واعتمد في إخراجه علىعدة نسخ مخطوطة كلها ناقصة(١), ولكما تكمل بعضها بعضاً ، ونقلت المقدمة عن نفس النسخة المحطوطة التي نقلت عنها طبعة سنة ١٢٧٤هـ ، فجاءت متضمنة فقرة الإهداء المشار إلىها . ولهذه الفقرة أهمية خاصة في التعريف عن تاريخ النسخة التي تضمنها وعن قيمتها ؛ ففها يتقدم المؤلف بإهداء هذه النسخة من كتابه إلى خزانة ومولاه السلطان أبو فارس عبد العزيز بن أبي الحسن من بي مرين ، ويقول إنه ، بعثها إلى خزانهم الموفقة لطلبة العام بجامع القرويين من مدينة فاسحضرة ملكهم». والسلطانعبد العزيز المذكور هو ابن أبي العباس ابن ألى سلم بن السلطان ألى الحسن ؛ تولى عرش المغرب الأقصى سنة ٧٩٦ هـ ، وتوفى فى صفر سنة ٧٩٩ هـ . وإذاً فقد وقع إهداء ابنخلدون كتابه للسلطان عبد العزيز في هذه الفترة ٧٩٦ ــ ٧٩٩ هـ . وقد انهي

 <sup>(</sup>١) يوجد من هذه النسخ الناقصة بدار الكتب اثنتان ، وتوجد أيضاً بها مجلدات غطوطة متغرقة من كتاب العبر . وتحفظ هذه النسخ بالأرقام الآتية : ١٨٥٥م تاريخ ،
 و١٥٥ م تاريخ ، و١٦٥ م تاريخ ، و١١ ش .

البحث الحديث بأن وقف على مجلدين من هذه النسخة التي بعثها المرخلدون إلى فاس لازالا ممكتبة جامع القرويين؛ عثر سهما الأستاذ ألفرد بل B.1 وذكرهما ضمن الفهرس الذي وضعه لمكتبة جامع القرويين ، وأشار إلى أن أحدهما محمل صيغة الرقف(١) . وقد عاد الأستاذ ليور برو فنسال فأيد صحة هذا الأكتشاف ، ونشم عنه محثاً في المحلة الأسبوبة مشفوعاً بصورة فتوغرافية لصيغة الوقف المرقومة على غلاف أحد المحلدين ؛ والمحلدان هما الثالث والحامس (مما يقابل نسخة بولاق تقرباً) . والحامس محمل صيغة الوقف ، وتاريخ هذا الوقف هو ٢١ صفر سنة ٧٩٩ ه . وفي نهاية هذا المحلد إشارة من الناسخ تفيد أنه • نقل من الأصل المعتمد لمؤلفه، <sup>(۲)</sup> و المحلدان المشار إلهما من كتاب و العبر، ما زالا محفظان حيى اليوم نخزانة (مكتبة) جامع القروين الكبرى ، وقد أطلعنا علمهما غير مرة خلال زياراتنا المتكررة لهذه الخزانة الحليلة ، وقرأنا صيغة الوقف المشار إلىها بالمحلد الحامس منهما ممهورة بتوقيع ابن خلدون . وتوقيعات الشهود . وقد نشرنا صورتها في فائحة الكتاب. وقد وقع إهداء ابنخلدون في نفس الوقت الذي أرسل فيه الظاهر برقوق سلطان مصر هديته إلى سلاطن المغرب كأثر الصلات التي عمل ابن خلدون على عقدها بن بلاط القاهرة وقصور المغرب ؛ وأرسل اينخلدون نسخة كتابه هذه

Catalogue des Livres arabes de la Bibliothèque de la (1) Mosquée d'El Quaruiyin à Fez (p. 6.)

J. Asiatique, 1928 (Juillet-Sep. p.p. 163-164). ( Y )

وقه نشرنا صورة فتوغر أنية لصيفة الوقف المشار إليها في فاتِّحة الكتاب .

والحلاصة أن نسخة «كتاب العبر» المتداولة التى أصدرتها مطبعة بولاق عن النسخ الحطية المشار إليها ، هى بالرغم من كثرة أغلاطها للطبعية ، من أتم النسخ التي انتهت إلينا من أثر ابن خلدون،

#### - Y -

بعد أن نشرت مقدمة ابن خلدون فى باريس بعناية العلامة كاترمىر سنة ١٨٥٨ ، جاء البارون دى سلان فترجم المقدمة إلى الفرنسية ،وهو

<sup>(</sup>١) تحفظ هذه النسخة بدار الكتب برقم (١٥ تاريخ م).

العمل الذي كان يعترمه كاترمبر وحالت وفاته دون إيمامه. وظهرت ترحمة دى سلان الفرنسية بين سنى ١٨٦٣ و١٨٦٨ في ثلاثة بجلدات كبرة بعنوان الفرنسية بين سنى ١٨٦٣ و١٨٦٨ في ثلاثة بجلدات كبرة بعنوان Siane Membre de l'institut. واتبع دى سلان في ترحمته ، النص الذي نشره كاترمبر إلا في مواطن قليلة جداً ، قارن فيها المخطوطات المختلفة . وصدر المقدمة بترحمة والتعريف بابن خلدون ، وأكل ترحمته وابن قاضى شهبة ) . ويشكو دى سلان من أسلوب ابن خلدون ، ويقول وابن قاضى شهبة ) . ويشكو دى سلان من أسلوب ابن خلدون ، ويقول إنه ركبك وغامض في أحيان كثيرة ، وإنه يستعمل الفهائر بكثرة تحول أحياناً ومن كثير ؛ ولكنا نعتقد أن ذلك لايرجع دائماً إلى غموض النص غوض كثير ؛ ولكنا نعتقد أن ذلك لايرجع دائماً إلى غموض النص الأحجة ذابها .

كذلك نشر دى سلان قسماكبراً من تاريخ ابن خلدون هو المتعلق بتاريخ الدول الإسلامية بتاريخ الدول الإسلامية بالمغرب ، ( الحزائر سنة ١٨٦٣) ؛ ورجع فى نشر هذا القسم إلى علمة السخ مخطوطة ، واختصر فيه فى بعض المواضع ، وأضاف إليه مقتطفات لمواضع ، وأضاف اليه مقتطفات لمواضع آخرين، ونشر ترحمة فرنسية لهذا القسم فى أربعة مجلدات ظهرت بالحزائر سنة ( ١٨٥٧ – ١٨٥٧ ) بعنوان Histoire des Berbères et المحاملة و Dynasties Musulmanes de l'Afrique Septentrionale.

<sup>(</sup>۱) رأجع ترجبة دى سلان ، ج ١ ص ١١٢ .

وترحت المقلمة إلى الركية منذ أوائل القرن الثامن عشر ، ترحمها المها يمرى زاده المتونى سنة ١٧٤٩م ( ١١٦٢هـ) . وترجمت إلى الفرنسية أجز اء أخرى من التاريخ ، منها قطعة عن تاريخ بني زيان Hist.. de Becou Zayan ، ترحمها دوزى ، وقطعة عن بني الأحمر ملوك غرناطة Hist. des Benou al Ahmar Rois de Grenade ، ترجمها جو دفرى دمومين ، وقد نشرتا في المحلة الأسيوية (Journal Asiatique)؛ وقطعة مطولة أخرى عن ملوك بني عبدالو ادترحها المستشرق بل، وظهرت بالحز اثر في ثلاثة مجلدات بعنو ال Hist. des Beni Abel-Wad Rois de Tlemçen وترحمت قطع إلى الألمانية ، من ذلك ماترحمه تنز لهاوزن عن تاريخ بي عقيل Die Geschichte der Oquiliden-Dynastie. وقصول عن تاريخ احتلال الفرنج لشواطئ سوريا أيام الصليبين بقلم تورنبرج: Geschichte der Franken, welche die Küsten und Grenzlaender .Syriens besetzten وفصول أخرى مختلفة من المقدمة والتاريخ بقلمي فونهامار وفون كريمر وظهرت سنة ١٩٣٧ ترحمة ألمانية لآراء ابن خللون عن الدولة بقلم إدوين روزنتال مقرونة بشروح وتعليقات تحت عنوان Iba Khaldouns Gedanken über den Staat. بالألمانية في سنة ١٩٥٩ عنآراء ابن خلمون عن الحضارة الإنسانية بعنوان: Ibn Khalduns Wissenschaft von der menschlichen Kultur بقلمھ . سيمون H. Simon .

وترحمت قطع من المقلمة إلى الإيطالية إحداها عن الكتابة العربية بقلم لانشى ، وأخرى عن تاريخ صقلية بقلمالعلامة أمارى . وترجم الحزء المتعلق بتاريخ اليمن إلى الإنجليزية بقلم كاسلس كى Ka ، وشذور أخرى بقلم الاستاذ فلنت . وترجمت أيضاً ، من التاريخ والمقدمة ، قطع مختلفة أخرى إلى اللاتينية والإسبانية والروسية .

ثم ظهرت أخيراً ترجمة إنجليزية كاملة المقدمة بعنوان: dimah; An Introduction to History في ثلاثة مجلدات كبيرة بقلم الأستاذ فرانز روزنتال ، ( سنة ١٩٥٨ ) وصدرت عن مؤسسة Bolligen بنيويورك ، ومهد لها المترجم بمقدمة كبيرة ، وزودها بكثير من الهوامش والتعليقات. وقد حاول المترجم فيا يبدو أن تكون ترجمته لفظية مطابقة ، فجاءت لذلك مسهبة مطولة نظرا لما تجشمه من جهد في سيل اخراج المعانى المقصودة ، وتتضمن هذه الترجمة الإنجليزية الفقرات التي سقطت من ترجمة دى سلان الفرنسية .

وظهر فی نفس الوقت الحزء الأول من ترحمة برتغالیة المقلمة بعنوان: Os Prolegomena on filosofia Social بقلم ج ـ خوری ، وصلار فی لیلن سنة ۱۹۵۸ .

#### - " -

وتوجد نسخ مخطوطة من المقدمة فى مكاتب برلين وليدن وظورنس ولننجراد والمتحف البريطانى وميلان وميونيخ وباريس وڤينا . وتوجد نسخ مخطوطة من المؤلف كله أو بعضه بالقاهرة بدار الكتب المصرية ( وما نسختان كاملتان تقريباً وبعض مجلدات مفردة) ومكتبة الأزهر. وفى قسطنطينية فى عمانية وبنى جامع وابراهيم باشا . وفى فاس مخزانة جامع القرويين ، وفى خزانة الرباط . وفى المتحف البريطاني وأكسفورد وتورينو وتبنجن وتونس والحزائر . وتوجد نسخة كاملة من التعريف أو الرحلة بدار الكتب المصرية ( مصطفى باشا ) . وتوجد نسختان أخريان فى استانبول ، وعهما أخرجت الطبعة المحققة من د التعريف بابن خللون ورحلته غرباً وشرقاً ، فى سنة ١٩٥٧ ، وهى التي أشرقا إلها فها تقدم (١) .

<sup>(</sup>١) راجع وصف هذه النسخ الحلية وتواريخ كتابتها في فهارس هذه المكتبات

## الملحق الثانى

# تراجم ابن خلمون بأقلام معاصريه

ترجم لابن خلدون عدة من أكابر المؤرخين والمفكرين المصرين اللين عاصروه وعرفوه، أوعاشوا قريبا من عصره مثل الحافظ ابن حجر العسقلاني وقد ترجمه في كتاب و رفع الإصرعن قضاة مصر»، وحتى الدين المقريزي وقد ترجمه في كتاب و دور العقود الفريدة » الذي لم يصلنا منه سوى قطعة صغيرة ، وأبي المحاسن ابن تغرى بردى وقد ترجمه في كتابه والمضوء اللامع في أعيان القرن التاسع». وقد رأينا أن نقل هنا هذه التراجم ومنها ما هو مخطوط، ويادة في التعريف بابن خلدون ، وبالأثر الذي أحدثته إقامته الطويلة عمر، في تقدير الكتاب المصريين وآرائهم بالنسبة لشخصه وتفكيره.

- 1 -

ترجمة الحافظ ابن حجر

منقولة عن كتاب و رفع الإصر عن قضاة مصر، عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن ابراهيم ابن محمد بن عبد الرحمن بن خلدون الحضرمى ، الإشبيلي الأصل ،

التونسي المولد ، أبو زيد ولى الدين المالكي من الماية التاسعة . ولد فيأول شهر رمضان سنة اثنين وثلاثين وسبعائة ، واشتغل في بلده ، وسمع من الوادى آشي وابن عبد السلام وغيرهما ، وأحذ القرآن عن محمد ابن سعد بن برال ، واعتنى بالأدب وأمور الكتابة والحط ، حتى مهر في حميع ذلك . وولى كتابة العلامة عنصاحب تونس، ثم توجه إلى فاس فی سنة ثلاث وخمسن ، فوقع بن بدی سلطامها ألی عنان ؛ ثم حصلت له نكبة وشدة ، واعتقل نحو عامن ، وولى كتابه السر لأبى سالم والنظر في المظالم ؛ ثم دخل الأندلس وقدم إلى غرناطة في سنة أربع وستين، فتلقاه السلطان ابن الأحمر عند قدومه ونظمه في أهل مجلسه، وأرسله إلى عظم الفرنج بإشبيلية ، فعظمه وأكرمه وحمله ، وقام بالأمر الذي نلب إليه ؛ ثم توجه في سنة ست وستن إلى بجاية ففوض إليه صاحبها تدبير مملكته مدة؛ ثم نزح إلى تلمسان باستدعاء صاحبًا وأقام بوادى العرب ملة ؛ ثم توجه إلى فاس من يسكرة فنهب فى الطريق ، ومات صاحب فاس قبل قدومه ، فأقام مها قدر سنتين. ثم توجه إلى الأندلس ثم رجع إلى تلمسان فأقام مدة أربعة أعوام . ثم ارتحل عبهم في رجب سنة ثمانين إلى تونس ، فأقام مها إلى أن استأذن في الحج فأذن له ، فاجتاز البحر . إلى أن وصل الإسكندرية ، ثم قدم الديار المصرية في سنة أربع وثمانين وسبعاية فى ذى القعدة ، وحج ثم رجع فلازم ألطنبغا الحوبانى ، فاعتنى به إلى أن قرره الملك الظاهر برقوق في قضاء المالكية بالديار المصرية ، فباشرها مباشرة صعبة ، وقلب للناس ظهر المحن، وصار يعزر بالصفع ،

ويسميه الزج، فإذا غضبعلى إنسان قال زجوه فيصفع حتى تحمر رقبته . قرأت مخط البشيشي ، كان فصيحاً، مفوهاً حميل الصورة، حسن العشرة، وخصوصاً إذا كان معزولا، أما إذا ولى فلا يعامل بل ينبغي أن لايرى . وقد ذكره لسان الدين بن الحطيب في تاريخ غرناطة ، ولم يصفه بعلم ، وإنما ذكر له تصانيف في الأدب وشيئاً من نظمه ، ولم يكن بالماهرفيه . وكان يبالغ في كمانه مع أنه كان جيد النقد للشعر. وسئل عنه الركراكي فقال ، عرى عن العلوم الشرعية ، له معرفة بالعلوم العقلية من غبر تقدم فها ، ولكن محاضرته إليها المنهى، وهي أمتع من محاضرة الشيخ شمسالدين الغارى. ولما دخل الديار الصرية تلقاه أهلها وأكرموه، وأكثروا ملازمته والتودد إليه، فلما ولى المنصب تنكر لهم وفتك فى كثير من أعيان الموقعين والشهود . وقيل إن أهل المغرب لما بلغهم أنه ولى القضاء ، عجبوا من ذلك ونسبوا المصريين إلى قلة المعرفة ، حتى أن ابن عرفة قال لما قلم في الحج، كنا نعد خطة القضاء أعظم المناصب ، فلما بلغنا أن ابن خلدون ولى القضاء عددناها بالضد من ذلك . ولما دخل القضاة السلام عليه لم يتم لأحد مهم، واعتذر لمن عاتبه علىذلك . وباشر ابنخلدون بطريقة لم بألفها أهل مصر حتى حصل بينه وبين الركراكي تنافس، وعقد له مجلس، فأظهر ابن خلدون فتوىزعم أنها خط الركراكي تتضمن الحط على برقوق، فتنصل الركراكيمن ذلك ، وتوسل بمن اطلع على الورقة فوجلت مدلسة ، فلما تحقق برقوق ذلك عزله وأعاد ابن خبر وذلك في جمادى الأولى سنة سبع وثمانين ، فكانت ولايته الأولى دون سنتين ؛ واستمر معزولا ثلاثعشرة سنة وثلاثة أشهر، وحجنى سنة تسعو ثمانين، ولازمه

كثير من الناس في هذه البطالة ، وحسن خلقه فها ، ومازح الناس وباسطهم ، وتردد إلى الأكابر وتواضع معهم ، ومع ذلك لم يغير زيه المغربي ، ولم يتزى بزى قضاة هذا البلد . وكان محب المخالفة في كلشيء . ولما مات ناصر الدين التنسي طابه الملك الظاهر ، فوجده توجه إلى الفيوم يسبب بلد القمحية ، وكان له نصيب في تدريسها ، فحضر صحبة البريد ففوض إليه القضاء في خامس عشر شهر رمضان سنة إحدى وثمانمائة ، فياشر على عادته من العسف والجنف ، لكنه استكثر من النواب، والشهود والعقاد، على عكس ماكان منه في الأول، فكثر تالشناءة عليه إلى أن صرف ببعض نوابه ، وهو نور الدين بن الحلال صرفاً قبيحاً ، وذلك في ثانى عشر المحرم سنة ثلاث وثمانمائة ، وطلب إلى الحاجب الكبير ، فأقامه للخصوم وأساء عليه بالقول، وادعوا عليه بأمور كثيرة أكثرها لاحقيقة له ، وحصل له من الإهانة ما لامزيد عليه وعزل . ثم مات ابن الحلال بعد أربعة أشهر في حمادي الأولى ؛ فولى حمال الدين الأقفهسي ، ثم صرف بعد أربعة أشهر أيضاً في رمضان، وأعيد ابن خللون وذلك بعد مجيئه من الفتنة العظمي وخلاصه مُها سالمًا ،وكانوا استصحبوه معهم معزولاً ، فتحيل لما حاصر تيمورلنك دمشق إلى أن حضر مجلسه ، وعرفه بنفسه فأكرمه وقربه، وكان غرضه الاستفسار عن أخبار بلاد المغرب فتمكن منه إلى أن أذن له فى السفر وزوده وأكرمه . فلما وصل أعيد إلى المنصب، فباشره عشرة أشهر، ثم صرف مجال الدين البساطي إلى آخر السنة ؛ ثم أعيد ابنخلدون وسار على عادته ، إلا أنه تبسط

بالسكن على البحر ، وأكثر من سهاع المطربات ومعاشرة الأحداث، وتزوج امرأة لها أخ أمرد ينسب للتخليط، فكثرت الشناعة عليه . هكذا قرأت مخط حمال الدين البشبيشي في كتابه القضاة . قال: وكان مع ذلك أكثر من الازدراء بالناس ، حتى شهد عنده الإستادار الكبر بشهادة فلم تقبل شهادته، مع أنه كان من المتعصبين له ، ولم يشهر عنه في منصبه إلا بالصيانة إلى أن صرف في سابع شهر ربيع الأول سنة ثمانماية ، ثم أعيد في شعبان سنة سبع فباشر في هذه المدة الأخبرة بلمن مفرط وعجز وخور ، فلم يلبث أن عزل فى أواخر ذى القعدة . وقرأت مخط البشييشي أنه كان يوماً بالقرب من الصالحية ، فرأى ابنخلدون وهو يريد التوجه إلى منزله وبعض نوابه أمامه وهو تاجالدين بن الطريف، **غالتفت فرأى البشبيشي فتلا قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهِ يَقُومُ سُوءًا** فلا مرد له، فلما وصل ابنخلدون عاتب ابن الطريف ، فقال لم تلوت هذه الآية ؟ فقال اتفق كذلك ، فقال بل أردت أن البشبيشي يبلغ حمال الدين البساطي . وقرأت بخط الشيخ تني الدين المقريزي في وصف تاريخ ابن خلمون، همقدمته لم يعمل مثالها وإنه لعزيز أن ينال مجتهد منالها ، إذ هي زبدة المعارف والعلوم ، ونتيجة العقول السليمة والفهوم، توقف على كِنه الأشياء ، وتعرف حقيقة الحوادث والأنباء ، وتعبر عن حال الوجود ، وتنيُّ عن أصل كل موجود ، بلفظ أبيي من الدر النظم، وألطف من الماء إذا مربه بالنسم . انتهيكلامه . وما وصفها به فيما يتعلق بالبلاغة والتلاعب بالكلام على الطريقة الحاحظية مسلم له فيه ، وأما ما أطراه به

زيادة على ذلك فليس الأمركا قال إلا في بعض دون بعض ، إلا أن البلاغة تزين بزخرفها حي ترىحسناً ما ليس بالحسن . وقد كان شيخنا الحافظ أبو الحسن بن أبي بكر يبالغ في الغض منه ، فلما سألته عنسبب ذلك ذكر لى أنه بلغه أنه ذكر الحسن بن على رضي الله عنه في تاريخه فقال قتل بسيف جده ؛ ولما نطق شيخنا بهذه اللفظة أردفها بلعن ابن خلدون وسبه وهو يبكى . قلت ولم توجد هذه الكلمة في التاريخ الموجود الآن ، وكان ذكرها في النسخة التي رجع عنها . والعجب أن صاحبنا المقريزى كان يفرط فى تعظيم ابنخالمون لكونه كان يجزم بصحة نسب بني عبيد الذين كانوا خلفاء عصر واشهروا بالفاطمين إلى على ، ويخالف غيره في ذلك ، ويلخع ما نقل عن الأئمة في الطعن في نسبهم ويقول : إنماكتبوا ذلك المحضر مراعاة للخليفة العباسي، وكان صاحبنا ينتمى إلى الفاطمين فأحب ابن خلدون لكونه أثبت نسهم ، وغفل عن مراد ابن خلدون ، فإنه كان لانحرافه عن آل على يثبت نسبة الفاطميين إلهم لما اشتهر من سوء معتقد الفاطمين ، وكون بعضهم نسب إلى الزندةة وأدعى الألوهية كالحاكم، وبعضهم في الغاية منالتعصب لمذهب الروافض حيى قتل في زمانهم حممن أهل السنة، وكانوا يصرحون بسب الصحابة في جوامعهم ومجامعهم فإذا كانوا بهذه الثابة وصحأتهممن آل علىحقيقة، التصق بآ ل على العيب وكان ذلك من أسباب النفرة عهم والله المستعان.

<sup>(</sup>ص ۱۵۸ – ۱۹۱) نسخة دار الكتب.

<sup>(</sup> ص ٢٧٤ ــ ٢٧٨ ) نسخة مكتبة الأزهر .

<sup>(</sup> والنسخة المطبوعة ــ القسم الثانى ــ ص ٣٤٣ ــ ٣٤٨ ) .

#### - Y -

## ترجمة شمس الدين السخاوى

منقولة عن كتاب ﴿ الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع ٩ عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد ابن ابراهيم بن محمد بن عبد الرحمن ولى الدين أبو زيد الحضرمي، من ولد واثل بن حجر، الإشبيلي الأصل التونسي ثم القاهري المالكي، ويعرف بابن خلدون ـــ بفتح المعجمة وآخره نون . ولد فى أول رمضان سنة اثنىن وثلاثين وسبعائة بتونس ، وحفظ القرآن والشاطبيتين ومختصر ابن الحاجب الفرعي والتسهيل في النحو ، وتفقه بأنى عبد الله بن عبد الله الحياني وأبي القاسم محمد بن القصر ، وقرأ عليه التهذيب لأي سعيد البر اذعى وعليه تفقه ، وانتاب مجلس قاضي الحاعة أنى عبد الله محمد بن عبدالسلام واستفاد منه، وعليه وعلى أبي عبد الله الوادياشي ، سمم الحديث، وكتب بخطه أنه سمع صبيح البخارى على أبي البركات البلقيني وبعضه بالإجازة، والموطأ على ابن عبدالسلام وصحيح مسلم على الوادياشي انتهي . وأخذ القراءات السبع إفراداً وجمعاً بل قرأ ختمة أيضا بزاوية يعقوب عن المكتب أبي عبد الله محمد بن سعد بن برال الأنصاري ، وعرض عليه الشاطبيتين والتقصى والعربية عن والده وأبى عبد الله محمد بن العربي الحصائري وأنى عبد الله بن محر ، والمقرى أنى عبد الله محمد بن الشواش الزواوى، وأبي عبد الله بن القصار، ولازم العلاء أبا عبد الله الإشبيلي وانتفع به ، وكذا أخذ عن أنى محمد عبد المهيمن الحضرمى وأنى عبد الله محمد بن ابراهيم الآبلي شيخ المعقول بالمغرب وآخرين . واعتبى بالأدب وأمور الكتابة والخط ، وأخذ ذلك عن أبيه وغره . ومهر في جميعه ، وحفظ المعلقات وحماسة الأعلم ، وشعر حبيب بن أوس ، وقطعة من شعر المتنبي ، وسقط الزند للمعرى ، وتعلق بالحدمة السلطانية ، وولى كتابه العلامة عن صاحب تونس؛ ثم توجه سنة ثلاث وخمسن إلى فاس فوقع بن يدى سلطانها أنى عنان ، ثم امتحن واعتقل نحو عاممن. ثم ولى كتابه السر لأبي سالم أخي أنى عنان وكذا النظر في المظالم ؛ ثم دخل الأندلس فقدم غرناطة فى أوائل ربيع الأول سنة أربع وستنن ، وتلقاه سلطانها ابن الأحمر عند قدومه ونظمه فىأهل مجلسه، وكان رسوله إلى عظيم الفرنج بإشبياية ، فعظمه وأكرمه وحمله وقام بالأمر الذي ندب إليه . ثم توجه في سنة ست وستين إلى بجاية ففوض البه صاحبها تدبير مملكته مدة، ثم نزج إلى تلمسان باستدعاء صاحبها وأقام بوادى العرب مدة ، ثم توجه من يسكرة إلى فاس، فنهب في الطريق ومات صاحبها قبل قدومه، ومع ذلك فأقام بها قدر سنتين ، ثم توجه إلى الأندلس ثم رجع إلى تلمسان فأقام مها أربعة أعوام ، ثم ارتحل في رجب سنة ثمانين إلى تونس فأقام مها من شعبانها إلى أن استأذن في الحج فأذن له فاجتاز البحر إلى الإسكندرية ، تُم قدم الديار المصرية في ذي القعدة سنة أربع وثمانين فحج، ثم عاد إلىها ، وتلقاه أهلها وأكرموه وأكثروا من ملازمته والتردد عليه ، بل تصدر للإقراء مجامع الأزهر مدة ، ولازم هو ألطنبغا الحوبانى فاعتنى

به إلى أن قرره الظاهر برقوق في تدريس القمحية بمصر، ثم في قضاء المالكية بالديار المصرية في حمادي الآخرة سنة ست وثمانين، فتنكر للناس محيث لم يقيم لأحد من القضاة لما دخلوا للسلام عليه مع اعتذاره لمن عتب عليه فى الحملة ، وفتك فى كثير منأعيان الموقعين والشهود ، وصار يعزر بالصفع ويسميه الزج، فإذا غضب على إنسان قال زجوه فيصفع حتى تحمر رقبته ، ويقال إن أهل المغرب لما بلغهم ولايته القضاء تعجبوا ونسبوا المصريين إلى قلة المعرفة محيث قال ابن عرفة كنا نعد خطة القضاء أعظم المناصب فلما ولها هذا عددناها بالضد من ذلك ؛ وعزل ثم أعيد وتكرر له ذلك ، حيى ماتقاضياً فجأة في يوم الأربعاء لأربع بقن من رمضان سنة ثمان عن ست وسبعين سنة ودون شهر ودفن ممقابر الصوفية خارج باب النصر عفا الله عنه . ودخل مع العسكر في أيام انفصاله عن القضاء لقتال تيمور ، فقلمر اجمَّاعه به وخادعه وخلصمته بعد أن أكرمه وزوده ، وكذا حج قبل ذلك في سنة تسع وثمانين وهو أيضاً منفصل عن القضاء، ولازمه كثيرون في بعض عزلاته فحسن خلقه معهم وباسطهم ومازحهم ، وتردد هو للأكابر وتواضع معهم ، ومع ذلك لم يغير زيه المغرنى ولم يلبس زى قضاة هذه البلاد لمحبته المخالفة في كل شيء، واستكثر في بعض مراته من النواب والعقاد والشهود ، عكس ماكان منه في أول ولاياته وكان ذلك أحد ما شنع عليه به ؛ وطلب بعد انفصاله في المحرم سنة ثلاثو ثمانمائة إلى الحاجبالكبير فأقامه للخصوم وأساء عليه القول، وادعوا عليه بأمور كثيرة أكثرها لاحقيقة له وحصل له من الإهانةمالامزيد

عليه . وقد ولى مشيخة البيبرسية وقتاً وكذا تدريس الفقه بقبة الصالح بالبهارستان إلى أن مات ، وتدريس الحديث بالصرغتمشية ، ثم رغب عنه للزين التفهني . وقد ترحمه حماعة فقال الحمال البشييشي إنه في بعض ولاياته تبسط بالسكن على البحر وأكثر من سماع المطربات ومعاشرة الأحداث ، وتزوج امرأة لها أخ أمرد ينسب للتخليط فكثرت الشناعة عليه ، وكان مع ذلك أكثر من الإزدراء بالناس حتى أنه شهد عنده الإستادار الكبر بشهادة، فلم بقبله مع أنه كان من المتعصبين له . قال ولم يشهر عنه في منصبه إلا الصيانة ، وأنه باشر في أواخر مراته بلين مفرط وعجز وخور ، يعني محيث أنه سمع بعض نوابه وهو راكب بين يديه يتلو حنن رؤيته بعض المؤرخين ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهَ بِقُومُ سُوءًا فَلَامُرُدُ لَهُ ﴾ فلم يرد على معاتبته ، وقال له وقد اعتذر النائب له بما لم يقبله منه إنما أردتأن تبلغ ذلك الحال البساطى ؛ قال البشبيشي كان فصيحاً مفوهاً حميل الصورة حسن العشرة إذا كان معزولاً، فأما إذا ولى فلا يعاشر بل ينبغي أن لايري . وقال ابن الحطيب فيما حكاه عنه شيخنا : رجل فاضل جم الفضائل، رفيع القلم ، أصيل المحد، وقور المحلس، عالى الممة، قوى الحَأْشُ ، متقدم في فنون عقلية و نقلية ، متعدد المزايا شديد البحث ، كثير الحفظ صميح التصوير ، بارع الحط ، حسنالعشرة، مفخرة من مفاخر المغرب، وقال هذاكله فى ترحمته وهو ئى حد الكبهولة ، ومع ذلك فلم يصفه فيا قال شيخنا أيضاً بعلم، وإنما ذكر له تصانيف فى الأدب وشيئاً •ن نظمه ، قال شيخنا ولم يكن بالماهر فيه ، وكان يبالغ فى كمّانه مع أنه

كان جيد النقد للشعر ؛ وسئل عنه الركراكي فقال عرى عن العلوم الشرعية له معرفة بالعلوم العقلبة منغير تقدم فها ، ولكن محاضرته إلىها المنتهى وهي أمتم من محاضرة الشمس الغاري. وقال المقريزي في وصف تاریخه: 1 مقدمته لم يعمل مثالها وإنه لعزيز أن ينال مجتهد منالها إذ هي زبدة المعارف والعلوم ، ونتيجة العقول السليمة والفهوم ، توقف على كنه الأشياء، وتعرف حقيقة الحوادث والأنباء، وتعبر عن حال الوجود وتنبئ عن أصل كل موجود ، بلفظ أسيى من الدر النظم وألطف من الماء مر به النسم، . قال شيخنا وما وصفها به فيما يتعلق بالبلاغة والتلاعب بالكلام على الطريقة الحاحظية مسلم فيه ، وأما ما أطراه به زيادة على ذلك فليس الأمركما قال إلا في بعض دون بعض ؛ غير أن البلاغة تزين بزخرفها حتى ترى حسناً ماليس بحسن ؛ قال وقدكان شيخنا الحافظ أبو الحسن يعني الهيثمي يبالغ في الغض منه ، فلم سألته عن سبب ذلك ذكر لى أنه بلغه أنه ذكر الحسن بن على رضي الله عنهما في تاريخه فقال قتل بسيف جده ، ولما نطق شيخنا لهذه اللفظة أردفها بلعن ابن خلدون وسبه وهو يبكى؛ قال شيخنا في رفع الإصر ، ولم توجد هذه الكلمة في التاريخ الموجود الآن ، وكأنه كان ذكرها في النسخة التي رجع عنها ؛ والعجب أن صاحبنا المقريزى كان يفرط فى تعظم ابن خلدون لكونه كان مجزم بصحة نسب بني عبيد الذين كانوا خلفاء بمصر واشتهروا بالفاطمين إلى على، ومخالف غيره في ذلك ، ويدفع ما نقل عن الأئمة من الطعن في نسهم ، ويةول إنماكتبوا ذلك المحضر مراعاة للخليفة العباسي ، وكان صاحبنا ينتمي إلى الفاطميين فأحب ابن خلدون لكونه أثبت نسهم، وغفلعن مراد ابن خلدون فإنه كان لانحرافه عن آل على يثبت نسب الفاطمين إليهم لما اشهر من سوء معتقد الفاطمين ، وكون بعضهم نسب إلى الزندةة و ادعى الإلهية كالحاكم ، وبعضهم فى الغاية من التعصب لمذهب الرفض حتى قتل فى زمانهم حمع من أهل السنة ، وكان يصرح بسب الصحابة في جوامعهم ومجامعهم ، فإذا كانوا بهلمه المثابة وصح أنهم من آل علىحقيقة التصق بآل على العيب، وكان ذلك من أسباب النفرة عنهم . وقال في أنبائه أنه صنف التاريخ الكبير في سبع مجلدات ضخمة ظهرت فيه فضائله، وأبانافيه عن براعته، ولم يكن مطلعاً على الأخبار على جلبتها لاسها أخبار المشرق وهو بن لمن نظر فيكلامه : قال وكان لاينزيا بزى القضاة بل هو مستمر على طريقته في بلاده ي وقال في معجمه اجتمعت به مرارأ وسمعت من فوائله ومن تصانيفه خصوصاً في التاريخ ، وكان لسناً فصيحاً بليغاً حسن الترسل وسط النظم، مع معرفة تامة بالأمور خصوصاً متعلقات المملكة ؛ وكتب لى في استدعاء ، أجزت لهولاء السادة والعاباء القادة أهل الفضل والإجادة حميع ما سألوه من الإجازة ؛ وكذا أثنى عليه الحافظ الأقفهسي في معجم الحال بن ظهرة، وهما ممن أخذ عنه وساق له شعراً ، وقال إنه باشر القضاء خرمة وافرة . وقال العيني ، كان فاضلا صاحب أخبلو ونوادر ومحاضرة حسنة ، وله تاريخ مليح ، وكان يتهم بأمور قبيحة .٥ قال شيخنا كذا قال ، ومن نظمه في قصيدة طويلة جداً :

أسرفن فی هجری وئی تعذیبی 🧪 وأطلن موقف عبرتی ونحیبی وأبين يوم الببن وقفه ساعــة لوداع مشغوف الفواد كئيب لله عهد الظاعنين وغادروا قلبي رهين صبابة ووجيب وعندىله تقريظ فى أحمد بن يوسف بن محمد الشبر جي، وكذا الزول الغيث لابن اللماميني ؛ وحكى لنا شيخنا الرشيدى من أخباره حملة ، وهو وغيره من شيوخنا ممن روى لنا عنه ، وترحمه ابن عمار أحد من أخذ عنه بقوله ، الأستاذ المنوه بلسان سيفالمحاضرة ، وسحبان أدب المحاضرة، كان يسلك في إقرائه الأصول مسلك الأقدمن كالإمام الغزالى والفخر الرازى ، مع الغض والإنكارعلى الطريقة المتأخرة ، التي أحدثها طلبة العجم ومن تبعهم فى توغل المشاحة اللفظية ، والتسلسل فى الحدية والرسمية اللذين أثارهما العضد وأتباعه فى الحواشى عليه ، وينهر الناقل غُضون إقرائه عن شيء من هذه الكتب ، مستنداً إلى أن طريقة الأقدمين من العربوالعجم وكتبهم فى هذا الفن على خلاف ذلك ، وأن اختصار الكتب فى كل فن والتعبد بالألفاظ على طريقة العضد وغيره ، من محدثات المتأخرين ، والعلم وراء ذلك كله ، وكان كثيراً ،ا يرتاح في النقول لفن أصول الفقه خصوصاً عن الحنفية كالنزدوى والحبازى ، وصاحب المنار ، ويقدم البديع لابن الساعاتى على مختصر ابن الحاجب قائلًا إنه أقعد وأعرف بالفن منه ، وزاعماً أن ابن الحاجب لم يأخذه عن شُبِيخ وإنَّمَا أَخَذَه بالقول ، قال وهذا فيه نظر . وله من المؤلفات غبر الإنشاءات النَّرية والشعرية الَّى هي كالسحر ، التاريخ العظيم المرجم بالعبر في تاريخ الملوك والأمم والبربر . حوت مقدمته حميع العلوم وجلت عن عجبها ألسنة الفصحاء فلا تروح ولا تحوم ؛ ولعمرى إن هو الإمن المصنفات التي سارت ألقابها بحلاف مضموبها كالأغانى للأصهانى ساه الأغانى وفيه من كل شيء ، والتاريخ للخطيب ساه تاريخ بغداد وهو تاريخ العالم ، وحلية الأولياء لأبى نعيم ساه حلية الأولياء وفيه أشياء مة كثيرة ، وكان الإمام أبو عبان الصابونى يقول كل بيت فيه الحلية لايدخله الشيطان ، وطول المقريزى في عقوده ترحمته جداً ، وهو كما قدمت من يبالغ في إطرائه ومدحه عفا الله عبهما .

(ج ٤ ص ١٤٥ – ١٤٩ طبع القاهرة ) .

\_ T \_

# ترجمة أبى المحاسن بن تغرى بردى مقولة عن كتاب و المنهل الصافى و

عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن ابراهم بن محمد بن عبد الرحمن ، قاضى الفضاة ولى الدين أبو زيد الحضرى الإشبيل المعروف بابن خلدون .

مولده فى يوم الأربعاء أول شهر رمضان سنة اثنتن وثلاثين ومبعاتة ( ممدينة تونس ببلاد المغربونشأ بها ) ، وحفظ القرآن العزيز ، وقرأه على الأستاذ أبى عبد الله محمد بن سعد بن برال الأنصارى بالقراءات السبع إفراداً وحماً فى إحدى وعشرين ختمة ، ثم حمها فى ختمة واحدة ، ثم قرأ ختمة بزاوية يعقوب حماً بين الروايتين عنه، وعرض عليه قصيدتى الشاطبي اللامية والرائية ، وكتاب النفطىلأحاديث الموطأ لابن عبد المر ، وكتاب التسهيل في النحو لابن مالك ، ومختصر ابن الحاجب الفقهي . وأخذ العربية عن أبيه وأنى عبد الله محمد بن الشواش الزرزالي ، وأبي العباس أحمد بن القصار وأنى عبد الله محمد بن محر . ولازم مجلسه ، وأشار عليه محفظ الشعر ، فحفظ المعلقات وحماسة الأعلم وشعر حبيب ابن أوس وقطعة من شعر المتنبي ، وكتاب سقط الزند لأنى العلاء المعرى . وسمع صحيح مسلم بتونس إلا فوتاً يسرِ أ من كتاب الصيد ، وسمم موطأ مالك على أنى عبد الله بن جابر بن سلطان القيسي الوادياشي ، وأجازه إجازة عامة. وأخذ الفقه بتونس عن أبي عبد الله محمد بن عبد الله الحياني، وأبى القاسم محمد بن القصير ، وقرأ عليه كتاب المهذيب لأبى سعيد البراذعي وعليه تفقه ــ وانتاب مجلس قاضي الحاعة أبي عبد الله محمد ابن عبد السلام وأفادمنه وسمع عليه ، وأخذ عن أبي عبد الله محمد ابن سلبمان البسطى وأبي محمد عبد المهيمن الحضرى وأبي العباس أحمد الزواوى ، وأفاد من القاسم عبد الله بن يوسف الماتي وجماعة أخر . واستمر بالمغرب إلى أن كان طاعون الحارف سنة تسع وأربعن وسبعائة ــ ومات أبواه ، فاستلحاه أبو محمد بن تافراكين المستبد إذ ذاك بتونس إلى كتابه العلامة عن سلطانه أبى إسحاق إبراهم بن السلطان ألى بكر خامس الملوك الحفصين بتونس ، فكتب العلامة عن السلطان وهي : الحمد لله والشكر لله ، بقلم غليظ .

ثم انصرف عن تونس عام ثلاث وخمسن ، وقدم على أبى عنان

فارس بن على بن عثمان فنالته السعادة عنده وعظم ، ثم حصل له محتة عنده وعظم ، ثم حصل له محتة عند موت فارس المذكور . ولحق بالسلطان أبي سللم، فلما غلب على الملك رعى له السابقة ، وولاه كتابة الإنشاء . فصلو عنه أكثرها بالكلام للمرسل الذي كان انفر دبه، حاكى فياطريقة عبد الحميد بن مجيى الكاتب . ثم تنقل عنه عند عدة ملوك إلى أن خرج عن تونس متصف شعبان سنة أربع وثمانين فوصل ثغر الإسكندرية يوم عبد الفطر .

ودخل القاهرة فى عشر ذى القعدة من السنة ، واستوطن القاهرة وتصدر للإقراء بجامع الأزهر مدة وأشغل وأفاد .

ثم صحب الأمير علاء الدين ألطنبغا الحوياني فأوصله إلى الملك الظاهر برقوق ، فولاه تدريس المدرسة القمحية ، مجوار جامع عمرو بن العاص رضى الله عنه . ثم ولاه الملكالظاهر برقوق قضاء القضاة المالكية بديار مصر في يوم الاثنن تاسع عشر حادى الآخرة سنة ست و ثمانين وسبعائة ، فاشر عرمة وافرة وعظمة زائدة وحملت سيرته ، ودفع رسائل أكابر المدولة وشفاعات الأعيان ، فأخلوا في التبكلم في أهره ، ولازالوا بالسلطان حتى عزله في يوم السبت سابع حادى الأولى سنة سبع و ثمانين وسبعائة بقاضي القضاة حال الدين عبد الرحمن بن خير ، فلزم الملكور وسبعائة بقاضي القضاة حال الدين عبد الرحمن بن خير ، فلزم الملكور شهر رمضان سنة إحدى و ثماناتة ؛ واتفق بعد توليته عمدة يسيرة موت الملك الظاهر برقوق في شوال من السنة ، فصرف أيضاً في يوم الحميس المعيس الملك الملك الخاهر برقوق في شوال من السنة ، فصرف أيضاً في يوم الحميس المنات ثاني عشر الحرم من سنة ثلاث و ثمانمائة .

وخرج معالسلطان الملك الناصر فرج إلىالبلاد الشامية لقنال تيمورلنك

يطالا ، إلى أن ملك تبمور دمشق وحاط مها ، نزل اليه المذكور من سور دمشق تحبل . وخالط عساكر تيمور وطلب مهم ( أن ) يوصلوه تيمور فساروا به إليه، فأمر بإحضاره فحضر، فأعجبه حسنهيئته وحمال صورته ، وكلمه بعذوبة منطقه ودهاه بكثرة مقالاته بإطرائه ، فأجلسه واستدناه ، وشكر له سعيه ، وحظى عنده ، إلى أن أطلقه وزوده . وعاد إلى القاهرة بعد عود تيمور خزاه اقد إلى بلاده .

ولما وصل إلى القاهرة سعى ، فولى القضاء مرة ثالثة فى يوم السبت ثالث شهر رمضان سنة ثلاث ، واستمر إلى أن عزل فى رابع عشرين شهر رجب سنة أربع وثمانمائة . ثم أعبد فى يوم الحميس لأربع بقين من ذى الحبجة من السنة ، ثم صرف يوم الاثنين سابع شهر ربيع الأول سنة ست ، ثم أعيد فى شعبان سنة سبع وثمانمائة ، تم صرف فى سادس عشرين ذى القعدة منها، ثم أعيد فى شعبان سنة ثمان وثمانمائة فلم تعلل مدته. ومات وهو قاض فجأة ، فى يوم الأربعاء لأربع بقين من شهر رمضان سنة ثمان وثمانمائة ، ودفن ممقابر الصوفية خارج باب النصر رمضان سنة ثمان وثمانمائة ، ودفن ممقابر الصوفية خارج باب النصر

وكان له نظم ونثر من ذلك قصيدة طويلة جداً (مها): أسرفن في هجري وفي تعليبي وأطلن موقف عرني ونحيبي وأبن يوم المين موقف ساعة لوداع مشغوف الفواد كثيب وشعره كله من هذا النمط رحمه الله ، ماكان أحيه في المنصب.

( الورقة ٣٠٠ ــ ٣٠٢ من الحزء الثاني ) .

#### - £ -

### ترجة لسان الدن بن الخطيب

منقولة عن كتاب و الإحاطة في تاريخ غرناطة ،

عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر ابن محمد بن ابراهم بن محمد بن عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي ، من ذرية عُمَّانَ أخى كريب المذكور في نهاء ثوار الأندلس، وينسب سلفهم إلى وائل بن حجر ، وحاله عند القلوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم معروفة . انتقل سلفه من مدينة إشبيلية عن نباهة وتعين وشهرة عند الحادثة مها أو قبل ذلك فاستقر بنونس منهم ثانى المحمدين محمد بن الحسن، وتناسلوا على حشمة وسراوة ورسوم حسنة . وتصرف جد المترجم به فى القيادة . وأما المترجم به ، فهو رجل فاضل ، حسن الحلق ، جم الفضائل ، باهر الحصل، رفيع القلر ، ظاهر الحياء ، أصيل المجلد ، وقور المحلس ، خاصي الزي ، عالى الهمة ، عزوف عن الضم ، صعب المقادة ، قوى الحأش ، طامح الهنن الرباسة ، خاطب للحظ ، متقلم فى فنون عقلية ونقلية ، متعدد المزايا ، سديد البحث كثير الحفظ، صحيح التصور ، بارع الحط ، مغرى بالتجلة ، جواد ، حسن العشرة، مبذول المشاركة ، مقم لرسم التعنز ، عاكفعلي رعى خلال الإصالة، مفخر من مفاخر التخومُ المغربية . قرأ القرآن ببلده على المكتب ابن برال، والعربية على المقرى الزواوى وغره ، وتأدب بأبيه ، وأخذ عن

المحدث أبى عبد الله بن جابر الوادى آشى ، وحضر مجلس القاضي أبى عبد الله بن عبد السلام . وروى عن الحافظ أبى عبد الله البسطى ، والرئيس ابن محمد عبد المهيمن الحضرى ، ولازم العالم الشهير أبا عبدالله الآبلي ، وانتفع به . انصرف من إفريقية منشأة ، بعد أن تعلق بالحدمة السلطانية على الحداثة، وإقامته لرسم العلامة محكم الاستنابة عام ثلاثة وخمسن وسبعاثة، وعرف فضله، وخطبه السلطان منفق سوق العلم والأدب أبو عنان فارس بن على بن عَبَّان ، واستحضره بمجلس المذاكرة ، فعرف حقه ، وأوجب فضله ، واستعمله على الكتابة ، أوائل عام ستة وخمسِن ، ثم عظم عليه حمل الخاصة من طلبة الحضرة ، لبعده عن حسن التأنى ، وشغوفه بثقوب الفهم وجودة الإدراك ، فأغروا به السلطان ، إغراء عضده ماجبل عليه عهدئذ من إغفال التحفظ مما يريب لديه ، فأصابته شدة ، تخلصه منها أجله ، كانت مغربة في جفاء ذلك الملك ، وهمناة جواره ، واحدى العواذل لأولى الهوى فى القول بفضاه ، وعدم الخشوع وإهمال التوسل ، وإبادة المكسوب في سبيل التفقة ، والإرضاخ على زمن المحنة ، وجار المنزل الحشن ، إلى أن أفضى الأمر إلى السعيد ولده ، فأعتبه قم الملك لحيته ، وأعاده إلى رسمه ، ودالت الدولة إلى السلطان أنى سالم ، وكان له به الاتصال قبل تسوغ المحنة بما أكد حظوته ، فقلده ديوان الإنشاء مطلق الحرايات ، محرر السهام ، نبيه الرتبة إلى آخر أيامه . ولما ألقت اللمولة مقادها بعده إلى الوزير عمر بن عبد الله مدبر الأمر ، وله اليه وسيلة ، وفى حيله شركة ، وعنده حق ، رابه تمصره عما ارتمى إليه أمله، فساء مابيهما بما آل إلى انفصاله عن الباب المربى . وورد على الأندلس فى أول ربيع الأول عام أربعة وستين وسعائة ، واهر له السلطان ، وأركب خاصته لتلقيه ، وأكرم وفادته، وخلع عليه ، وأجلسه بمجلسه ، ولم يدخر عنه برا ومواكلة ومراكبة ومطاينة ومفاكهة . وخاطبى لما حل بظاهر الحضرة شحاطبة لم تحضرنى الآن ، فأجبته عما بقولى :

حلات حلول الغيث في البلد المحل على الطائر الميمون والرحب والسهل عيناً عن تعنو الوجوه لوجهه من الشيخ والطفل المهدأ والكهل أقد نشأت عندى القياك غبطة تنسى اغتباطي بالشبية والأهل أقسمت عن حجت قريش لبيته ، وقر صرفت أزمة الأحياء لميته ، ونور ضربت الأمنال عشكاته وزيته ؛ لو خيرت أيها الحبيب الذي زيارته الأمنية السنية ، والعارفة الوارفة ، واللطيفة المطيفة بين رجع الشباب يقطر ماء ، ويرف نماء ، ويغازل عيون الكواكب فضلا عن الكواعب إشارة وإيماء، عيث لا الوخط يلم بسياج لمته ، أويقدح ذبالة في ظلمته ، أويقوم حواريه في ملته من الأحابش وأمته ، وزمانه روح وراح ، ومغدي في النعم ومراح ، وقصف صراح ، ورقى وجراح ، وانحاب واقراح ، وصلور ما بها الا انشراح ، ومسرات تردفها أفراح ، وبن قلومك خليع الرسن ، ممتماً والحمد لله باليقطة والوسن حكماً في نشك الحنيد أوفتك الحسن. ممتماً بظرف المارف ، مالماً أكف الصيارف ، ماحيا بأنوار المراهن شهه الزخارف ، لما اخترت الشباب وإن راقى ماحيا بأنوار المراهن شهه الزخارف ، لما اخترت الشباب وإن راقى

زمنه ، وأعياني ثمنه ، وأجد تسائب دمعى دمنه ، فالحمد لله الذي رقى جنون اغترابي ، وملكني أزمة آرابي ، وغبطتي بمائي وترابي ، ومألف أترابي ، وقد أغصى بالمبلد شرابي ، ووقع على سطوره المعتبرة أضرابي ، وعجلت هذه مغبطة عناخ المطية ، ومنهى الطية ، وملتني السعود غير المطية ، وحهى الآمال الوتيرة الوطية ، فا شئت من نفوس عاطشة إلى ريك ، متجملة بزيك ، عاقلة خطى مهريك ، ومولى مكارمه نشيدة أمثالك ، ومطان مثالك ، وسيصدق الخبر ماهنالك ، ويسع فضل مجدك في التخلف عن الأصحار ، لا بل اللقاء من وراء البحار والسلام . ولما استقر بالحضرة جرت بيني وبينه مكاتبات أقطعها الظرف جانبه ، وأضح الأدب مذاهبه .

(تواليفه) شرح البردة شرحاً بديعاً دل به على انفساح ذرعه وتفنن إدراكه ، وغزارة حفظه . ولحص كثيراً من كتب ابن رشد . وعلق للسلطان أيام نظره فى العقليات تقييداً مفيداً فى المنطق ، ولحص محصل الإمام فخر الدين الرازى ، وألف كتاباً فى الحساب . وشرع فى شرح الرجز الصادر عنى فى أصول الفقه يشىء لاغلية فوقه فى الكمال . ( وأما بغره وسلطانياته السجعية ) فخلج بلاغة ، ورياض فنون ، ومعادن إبداع بفرغ عنها يراعه الحرىء ، شبهة البداءات بالحواتم ، فى نداوة الحروف وقرب العهد بجرية المداد، ونفوذ أمر القرعة ، واسترسال الطبع . ( وأما نظمه ) فهض لهذا العهد قلماً فى ميدان الشعر ، ونقده باعتبار أساليبه ، فاثال عليه جوه ، وهان عليه صعبه ، فأتى منه بكل غريبة ، خاطب

السلطان ملك المغرب ليلة الميلاد الكريم عام اثنين وستين وسبعائة بقصيدة طويلة أولها :

أسرفن فى هجرى وفى تعذيبى وأطلن مرقف عبرتى ونحيبى وهنا يورد ابن الخطيب نص التصيدة ثم يورد مختارات طويلة أخرى من نظم ابن خلدون ثم يستأنف ترحته فها يلى :

وهو الآن محالته الموصوفة من الوجاهة والحظوة ، قد استعمل فى السفارة إلى ملك قشتالة فراقه وعرف حقه ، مولده بتونس بلده فى شهر رمضان عام اثنين وثلاثين وسبعائة .

قال المقرى ، بعد أن أورد هذه الرّحة ( في نفح الطيب) :

هذا كلام لسان الدين فى حتى المذكور ( ابن خلدون ) فى مبادئ أمره وأواسطه ، فكيف لو رأى تاريخه الكبير الذى نقلنا منه فى مواضع ؛ ورأيته بفاس وعليه خطه فى ثمان بجلدات كبار جداً وقد عرف فى آخره بفسه ، وأطال وذكر أنه لما كان بالأندلس ، وحظى عند السلطان أى عبد الله ، شم من وزيره ابن الحطيب رائحة الانقباض ، فقوض الرحال ، ولم يرض من الإقامة عمال ، ولعب بكرته صوالحة الأقدار حتى حل بالقاهرة المعزية ، واتخذها خبر دار ، وتولى بها القضاء وحصلت له أمور رحمه الله تعالى . وكان ، أعنى الرلى ابن خلدون كثير الثناء على لمان اللدين بن الحطيب رحمه الله تعالى . ولقد رأيت نخط العالم الشهر ، لمان المدين بن الحطيب رحمه الله تعالى . ولقد رأيت نخط العالم الشهر ، الشيخ إبراهم المباعوتى الشامى فيا يتعلق بابن خلدون ما نص عمل الحاجة الشيخ إبراهم المباعوتى الشامى فيا يتعلق بابن خلدون ما نص عمل الحاجة منه : تقليت به الأحوال حتى قدم إلى الديار المصرية ، وولى بها قضاء

قضاة المالكية في الدولة الشريفة الظاهرية، وصحبته رحمه الله تعالى في سنة ٨٠٣ عند قلومه إلى الشام صبة الملك الناصر فرج ابن الملك الظاهر برقوق في فتنة تيمورلنك ، وأكرمه تيمورلنك غاية الإكرام وأعاده إلى الديار المصرية ، وكنت أكثر الاجماع به بالقاهرة المحروسة الممودة الحاصلة بيني وبينه ، وكان يكثر من ذكر لسان الدين بن الحطيب ، ويورد من نظمه ونثره ما يشنف به الأسماع ، وينعقد على استحسانه الإمماع ، وتتقاصر عن إدراكه الأطاع ، فرحة الله عليما ، وأزكى تحياته تهدى والتر مايزرى بعقود الحمان ، مع الهمة العلية ، والتبحر في العاوم النقلية والتر مايزرى بعقود الحمان ، مع الهمة العلية ، والتبحر في العاوم النقلية والمقلية، وكانت وفاته بالقاهرة المعزية سنة ١٠٥٧ ، ستى الله تعالى عهده ،

(تراجع الترجمة كاملة في نفح الطيب (بولاق) ج ٤ ص ١١٤-٢٢١) :

## الملحق الثالث

### ثبث المسادر

#### ١ -- المادر العربية

كتاب العر (تاريخ ابن خلدون) ، والمقدمة .

التعريف بأبن خلدون ورحلته غرباً وشرقا ( المخطوط والمطبوع ) ه مقدمة ابن خلدون ، طبعة كاترمر ( باريس سنة ۱۸۵۸ ) .

مقلمة ابن خللون ، (مصرى سنة ١٢٧٤ هـ.

لباب المحصل لابنخلدون ( مخطوط بالإسكوريال وطبع تطوان ) . الحلل المرقومة فى اللمع المنظومة لابنخلدون ( مخطوط خزانة جامع القرويين بفاسى ) .

شفاء السائل لتهذيب المسائل لابن خلدو ن (مخطوط دار الكتب المصور) . بدائع السلك فى طبائع الملك لابن الأزرق ( مخطوط خز انة الرباط). اللمحة البدرية فى تاريخ الدولة النصرية لابن الحطيب .

الإحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب (القاهرة ١٩٥٦).

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرى (طبعة بولاق) .

أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض للمقرى (القاهرة ١٩٣٩) . رفع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر (مخطوط ) . والمطبوع القسم

الثاني ( القاهرة.١٩٦١ ) .

أنباء الغمر بأنباء العمر لابن حجر ( نخطوط) .

المنهل الصافى لابن تغرى بردى ( مخطوط) .

الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع للسخاوى ( نخطوط ومطبوع) . الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ للسخاوى .

الساوك في دول الملوك المقريري ( نخطوط ومطبوع) .

الحطط والآثار للمقريزي .

إغاثة الأمة بكشف الغمة المقريزي.

عجائب المقدور لابن عربشاه .

تاريخ مصر لابن إياس ( بولاق ).

حسن المحاضرة للسيوطي .

الأحكام السلطانية ، وقوانين الوزارة للماوردى .

الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية لابن الطقطتى (جريفز ثالد سنة ١٨٥٨).

سراج الملوك لأبي بكر الطرطوشى وبهامشه التبر المسبوك الغزالى . المهج المسلوك في سياسة الماوك لعبد الرحمن بن محمد .

عيون الأخبار لابن قتيبة .

رسائل إخوان الصفا .

آراء أهل المدينة الفاضلة لأبي نصر الفارابي . صبح الأعشى للقلقشندى .

مصر الإسلامية لمحمد عبد الله عنان

#### ٢ - المادر الغربية

هذا وننشر فيما يلي ثبتاً بأهم المراجع والبحوث النقدية التي ظهرت عن ابن خلدون وتراثه بمختلف اللغات الأوربية : Von Hammer-Purgstall: Ueber den Verfall des Islams nach den ersten drey Jahrhunderlen der Hidschrat (1812).

A. von Kremer: Ibn Chaldun und seine Kulturgeschichte der islamischen Reiche: Wien 1879,

L. Gumplowicz : Ibn Khaldun, ein arabischer Soziologe des 14- Jahrhunderts ; in Soziologische Essays.

T. J. de Boer: Ibn Chaldun! in Geschichte der Philosophie im Islam: Stuttgart 1901. p. 177-84.

Lewine : Ibn Chaldun, ein arabischer Soziologe des XIV. Jahrhunderts. ( يالروسية )

Von Wesendonk: Ibn Khaldun, ein arabischer Kulturhistoriker des 14. Jahrhunderts (Deutsche Rundschau Januar 1923).

Müller: Der Islam: B. II. p. 668 ff.

Brockelmann: Oeschichte der arabischen Literatur; II. p. 243- ff.

Wuestenfeld : Geschichtschreiber der Araber No. 456.

Rosenthal : Ibn Khalduns Gedanken über den Staat; München, 1932-

T- Khemiri: Der Asabija Begriff in der Muquaddima des Ibn Haldun (Hamburg 1936).

Pons Boigues : Historiadores y Qeograficos Arabigo-Espafioles (Madrid 1898).

R. Altamira: Notas Sobre la Doctrina histórica de Abenlaldún (en Homenaje a F. Codera, Zaragoza 1904),

J. Ortega y Gasset : El Espectador (Revista) T. VIII, 1934 (Madrid).

Encyclop. de l'Islam; art : Ibn Khaldoun par Alfred Bel. Biographie Universelle :t.XX. art, ibnKhaldoun par S. de Sacy. Schulz: Ibn Khaldoun; (art. au Journa) Asiatique 1825). Reinaud: Ibn Khaldoun; dans Nouvelle Biographie Générale (1858).

De Slane: Les Prolégomènes d'Ibn Khaldoun.

 Colosio: Contribution à l'étude d'Ibn Khaldoun (Revue du Mode musulman XXVI, 1914).

René Maunier: Les idées économiques d'un philosophe arabe (Revue#d'Histoire économique et sociale, 1912).

R. Maunier: Les idées sociologiques d'un philosophe arabe au XIVème siècle: (L'Egypte contemporaine, 1917, p. 31).

Taha Hussein: La philosophie sociale d'Ibn Khaldoun.

وترحبًا السربية : فلسفه ابن خلدون الاجبَّاعية بقلم محمد عبد ألله عنان .

Oraberg de Hemsoe: Account of the great historical work of the african philosopher Ibn Khaldoun, (Transactions of the A.R.S., 1833).

R. Flint; Historical philosophy. Edinbourgh 1893. p. 157 ff. N. Schmidt: Ibn Khaldoun, Historian, Sociologist and Philosopher, New-York 1930.

A. Toynbee: A Study of History, Vol. III. (Oxford University Press 1956).

Ferreiro: Un sociologo arabo del secolo XIV (La Riforma Sociale anno III Vol. VI. Fasc. 4, 1886).

N. Machiavelli: The Prince-

N. Machiavelli : Florentine History.

Aristotles' :Politics .

Dozy: Recherches sur l'Hist. et la Littérature d'Espagne au moyen-âge.

Casiri : Bibliotheca Arabico-Hispana Escurialensis.

# آراء حول نظرية ابن خلدون التاريخية

بقلم العلامة المؤرخ الإسبانى رافائيل ألتامع ا

Notas Sobre la Doctrina historica de Abenjaldún Por Rafael Altamira (Homenaje a Francisco Codera) (Zaragoza 1904) p. 359 — 374 مترجة عن الإسبانية بقلم مؤلف هذا الكتاب

# آراء حول نظرية ابن خلدون التاريخية

منذ بدأت في أوائل القرن التاسع عشر تظهر في أوربا ، مقتطفات وفصول وتراجم جزئية ، من مقلمة ابن خللون ، شعر المؤرخون باهتمامهم يتجه بقوة نحو هذا المؤلف، الذي اتضح من برنامجه ، والعصر الذي كتب فيه ( علما بأن ابن خللون قد ولد في سنة ١٣٣٧ وتوفي في سنة ١٤٠٦ م) ، أنه من أجل وأهم الآثار ، التي كتبت في الحقل التاريخي في العصر الوسيط . ولقد سهلت الترحمة الكاملة التي قام بها الأستاذ دى سلان ، لسائر المنقفين ، قراءة هذا الةسم الأول من تاريخ ابنخلدون العام . بيد أنه بالرغم من قيدم تاريخ هذه الترجمة (سنة ١٨٦٨ ) ، وبالرغمِمن البحوث الكثيرة الى عالحها المقدمة، فإن أحداً من المستشرقين وعلى العموم ممن يشتغلون بالدراسات التاريخية ، لم يعن بأن يعرض بإبجاز وبطريقة نقدية ، النظرية أو بعبارة أصح النظريات المختلفة (المهجية والاجماعية وغيرها ) التي يضمها هذا المؤلف ، والتي تجعل منه موسوعة حقة من العلوم الاجتماعية . ذلك أن الملاحظات الموجزة التي تحتوبها مقدمة دى سلان ، والتي جاءت في معجم بونس الحاص بالمؤ رخين والحفرافيين الأندلسين، لم تفعل بأكثر من إثارة فضول القارئ ، ورغبته في الوقوف على تحليل نقدى أوسع مدى ، يقوم مقام قراءة المؤلف بطريقة مباشرة، أو يُتخذ مرشداً لها ، والانتفاع بها فها يتعلق بالمسائل المشابحة التي يدور اليوم حولها البحث ،

وانى لأعلم أنه حتى ظهور مقال حملوفتش و علامة اجهاعى عربى فى القرن الرابع عشره ، لم تحظ المقلمة، بدراسة من هذا النوع ، وحتى هذه الدراسة ، التى تنقصها نواح كثيرة ، لاتكاد تعطينا فكرة عن ذلك المزيج الزاخر الذى تحتويه المقلمة .

#### -1-

يجب أن نلاحظ ثلاث نقط جوهرية ، فى نظرية ابن خلدون التاريخية، أولا ، تقديره للتاريخ كعلم، وثانيا فكرته فى محتويات التاريخ ذاتها ، وثالثا فكرته عنالعناصر التى تجتمع لصنع التاريخ البشرى ، وصنع بعض القوانين التى مخضع لها هذا التاريخ. وعلينا أن ندرس على حدة كلا من هذه النقط ، لكى نقدم لأنفسنا، فكرة عن مدى وقيمة هذه النظرية فى ذاتها ، وفى علاقتها بكتابة التاريخ الإسلامى، وبالمسائل التي يبحئها اليوم المهجيون والفلاسفة فى هذا الضرب من المعرفة.

إن حميع النقدة ، يتفقون على أن كتابة التاريخ الإسلامى لها خصائص ونقائص عامة، لانحلو مها أكابر الكتاب، ولكما أكثر ظهوراً في حمهرة زملائهم، وهذا مايلاحظه ابن خلدون ، ويعقد بشأنه المقارنات . ومن ثم فإنه من المهم أن نقرر إلى أى حد يعتبر موالف ابن خلدون متفوقا (أو فقط متمزاً) على مؤلفات أسلافه، وعما إذا كان يحقق أم لا ، تقدما عقربا أو مزة مدهشة بالنسبة لأمته وبالنسبة لمصره

وإذا نحن أصغينا إلى ابن خلدون ، فإنه هو نفسه يقرر بالإمجاب .

وهو يفخر بقوله عن كتابه : « وسلكت في ترتيبه وتبويبه مسلكا غريبا ، واخترعته من بين المناحى مذهبا عجيبا ، وطريقة مبتدعة وأسلوباه (۱) وإنه ليصعب علينا أن تعتقد ذلك على إطلاقه . وإنما تمكن المقارنة الصحيحة ، منى عرفنا حق المعرفة سائر أكابر المؤلفين السابقين على ابن خلدون ، وهم يوضحون مثله مهجهم ، أو بعبارة أخرى يمكن استخلاص ذلك من قراءة مؤلفاتهم بأسرها ، كما محدث غالبا . ولكنى لم أتم يمثل هذا العمل ، ولا أعتقد أن المستشرقين يستطيعون القيام به بالقدر الضرورى ، وذلك لضياع كثير من كتب المؤرخين العرب أو جهلنا الحالى ها .

ومن ثم فإن أى حكم ، سيبقى تمهيديا ، ويبقى عرضة لإعادة النظر . وربما حدث — وتاريخ العلوم ملىء عثل هذه الحالات — أن بعض الموافنين السابقين ، قد تناولوا العناصر ، التى تتكون مها نظرية ابن خلدون بطريقة جزئية ، ومنفردة ، ولم تدون آراؤهم ، أو أنها قد جهلت عاما . ولما كان بالنسبة لنوع المسائل التى يعالحها موافقتا فى المقدمة ، فإنه ليس من المؤكد أن يكون ذلك فقط لدى المؤرخين الذين توجد فى موافاتهم أصول أوفروض تتعلق بنظريته ، وقد كان بوسعه ، فها يتعلق جذا المكتاب ، أن بجعل منه مادة محث المصادر على نمط المهج الذى حققه بدقة مدهشة إزاء كل الكتاب القدامى . وابن خلون يقترب نوعا من هذة الصورة ، ويذكر كا سرى بعض أسلافه فى الطريقة أو فى بعض

<sup>(</sup>١) القدمة س ه .

خصائص الطريقة التاريخية التى يستعملها . وبنى علينا أن نعرف ما إذا كان من بذكرهم ، هم حميع من مجب ذكرهم ، وما إذا كانت أهميتهم تقف عند الحد اللكي يقرره .

ومهما كانت نتيجة هذا البحث ، فإن ابن خلمون يبنى بالنسبة اليه هو الباية النقية ، لصياغة مجموعة من الأفكار ، يلخصها وينظمها ، بقوة عقلية جبارة ، كمخرع عبقرى، يبنى فوق سوابق ضئيلة ، عملا هو في معظمه جديد.

وإن الاهبام بأن نبحث عن سابقة لكل شيء ، بجعلنا نبالغ في قيمة هذه السوابق ، وأن نجولها مهما كانت من القدم ، أو كانت تتعلق بأطوارها حضارة بعيدة عن الحالية ، إلى سابقة تامة للفكرة الحديدة ، ليس فقط في إطارها العام ، بل كذلك في المعني الحقيقي الذي نعطيه لم اليوم ، وتترجم عنه ، متجاهلين بذلك الغروق الشكلية ، بالنسبة لحتلف الأزمنة ، إلى تقدمها إلينا نفس المسائل ، سواء في تنفيدها ، أو في وجهة النظر التي يحسن أن تنسب إليها ، خالطين بذلك بين البداية ، وبن الوجود السابق لنفس الشيء الحالى . وإن الأهمية التاريخية ، والاجماعية إذا أردنا أن تستعمل هذا التعبر - لإعادة صياغة مجموعة من الأفكار ، تجد بالعكس عند تقدير المراحل البدائية ، أنه كانت من الأفكار ، تجد بالعكس عند تقدير المراحل البدائية ، أنه كانت بطريق ملاحظة عارضة ، ثم تقدمت شيئا فشيئاً ، تغذى وتوسع عنوياتها ، بطريق ملاحظات أخرى ممائلة أو مأخوذة ، مغيرة شكلها ، يحيث أنه بطريق ملاحظات أخرى ممائلة أو مأخوذة ، مغيرة شكلها ، يحيث أنه بالرغم من كونها واحدة في الحوهر ، نجد أن ماهيها قد تغيرت إلى حد

كبير ، إذا ما قارنا مرحلتين متباعدتين قليلا من مراحل تطورها . فإنه ولاشك مثلا أنه توجد سوابق واضحة لفكرة ، تاريخ الحضارة ، ولاشك مثلا أنه توجد سوابق واضحة لفكرة ، تاريخ الحضارة المقلبة في الماضي والحاضر ، في علاقها بكل معانى الحضارة العقلبة في المصرين ، تختلف اختلافا غير قليل . وهكذا فإنه بالرغم من أنه توجد في مقدمة ابن خلدون ، كما سرى ، كثير من السوابق لنظريات بحديثة ، فإنه عسن بنا ألا نتعجل في القول بوحدة الإثنين ، قبل أن ننفذ إلى المعنى الذي أسبغه علها المؤلف، و ذاك بالنسبة لمجموع نظريته و متعلقاتها . وتوجد عمد أشياء تبدو لأول و هلة مهائلة ، في صيغها أو في تعريفها الخارجي ، ولكن يتضح بعد ذلك ، أنها قد اشتقت من أصول مختلفة ، فليس من الصعب مثلا أن نجد بعض هذه التنبؤات العلمية في دراسة عبدونة ، وألا نقامر بابتداع المشابهات بين الماضي و الحاضر ، حي نكون بروية ، وألا نقامر بابتداع المشابهات بين الماضي و الحاضر ، حي نكون على يقين من صحبها .

ويرى ابن خلدون أن التاريخ علم فاسنى . ولكى نقدر قيمة هذه التسمية ، محسن بنا أن نذكر مدى تقسيم العلوم الذى يعرضه لنا ابن خلدون فى نفس مقدمته . أما العلوم الفلسفية فهى كل ما ليست له صفة دينية ، وذلك خلافا للعلوم النقلية التى يقصد بها إلى دراسة القرآن والسنة وما إليما ، والأولى تستند إلى الفكر وهى طبيعية للإنسان ، والأولى تستند إلى الفكر وهى طبيعية للإنسان ،

الواضع الشرعى ه . بيد أنه من الغريب أن نلاحظ ، أن المؤلف حيها يعدد ، ثم بدرس على انفر ادخلاصة العلوم الفلسفية ؛ لا يذكر من بينها العلم الذى يضطلع بدراسته ، فلا في المنطق ، ولا الطبيعة ، ولا في الرياضيات (وهي المحموعات الأربعة التي يذكرها) نجد أثراً لوصفه . فهل يكون ذلك لأنه قد عرفه في فاتحة موافه ، أم لأنه يولف فرعاً جديداً ، لا يدخل في التقسيم المتعارف؟ هذا ما لا يقوله لنا ابن خلدون ، وبجب علينا أن نكتني إذاً ، عا جاء بشأنه في مقدمته المذكورة .

والواقع أن المؤلف لايعرف التاريخ . ولكنه يعرف لنا أغراضه في وضمين من أوضاعه ، الظاهر والباطن: أما الأولى فهو و أخبار عن الأيام واللمول ، وأما الثانى فإنه و نظر وتحقيق والمدول ، والسوابق من القرون الأولى ، ، وأما الثانى فإنه و نظر وتحقيق وتعليل للكائناتومباديها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عيق و(أو وإذا مزجنا الوضعين ، فإن التاريخ يغلو علم الحوادث البشرية (أو بعبارة أخرى أنواعا معينة من الحوادث البشرية ) ، تقلر لا بشكلها الظاهر فقط ، ولكن بالأخص بأسبابها ووظيفها الحاصة . وصوف نرى فيا بعد قيمة هذه الفكرة ولاسها المغنى الذي يعطيه ابن خلون هنا لكلمة و الأسباب » .

ولما كان الغرض الأصلى من العلم هو تمبيز الحقيقة من الخطأ ، فإن المؤلف يحاول أن يعطى للتاريخ صفات الحقيقة الكاملة . وهو هنا يفيض

<sup>(</sup>١) القدمة ص٣.

فى استعراض الأساطر التي قبلها عنهى السهولة المؤرخون السابقون "، ويقوم بدحضها ، منحياً باللائمة على أوهام أسلافه ، وواضعا لقواعد النقد التاريخي . بيد أنه فى الوقت الذى ننظر أن يوضح لنا ابن خلدون ماذا بجب علينا مراعاته من التحوطات فى استخدام المصادر التاريخية ، ولاسيا التي توييدها المشاهدة ، مقدما إلينا القواعد اللازمة لمقارنة الحقيقة والتحيز وغير ذلك ، نجده يتحاشى هذه الأسئلة ويضع لنا مقياس المقارنة ، على أساس لم نكن نتوقعه قط ، وهذا المقياس ، هو طبيعة المحتم ، وأعمال البشر .

وتبتدئ النظرية بكلام لايبدو أنه يتسم بكبير براعة وهو : 1 إن الحوادث التي تقع في المجتمع البشرى تقدم لنا خصائص ذات طبيعة خاصة ، وهي خصائص مجب أن يحسب حسامها حيماً نقوم بسرد الحوادث أو ننقل السير والآثار التي تتعلق بالأجيال الماضية ع(١). وعلى الحملة فإن كل ما يستحيل وقوعه من الناحية الإنسانية ، يجب رفضه باعتباره أمراً خوافيا .

فمثل هذا التحوط يبدو اليوم عاطلا . ولكن من قرأ بعض كتب التاريخ الإسلامى ٥ يدرك أنه ليس كذلك ، متى ذكرنا الإيمان المدهش لأولئك المؤرخين ، أوبعبارة أخرى متى ذكرنا عدم اكترائهم إزاء هذا الحانب من عملهم .

على أن المبدأ الذي يقرره ابن خلدون ، لايقف عند هذا التعميم.

<sup>(</sup>١) المقدمة ص٣.

ذلك أنه سوف يوسعه شيئاً فشيئاً ، ويضاعف مسائله ، ويقدم لنا ثروة فى المحتويات ، تناسب ضخامة الفكرة التى يقدمها لنا عن المجتمع ، وعن الطبيعة البشرية ، مجتمعا وفرادى .

وإلبك الطريقة التي يقدم مها إلينا شرح هذا المبدأ النقدى الحديد : وببدأ ابنخلدون بأن يوحد مايسميه و بالمبادئ العامة، للتاريخ ( أو بعبازة أفضل للنقد، في ميدان نقد الحوادث البشرية ﴿ فَإِذَا لَمْ يَقْسُ الْعَالَبُ منها بالشاهد والحاضر ، فربما لم يؤمن فها من البثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق (١) ، وبجب أن نقارن السر بأخرى من و أشباهها ، وأن نسىر بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكاثنات ، ، وكلى هذه التأكيدات تستند إلى الاعتقاد أو الفرض بالوحدة النفسية للتاريخ البشرى ، وهو ماصاغه كابريرا دى كوردبا في عبارته الشهرة: وصفة واحدة للعالم هي كل شيء ۽ ، وما أيده فر بمان في عصر نا بأدلة وضعية. ويعر ابن خلمون عن نفس الفكرة بقوله : \$ فالماضي أشبه بالآتي من من الماء بالماء والكن المدهش أن المثل الأول الذي ذكر لإيضاح هذه النظرية ، ليس فيه شيء يتفق مع الوحدةالنفسية . فقد أشار إلى أنه من المستحيل أن يقود موسى جيشاً تعداده أكثر من سيّاتة ألف مقاتل من الإسرائيلين ، لأن مساحة مصر وسوريا ، لم يكن في طاقها أن تحشد مثل هذا الحيش ، ولأنه من المستحيل على مثل هذا العدد من الحند ، أن يتحرك في أي مكان ، ولأن الموارد الاقتصادية لكل دولة منهما ،

<sup>(</sup>١) القدمة ص ٧. (٢) القدمة ص ٨.

تفرض حداً لعدد الحند الذي مكن حشده ، وحسما يبدو ، فإن السبب الثالث من هذه الأسباب ، هو وحده الذي يتفق مع المقياس الذي قرره ابن خلدون ، أما السببان الآخران ، فرجعان إلى الظروف الحفرافية . وبالرغم من أن هذا السبب هو أكثر انتسابا إلى الاحمال منه إلى الوحدة النفسية ، وهو الذي تحدثه التجارب في نفوسنا ، و يمكن من وقت إلى آخر ، أن يتحطم لعدم كفاية هذه التجرية ، ويهار تعميمنا للممكن والمستحيل في المحتمع البشرى .

وفضلا عن ذلك ، فإن تطبيق الحاضر للحكم على الماضى (في هذا النوع من فرض الاحمال) يتعرض وفق ما نعلم إلى أخطاء كثيرة . ذلك أنه با لرغم من كون النفسية والإمكان المنطق للأعمال البشرية ، تستند إلى مبادئ ثابتة ، فإنه من الحق أيضا ، أن الحوادث تختلف ، وأن استعمال هذا التطبيق ، ينتهى بأن يشوه شكل العصور الماضية . ولم تفت موافقنا ملاحظة هذا الاعتراض الحتمى ، وهو يعارضه كتصحيح للمعنى المغرق العام ، الذي يمكن أن يؤخذ به هذا المبدأ ، منحيا باللائمة على الكتاب لنهولم وعن تبدل الأحوال في الأيم والأجيال ، بتبدل الأحصار ومرور الأيام » (١) . ثم يضيف على ذلك قوله و إن أحوال العالم والأم ومواتده على الميام والأزمنة ، وانتقال من حال إلى حال ه (١) . على الأيام والأزمنة ، وانتقال من حال إلى حال ه (١) . على المن نطدون ، عقب هذا التأكيد ، الذي يدل على فهم عميق لسير

<sup>(</sup>١) المقدمة ص ٢٤. (٢) المقدمة ص ٢٤.

الثاريخ ، يقع فى أحد هذه الأخطاء المأثورة عن العلوم الإسلامية ، والتي تلاحظ فى كتابه من آن لآ خر ، إذ يوضح لنا هذه التغييرات ، وفقا للفكرة العامة بأنها ترجع فقط إلى « أن عوائد كل جيل تابعة لعوائد مسلطانه (١) ، فإذا جاءت دولة أخرى من بعدهم ، ومزجت بن عوائدهم وعوائدها ، خالفت أيضاً بعض الشيء ، وكانت للأولى أشد تخالفة ، ثم لايز ال التلويج فى المخالفة حتى يذهى إلى المباينة بالحملة ، ومن هنا كان خطر الاقتصار فى الحكم « بالمشابهات والسوابق » .

وبهذا تكون قواعد النقد التاريخي عند ابن خلدون اثنتان ، الأولى مأخوذة من وحدة النفسية الاجهاعية ، التي تحدث جوهراً دائما في كل الأمم وكل العصور ، وتسمح بتكوين بعض مبادئ منطقية بالنسبة للأعمال البشرية ، يمكن وفقا لها أن نحكم باحيال أو إمكان حادث منسوب إلى شخص ما أو إلى أمة ما . والثانية ، تعبر ف فى ظل هذه الوحدة ، بإمكان الاختلاف ، الضرورى أو المحتوم . أجل إن اين خلدون ، لا يستخرج من هذا المبدأ كل التنائج التي يتضمنها ، والتي تتميز بأهميها بالنسبة لفكرة التاريخ . بيد أنه من تأملنا العمق الذي ينساب إليه ، فإن الأمر يبدو محققا ، إذا نحن أخذنا بدقة الكلمات التي صبغ فها . ولكن ما الذي محتويه هذا الحوهر الدائم للروح البشرية عند مؤلفنا ، وما هي التغيير ات التي يشعر إليها ؟ إن ابن خلون لا يقتصر على صياغة هذا المدياً أو ذاك في عبارات عامة . فهو أحيانا يوحدها ، وكأغا يدبجها في المدياً أو ذاك في عبارات عامة . فهو أحيانا يوحدها ، وكأغا يدبجها في

<sup>(</sup>١) القدمة ص ٢٤.

أشياء معينة، مفردة من مظاهر النشاط البشرى . وهذا الإدماج بخضع فيا يبدو لا إلى تحديد علمى لحذه العناصر، ولكن إلى ضيق في فهم عوامل الحياة الإنسانية أو إلى غموض أساسى فى فهمها، وذلك بالرغم من سعة الأفق الاجماعى الذى يرسمه لنا ابن خلدون بعد ذلك . وإليك كيف يعدد لأول مرة الحدود الى تضم محتويات المبدأ الأول و أصول العادة وقواعد السياسة، وطبيعة العمران، والأحوال فى الاجماع الإنساني (٧).

ومع ذلك فإن ابن خلدون يعترف عبداً ثالث أو قاعدة للنقد ، هي ظروف الأقلم الحفرافية ، التي تجرى في ظلها الحوادث ، وهي ظروف تفرض كذلك منطقها في الإمكان ، بأشد من منطق الحوادث البشرية . وقد رأينا كيف يطبق هذا المبدأ في مثل موسى . وفي أماكن أخرى من المقلمة ، يعود ابن خلدون إلى ذكره ، ولكنه لا يوضحه في معنى نقد الإمكان، ولكن في معنى آخر سوف نتحدث عنه حالا . والواقع أن ابن خلدون يرى أن كل هذه الأشياء ، التي يستخلمها ليميز حقيقة حادث من الحوادث ، لاتملك فقط هذه الصفة النقدية ، باعتبارها قوانن للحوادث البشرية - إذا ماصح القول - وذلك فها علما مالا يمكن حدوثه مطلقاً ، ولكها تكون أيضاً أسبابا لتلك الحوادث نفسها . وهاتان الفكرتان تطبقان على انفراذ أو تعملان ممتزجين ، في نفسها . وهاتان الفكرتان تطبقان على انفراذ أو تعملان ممتزجين ، في كل خطوة ، في تدليل ابن خلدون ، وذلك دون أن يصل إلى تميزها

<sup>(</sup>١) المقدمة ص ٧.

بوضوح. فهو يقول، إن المؤرخ و محتاج إلى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات، واختلاف الأمم والبقاع والاعصار في السير والأخلاق والموائد والنحل وللذاهب وسائر الأحوال والإحاطة بالحاضر من ذلك وممائلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق أو بون مابينهما من الحلاف هذا الماضية. وعلى نسق ذلك يستخدمها نقدة الأدب للحكم بصحة أو الماضية. وعلى نسق ذلك يستخدمها نقدة الأدب للحكم بصحة أو الموامات والقصص، وكما نستخدمها نحن في الحياة الموامنة للمورد صحة أو بطلان مايروى لنا . على أنه يتحدث فوراً عن ذلك كسبب للحوادث نفسها ، ويطلب إلى المؤرخ أن يعرفها مهذا الوضع ، ويقول لنا إن المؤرخ بجب و أن يكون مستوعبا لأسباب كل حدث واقفاً على أصول كل خبر وان ، وهذا ما يلاحظه جيداً للحكم على صحة الروايات التي يقدمها . والمزج بين الفكرتين ، يتكرر في بعض الفقرات التي يقدمها . والمزج بين الفكرتين ، يتكرر في بعض الفقرات التحري .

وإن ثقة ابن خلدون فى ثبات القوانين الاجتماعية ، والوحدة النفسية بالنسبة للزمن ، عظيمة إلى حد أن نحتُم تلك الفقرة بقوله : « وبذلك يستطيع القارئ أن يتنبأ بالحوادث المستقبلة » .

ونستميع العلم إذا نهنا إلى أن التسبب الذى يشير إليه مؤلفنا إنما هو التارغي المحض ، وليس الميتافزيق .

<sup>(</sup>١) القدمة ص ٢٣.

<sup>(</sup>٢) المقلمة ص ٢٣.

#### - Y -

ويقوم تدليل المقدمة ، على هاتين الفكرتين اللتين شرحناهما ، فإذا استطاع المؤرخ أن يهتدى خلال معترك الحوادث التى تعرض له كادة لعمله ، وكان عليه أن يختار بينها ، مميزاً بين الصحيح منها والزائف ، فإنه عندئذ يستطيع أن يعرف مقدما مقاييس الحقيقة . وون جهة أخرى فإنه لما كان على التاريخ أن يبحث عن الأسباب التاريخية للحوادث ، وهذه الأسباب تعد داخل هذه المقاييس ذاتها ، فإن دراسة هذه الأسباب بجب أن تسبق الرواية التاريخية . ومقدمة ابن خللون ترد على هذين الشرطين ، وغرضها كما عدده لنا هو و الأحوال العامة ، و دلك محلاف غرض التاريخ ، وهو الذي تكونه و الأخبار الحاصة بعصر أو بجيل » .

وهذه و الأحوال العامة ، التى تتفق مع ماهو معروض ، تتضمن النقط الآتية : و خواص العمران البشرى والدولة والملك ، وطرق المعاش والكسب ، والعملوم والفنون ، أو يعبارة أخرى ، فإن الحواص الستة للإنسان التى بهم التاريخ هى : العلوم والفنون ، الدولة ، الصنائع والعمل ، الاجماع البشرى ، العمران البدوى ، والعمران المخضرى . بيد أنه لما كان الإنسان يعيش في وسط الطبيعة ، وهذه توثر عليه إلى حد ما ( وسرى إلى أى حد ) فإنه بجب أن نضيف إلى هذه المقط ، نقطة أخرى أو يعبارة أخرى نقطتن هما : الحنس ، والوسط الطبيعى ، وكل من هذه تتفتع خلال سلسلة من المسائل ، تجمل من المقدمة شرحاً ضافيا لما نسميه اليوم و علم الإجماع ، .

وينوه أبن خلفون مرة بعد أخرى ، بالحاصة التعاونية الى تقلمها الما التاريخ كل هذه المحارف. أجل إنه كان بالاستطاعة أن يفهم ذلك من كل ما تقدم . ولكن المؤلف يكرره ، وعدده ، حى لايبي تمة شك ، فيا هنالك — وقق رأيه — من خلاف بن مادة المقدمة ، وبين مادة التاريخ الحض . وهو يقول لنا مشراً إلى المادة التي تكون هذا القسم من مؤلفه العظيم : « وكأن هذا علم مستقل بنفسه ، فإنه ذو موضوع وهو من العوارض و الأحوال لذاته و احدة بعد أخرى . . . و الكلام في هذا الفرض مستحدث الصنعة ، غريب النزعة ، غزير الفائدة ، (٢٦) ، ويبدو من ذلك أن ابن خللون كأنما يرتجي مكانا بين العلوم ، العلم الذي ابتدعه ، ولكن الأمر ليس كذلك لأنه يقول لنا فيا بعد : « إن العلم الذي امتي به ولكن الأمر ليس كذلك لأنه يقول لنا فيا بعد : « إن العلم الذي امتي به مسائله في ذاتها وفي اختصاصها شريفة ، لكن ثمرته تصحيح الأخبار مسائله في ذاتها وفي اختصاصها شريفة ، لكن ثمرته تصحيح الأخبار وهي ضعيفة ، (٢)

وهذا التصريح من جانب ابن خطئون يفقده أهمية كبيرة باعتباره السابق فى علم الاجتماع الحديث ، وذلك لأنه لم ير حقيقة هذا الوضع من المعلومات بوضوح ، مثل أن يقرر وضعه فى مجموعة العلوم الفلسفية: والفائدة التى ينطوى عليها بذلك . ولاشك أن ابن خطئون يصل إلى إلى تقرير ذلك كله . بيد أنه يرتذ عنه المعموض فكرة التعلميق التاريخي

القدمة ص ۳۱.
 القدمة ص ۳۲.

لنظام الدراسات الحديد (وهو أهم مايعنى به) ، وكذلك لأن الفكرة التي لديه عن علمه ، هى أقرب إلى أولئك الذين يرون أن « علم الاجتاع » هذا ليس هو إلا التاريخ أوجزء من التاريخ من أولئك الذين يفرقون تمام التفريق بين المادتين . وعلى أى حال فإن هذا التناقض ، يكشف لنا عن غموض فى الفكرة ، يجب أن يحسب حسابه عند وضع نظرية موافنا فى المكان الذى يلائمها فى تاريخ العلوم الحاصة .

وثمة اعتبار آخر يتصل اتصالا شديداً بالاعتبار السابق ، يغير مسألة جديدة ذات أهمية كبيرة . وانه ليبدو مما قلناه حتى الآن ، أن ابن خلدون لا يعتقد أنه يكتابته المقلمة يكتب تاريخا . فهذه ليست إلا تمهيداً للتاريخ . بيد أنه يقول لنا بعد ذلك أن و حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجماع الإنساني الذي هو عمران العالم ، ومايعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال ، مثل التوحش والتأنس، والعصبيات، وأصناف التنظيات للبشر بعضهم على بعض ، وما يتشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها ، وما يتحله البشر بأعملم ومساعهم من الكسب والمعاش والعاش والآحوال ، فلا يقتبطه الأحوال ، (١) والعوم والصنائع ، وماثر ماعيدث في ذلك العمران بطبيعة الأحوال ، (١) والآن أليس كل ذلك الذي يضعه ابن خلدون في ميدان التاريخ ، هو والآن أليس كل ذلك الذي يضعه ابن خلدون في ميدان التاريخ ، هو هل يعني ذلك أن ابن خلدون ، قد رأى أن كل الموضوعات التي درست في هذه المقلمة ، هي في النهاية التاريخ نفسه ، وأنه في اعتبار ما إذا

<sup>(</sup>١) المقامة ص ٢٩.

نظرنا إليها معاً لتقدير قوانيها ، فإنها تقدم إلينا مقياسا أقهم الحوادث التاريخية ، يكون أيضاً من موضوعها ، ومحقق كذلك ما هو أهم وهو معرفة وكل جيل وعصر » بطريقة وضعية ؟ فإذا كان الأمر كذلك فهل تستطيع التول ، بأن مؤلفنا كانت لديه نفس الفكرة التي نسمها اليوم وتاريخ الحضارة » ؟

إنه لو كان علينا أن نجيب عن هذا السؤال الأخير البالغ الأهمية بطريقة مطلقة ، فإننا قد نر دد : ذلك أن ابن خلدون يبدو في بعض الفقرات بأنه بالفعل يفهم التاريخ على أنه تاريخ الحضارة Kulturgeschichte ؛ بيما يكشف لنا في بعض فقرات أخرى أن الأمر الأعامى الذى بهمه ، هو تاريخ الملوك والأسر ، أو بعبارة أخرى هو ألتاريخ السيامى . بيد أنه إذا كان ابن خلدون لم يصل إلى فهم هذه الفكرة على هذا الاعتبار ، وبالمعنى الذى تأخله اليوم في نظر مؤرخينا ، فإنه لارب قلحسب حسامها، وإنه لم يمنعه سوى المدى الهائل لتاريخ الإنسانية ، عن أن يستخلص منه كل التائيج التي كان يسهل عليه أن يستخلصها ، بقي علينا أن نبحث في هذه النقطة ، مدى الطراقة ، التي حققها اين خلدون في نفس نطاقه . ولقد ذكرنا من قبل أن تقرير ذلك بطريقة مطلقة يبدو اليوم مستحيلا ، أولسنا على الآقل في ظروف تسمح لنا بذلك . بيد أنه يكني أن ابن خلون نفسه ينوه ببعض أسلافه .

وهو يؤكد أن 3 ذكر الأحوال العامة للآفاق والأجيال والأعصار أس الممرّ رخ ، تبنى عليه أكثر مقاصده وتنبن به أخباره 4 ، ثم يزيد على ذلك قوله وقد فعل المسعودى ذلك فى كتأبه مروج الذهب، وشرح

فيه أحوال الأمم والآ فاق لعهده في عصر الثلاثين والثلبَّائة شرقاً وغرباً ، وذكر نحلهم وعوائدهم ، ووصف البلدان والحبال والبحار والمالك واللمول ، وفرق شعوب العرب والعجم ١١٠١ . وقعل من بعده مثل ذلك أبو عبيد البكرى ، الحغراني الأندلسي ، وإن كان ذلك في نطاق أضيق . وبعد أن ممتدح ابن خلدون كتاب المسعودى، ويعتبره نموذجا للمؤرخين يرجعون إليه ، يقول لنا إنه نظراً لتغير الأحوال ، فإنه لم يكن ثمة مجال لتطبيقهما أو الانتفاع سهما . وفي مكانَّ آخر من المقلمة يعترف ابنخللون بسبق بعض المؤلفين الآخرين في دراسة بعض المسائل التي يتكون منها موضوعه في النَّقد التاريخي . بيد أن هــذه الدراسة لدى هوُّلاء كانت جزئية وعارضة . فمثلا نجد ذلك في رسالة منسوبة لأرسطو في السياسة ، وكذلك في كلام ابن المقفع ، وهو من كتاب القرن الثامن الميلادى ، وفى كتاب أبى بكر الطرطوشي ، سراج الملوك ، وهو من كتاب القرن الحادى عشر ، ولدى غير هوالاء من لم مخصهم بالذكر (٣). فهذه البيانات تذكى لدينا الرغبة في أن تنتظم السلسلة كلها ، حتى نستطيع أن نقامر القيمة التي يستأثر بهاكل من هوالاء الموافعين بالنسبة لطريقة فهم وتطبيق هذه النظرية . وليس من النادر أن نجد لدى المؤرخين القدماء ، ولاسما لدي الحغرافيين والرحل ، ملاحظات وشروح تتعلق بالدين والثقافة والعادات، ومجموعاتالسكان، والظروف الطبيعية للإقلم وغرها ، وذلك دون أن يكون لهذه البيانات سوى صفة عارضة ، ودون أن تنطوى على معنى سياسي أساسي لعلم التاريخ

<sup>(</sup>١) المقدمة ص ٢٧. (٢) المقدمة ص ٣٣.

القدم ؛ وأن الذى يهم أن نلاحظه في تطور هذه النظرية ، هو تقدم الفكرة الأساسية فيا يتعلق بالعناصر المختلفة التي تدخل في النشاط التاريخي المجاعات الإنسانية ، وذلك مثل فكر ةالعلاقة بين الوسط الطبيعي و الإنسانية ، وأخيراً ، وقبل أن ندخل في مجموعة أخرى من المسائل ، نلاحظ خلو نظرية ابن خلدون من كل اعتبار يتعلق بالمسألة الأخلاقية في التاريخ أو بعبارة أخرى تتعلق بالطروف الشخصية المورخ ، و نزاهته وتمسكه دائماً بقول الحق فيا محدث أو فيا يسمعه ، وهي مسائل ، كما نعلم ، ذائمة جداً بين الكتاب القدماء ، وهي التي تكون محور المناقشة الحوهرى بن كتاب عصر الإحياء ( الرئيصائص ) .

### - " -

لسنا نريد أن نلخل في تحليل نظرية ابن خلدون الاجهاعية ، وهو التحليل الذي بدأه حبلوفتش والذي يستحق التعمق والتأمل من جانب كل أولئك الذين يدرسون هذه المحموعة من المسائل . إن « المقلمة على من هذه الناحية هي انظر يقالحضارة» حقيقية وكاملة جداً، تدرس فها العناصر التي توثر في إنتاج وتوسعة هذا الحدث الاجهاعي ، وتطوراته النارغية ، واتجاهاته الحوهرية ، والقوانين التي تحكم حياته ( النشأة ، والتقدم ، والانجلال ) ، ولاسيا عامل السكان ، وبعض تيارات مثالية أخرى ، يرى ابن خلدون أمها تحكم ، بطريقة ما ، سائر الحركة الحضارية ، أخرى ، يرى ابن خلدون أمها تحكم ، بطريقة ما ، سائر الحركة الحضارية ، وسنكني بأن ندرس هنا اثنين من المسائل التي تحتويها هذه النظرية ، لأجما من بين ما يناقش اليوم بكثرة ، باعتبار أنهما مما يوثر في فكرة التاريخ ، الأولى هي قيمة الوسط العلميعي في علاقته مع الحنس ، والثانية

هي ماهية التاريخ . ويؤكد ابن خللون بقوة ، أن الوسط الطبيعي (الوضع الحفراق ، وخطوط العرض ، ودرجة الحرارة ، والرطوبة وغيرها) ، توثر في الحياة البشرية ، ولكنه يقرر ذلك بطريقة رتيبة (ميكانيكية) مبائلة ، تطبعها السلاجة . وهكذا فإن الأثر الحوهرى الذي ينوه به في الأقالم الثلاثة الوسطى (وهو يقسم العالم إلى سبعة أقالم) هو أنها خالية من كل إغراق و فالعلوم والصنائع والمبائى والملابس والأقوات والفواكه بل والحيوانات وخميع ما يتكون في هذه الأقالم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال . وسكانها من البشر أعدل أجساما وألوانا وأخلاقا وأديانا و (١) ، فهم في كل شيء بعيدون عن التطرف ، وبالعكس فإن سكان الأقالم الأخرى التي تبعد عن الوسطى ، فهم وبالعكس فإن سكان الأقالم الأخرى التي تبعد عن الوسطى ، فهم أقرب إلى الحالة البدائية ، وهم متوحشون غير مستأنسين (٢) .

ومن الراضح أن ابن خلدون ينظر إلى تلك العلاقة بين الإقليم وبين الإنسان من الناحية الحالية ( الإستانيكية ) ، وذلك دون أن عطرله أن سكان المنطقة المعتدلة ، كان من الضرورى أن يحروا قبل ذلك بنفس الحالة الى يلاحظها فى الباقن، وأن ذلك لا يعى سوى أنعطور من أطوار تقدم الحضارة ، وأنه لما يساعد على محوهذا التحديد الفكرة ، ما نراه من أن ابن خلدون يبدو بمنهى الوضوح ، حن يدرس بدقة مسألة تحول الحياة البنوية إلى الحياة الحضرية ( المدنية ) ، وهى تطيع المحتمعات بطابعها . ويؤكد ابن خلدون ، حين يتكلم عن تأثير الحر والرد فى تطور اللون ( لون البشرة ) أهمية تأثير الإقلم فى الحنس. ويقول لنا إن اختلاف

<sup>(</sup>١) المقلمة ص ٢٩. (٢) للقلمة ص ٧٠.

اللون لايرجم إلى اختلاف الأجناس ، فإن الإقليم هو الذي محدث ذلك الأثر ،وذلك طبقا للتحول من منطقة إلى أخرى ، وهذا ما مكن ملاحظته أحيانا فى نفس الأشخاص . وهو من أجل ذلك يرفض قصة الأجناس الثلاثة المنسوبة إلى يافث من سام وحام ، ويرجع ذلك إلى اختلاف الصفات العنصرية ( الانتروبولوجية ) . ويقول : ﴿ وَهَذَا الرُّحْمُ وَإِنْ صادف الحق في انتساب هوالاء ، فليس ذلك بقياس مضطرد ، إنما هو إحبار عن الواقع لا أن تسمية أهل الحنوب بالسودان والحبشان من أجل انتسابهم إلى حام الأسود ... فتعميم القول في أهل جهة معينة من جنوب أوشمال بأنهم من ولد فلان المعروف لما شملهم من نحلة أولون أوسمةو جدت اللك ، إما هو من الأغاليط الى أوقع فما النفلة عن طبائع الأكوان والحهات ، وأن هذه كلها تتبدل في الأعقاب ولابجب استمرارها ه(١٠)؛ ويبلو أن الاختلاف هنا يرجع إلى فكرة التغييرات المترثبة على الموقع الحغرافي للأمم، وهو الذي مخضَّعها إلى التأثيرات الإقليمية المحتلفة، ويفترض من جهة أخرى وقوع انتقاص كبير لنظرية ، تفوق الإقليم على الإنسان . وبرى ابن خلدون أن الإقليم أو بعض عناصره ( الهواء سواء قل انتشاره أو كثر ، يوثر في الناحية المعنوية للإنسان، ولاسها بالنسبة للخفة أو ركود الذهن، أوفى الفرح اشتد أوضعف، وفى الحزنّ، وفى العادات التي مكن أن تنشأ من المزاج المرح أوالمنقبض . ويؤثر كذلك في التغذية ( الرَّخاء أو القلة ) وفي الملكَّات العقلبة ، ومن رأى ابن خلدون أن الشعوب المعتدلة هي أذكي الشعوب ، وأحسمًا بنيانًا في الأبدان ، وأن الإفراط

<sup>(</sup>١) للقاسة ص ٧١.

فى التغذية يسبب الخمول ، بل ويتعدى أثره إلى الحالة الدينية ، فنجد المتقشفين من أهل البادية أو الحاضرة ممن يأخذ نفسه بالحوع والتجافى عن الملاذ ، أحسن دينا وإقبالا على العبادة من أهل الترف والحصب ، بل نجد أهل الدين قليلين فى المدن والأمصار لما يعمها من الفساد والفقلة المتصلة بالإكثار من اللحمان والأدم ولباب الر يهدا.

ومن الواضح ، أن نظرية ابن خالمون ، بالرغم من كومها قاطمة جداً ، في هذه النقطة من تأثير العوامل الطبيعية ، ليست تامة الشمول ، وهي بعيدة عن أن تصل إلى التشعب والنتائج التي وصلت إليها بعد ذلك بقرون على يد أمثال مونتسكيو وماسدى وغيرهما . وفضلا عما تقدم فإن ابن خللون يعود إلى معالجة الموضوع حيا يتحدث عن تأثير الصناعة في حياة الإنسان ، وهو هنا يرى بحق أن أنواع الصنائع تتوقف ،

أما فى مسألة موضوع التاريخ ، فإن ابن خلدون يبدى نفس الدد ، اللذى يبديه فى نظرية و تاريخ الحضارة و Kulturgeschichte ، فهو من ناحية يؤيد بقوة نظرية الأصل المشرك للحركات التاريخية العظيمة، ومن ناحية أخرى ، يستخدم نفس هذه الفكرة بالنسبة لتاريخ الملوك والأسر الملوكية ، وهو مايعى به قبل كل شىء . وإن وضعه النظرى ليبدو لنا ، فى منتهى الحرص ، ومتفقا مع النتائج التي وصل إليها اليوم معظم الباحثين فهو يقول لنا ، إنه لا ممكن تقوم سيادة أو تؤسس أسرة دون نعضيد الشعب والروح التعاوني الذي يدفعه . وقد نشأت كل الدول الكرى مهذه

<sup>(</sup>١) القدمة س ٧٥.

الطريقة ، وإن كانت بعد ذلك تنسى حقيقة نشأتها (١٠) . وكذلك فإن الدول العظيمة تعتمد على العاطفة القومية ، فإذا لحناً الملك في تأييد سلطانه إلى المبند المادى المعوالى والحند ، بدأ عهد الانحلال . وحتى الأنبياء ، وأسهم في حاجة إلى رأى عام قوى ليسندهم . يقول : « وأحوال الموك والدول راسخة قوية لايز حزحها و بهم بناءها إلا المطالبة القوية ، التي من ورائها عصبية القبائل والعشائر كما قدمنا . وهكذا كانحال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في دعوتهم إلى القد بالعشائر والعصائب، ٢٣ .

وإذا نحن وقفنا بهذه التأكدات، فسوف نتمر ف في الحال مها على قسمين : الأول يتضمن بلا ريب نتيجة معينة هي ضرورة الروح الحاعى ، والثانية تقوم على حدث محقق هو أن الإنسان نظراً لكونه لايستطيع كسب الآخرين بل هم يقومون معاونته ، فإنه يتشبه بالحقيقة المواضحة تشها كافيا . بيد أن أهم مافي ذلك هو ملاحظة أنه مع ضرورة الإجاع العام ، أو تعضيد الحموع لكي يستقر وينجع عمل الملك أوالنبي ، فإن ابن خلمون برينا أيضا أنه لم تفته ضرورة كون الرجل يلخص الرأى العام و عثله في كل آونة ، وأنه من جهة أخرى محتاج إلى جهاز خاص للتعبر . وهذا التوفيق بين العصرين ، يصيبه مع ذلك ، تناقص خطر ، طبع يوضح لنا ابن خلمون نشأة المدن والآثار العظيمة . ذلك أنه ، وفقاً لقوله ، إذا كان إنشاء هذه يرجع إلى و حب الدعة والراحة هراك الي يشعر بها الناس نحو حياة الحضر ، فإن إنشاء المعروح العظيمة في كل مدينة يتوقف على إرادة الملك . و عب الانشاء هذه الصروح واجهاع كل مدينة يتوقف على إرادة الملك . و عب الإنشاء هذه الصروح واجهاع

<sup>(</sup>١) القدمة مر ١٣٢ و ١٣٠ . (٧) المقدمة من ١٣٣ و١٣٧.

<sup>(</sup>٢) المقلمة من ٢٨٧ .

الأيدى وكثرة التعاون ، وليست من الأمور الضرورية للناس التي تم بها البلوى حتى يكون نزوعهم إليها اضطراريا، يل لابد من إكراههم على ذلك وسوقهم إليه مضطهدين بعصا الملك أو مرغين في الثواب والأجريه (٢٠) . ثم يستنج من ذلك أنه لابد في تمصر الأمصار واختطاط الملدن من الدولة والملك ، وأن عظمة الصروح ترجع مباشرة إلى سلطان الأصر التي شادتها . وهذا مايضيق نطاق عمل الروح التعاوني بشدة . هذا بينها الذي لاشك فيه هو أن العلم الحديث ، يعتبر هذا الروح من أهم مظاهر العبقرية الشعبية وأكثرها تعبراً عها .

والحلاصة العامة التي مكن أن نستخرجها من هذا البحث كله ، هو أنه إذا كان ابن خلدون فيا يبلو ، يدلل على تقدم واضح ( على الأقل من الناحية النظرية ) في دراسة التاريخ الإسلامي ، وإذا كان قلد أحرز السبق في كثير من الآراء الحديثة ، فإنه ما يزال بعيداً جداً وهو أقل ما نستطيع التعبر به – عن أن محقق المقتضيات الحقة النظرية التاريخية . ومن ثم فإنه مجب علينا أن نبتمد عن المبالغة في تقدير قيمة ابتكاراته . وإن العكس ليكون غريبا حقاً ، إذا ماذكر نا الشروط أو القوانين التي مخضع لها تقدم الروح العلمي . على أنه يكني أنه في القوني الرابع عشر ، حيا كانت دراسة التاريخ الأوربي في منهي الفوضي ومنهي البعد عن آراء كالي يعرضها ابن خلدون ، ويدافع عها ، قد كتب كتاب وكالمقدمة عدرست فيه أو اقرضت كل المسائل التي غدت فيا بعد ، على تفهمها محتلف الصور ، هي المهمة الحوهرية المؤرخين المحدث .

أوبييلو سنة ١٩٠٣

رافائيل ألتاميرا

خلاصة بحث عن نظر يات ابن خلدون ف المسائل الإفريقية

بقـــلم العلامة الفيلسوف الإسباني

خوسیه أورتیجا إی جاست

José Ortega y Gasset

وتشر الكاتب والفيلسوف الإسبانى خوسية أورتيجا إى جاسيت فصلا فى مجلته التى كان يصدرها Espectador ، تحدث فيه عن المسائل الإفريقية التى كانت قائمة فى هذا الوقت ـ سنة ١٩٣٤ ـ وأشار بنوع خاص إلى مسألة مليلة ، وهى الثغر المغربي الذي تحتله اسبانيا منذ أواخر القرن الخامس عشر حتى اليوم ، ثم عطف على ذكر ابن خلدون باعتباره إفريقيا عبقريا ، ذا عقلية مستنيرة مصقولة ، يدخلنا فى هذا المخيط التاريخي ، الذي لايتأتي لذهننا أن يصل إليه ، ويصفه و بابن خلدون فيلسوف التاريخ الإفريقي .

ثم يقول، إننا وقفنا على مقدمة ابن خلدون، وهى كتاب كلاسيكى، منذ نحو قرن بفضل ترجمة البارون دى سلان . ولم يقتنع ابن خلدون بسرد حوادث التاريخ الإفريق ، ولكنه أراد أن يشهمها . ومقدمة ابن خلدون تعلمنا أن المعرك الظاهر للحوادث الإفريقية ينحصر فى أمر واحد، هو قيام طريقتن للحياة ، الحياة البلوية ، والحياة الحضرية . وهذا هو الحادث إلحوهرى الأساسى الذى لاينضب ، والذى ينبع منه تاريخ إفريقية بأسره . وعند ابن خلدون أن العالم التاريخي ، يتقلص إلى ذلك العلم الإفريقي ، وأن التاريخ الإنسانى كله يدور حول ذلك المحول المزدوج ، البداوة والحضارة . ونحن لانتعى عليه هذا التحديد . فنحن كذلك لانشمر إلا بتاريخنا ، والأوربي في الواقع لايفهم من التاريخ

Ei Especiador, T, Vili. 1934 (Madrid) p. 11-33 ( )

إلا مايتفق مع فكرة التقدم ، وما ينطوى على خدمة ثقافة متقدمة .

ويشرح أورتيجا بعد ذلك فكرة ابن خلدون فى أن الحقيقتن الأساسيتين اللتن ينطوى عليهما التاريخ هما الدولة والحضارة ، وأن المساسيتين اللتن ينطوى عليهما التاريخ هما الدولة لها أعمار طبيعية كالأشخاص ، هى طور النشأة والبمنو ، والنضج، ثم الانحلال ، ويقول لنا إنها فكرة رائعة ، كثيرة البساطة والوضوح ، مثل قانون من قوانين نيوتين ، وتمثل أدق تمثيل ما يمكن أن نشهده خلال منة وعشرين قرنا من التاريخ الإفريقي .

ويعتبر أورتيجا أن مقدمة ابن خلدون هى من حيث الزمن أول كتاب يؤلف فى و فلسفة التاريخ، وأن الذى كان يمكن أن يطمح قبله إلى هذه المكانة ، هو القديس أوغسطن ، ، لولا أنه عنى و بعلم اللاهوت فى التاريخ ، ، ثم يقول إن ابن خلدون و هو عقلية واضحة كلها ضوء، وأن ضوءه العقل بمزق كل غوض، ويصل نقبا إلى الأشياء ويستخرج منها كتابا يبدو كأن الذى كتبه مهندس بارع ، وكتابه عن فلسفة التاريخ ، هو فى نفس الوقت أول و علم اجتماع ،

ثم يتحدث عن منهج ابن خلدون النقدى، في تميز الصدق من الكذب في الرقائع التاريخية ، ويقول إن النفكر التاريخي ليس كالتفكير الفيلولوجي ، وليست طرائقه مثل طرائقه ، فنحن بها لانستطيع أن نحصل على الفاعدة الأساسية للتقد التاريخي، وهي التي تبين ما هو ممكن وما هو مستحيل ، وتمكننا من تميز الحقيقة والحطأ بطريقة واضحة، أما هذه الطريقة وطبيعة العمران المهم ، فهو أن ندرس ماهية وطبيعة العمران المهرى ، وهكذا فإن ابن خلدون يرى بهذه الطريقة الصارمة ، سألة

التاريخ الفنية حتى سنة ١٣٧٣ م وهي مسألة تعود اليوم تشغل أذهاننا ي يقول أورتيجا ، إن ابن خللون يقول لنا عن محثه و إنه علم جديد ، وأداة تمكننا من معرفة ما نحكم يقبوله وما نحكم بتزييفه ، وكان لنا ذلك معياراً صحيحاً يتحرى به المؤرخون طريق الصدق والصواب فها يتقلون (١٠٠) ، وهذا التعليل ، وهذه الفكرة ، بل حتى هذا التعبر ، يتفق مع ما وصفه فيكو و بالعلم الحديد » .

ثم يستعرض بعد ذلك آراء ابن خلدون فى نشأة المجتمع ، وفى كونه يبدأ بالبداوة ، وهى حالة تتسم بقلة التعاون ، وكثرة الصراع ، ثم يتطور ، وينهى بإنشاء المدن ، ويتمسك بالبقاء بها بشدة ، والأمر بالعكس ، فإن سكان المدن ، لايتحولون إلى البداوة ، وإن الحضارة هى غاية العمران ، وبهاية لعمره ، وإنها مؤذنة بفساده (٢٠٠)، ويستعرض تفاصيل هذه النظريات وفقا لما يقول ابن خلدون :

هذه خلاصة البحث الذي يقدمه إلينا الفيلسوف الإسباني المعاصر عن المفكر المسلم . وهو يشيد حقاً بعقرية ابن خلدون ، وطرافة تفكيره ، ومكانة مقلمته، وسبقها في ميدان وفلسفة التاريخ، ووميدان الاجماع، ولكنه يتعثر في نقطة واحدة فقط ، وهي تصوره أن آراء ابن خلدون ، وفلسفته التاريخية قد استخرجت فقط من معبرك التاريخ الإفريق ، هذا في حين أنه من الواضح أن ابن خلدون يذهب في محوثه إلى آفاق أوسع بكثير ، ويتخذ المحتمم الإنساني كله ، سواء في المشرق أو المغرب ، مادة لدراسته ، ويذهب في ذلك إلى عصور التاريخ القدم .

<sup>(</sup>٢) القلمة ص ٣١٠.

<sup>(</sup>١) القدمة ص ٢١.

# ابن خلىوى

مؤرخ الحضارة العربي في القرن الرابع عشر

رسالة للأستاذ فون ڤيسندنك نشرتها عجلة الدويتشه رونتشاو الألمانية في عددها الصادر في بناير سنة ١٩٢٧

> Ibn Khaldoun Ein arabischer Kulturhistoriker des 14 Jahrhunderts.

Von. O. G. Von Wesendonk Deutsche Rundschau; Jahgang 49, IV.

مترجمة عن الألمانية بقلم المؤلف

## این خلدون

-1-

دهم الإسلام فى القرن الرابع عشر انقلاب عظيم الشأن ، فقد انتهت الحروب الصليبية بحية تامة ، وانهارت فى الوقت نفسه دعائم الحلافة فى بقداد تحت أقدام المغول ، فهضت أسرة الأيوبيين الكردية التى تولت عرش مصر لقيادة العالم الإسلامى، وخلفها فى ذلك أسرة الماليك التركية التى أقصت الحيوش الصليبية عن الأراضى المقلسة نهائياً، وردت هجات المغول نحو الغرب ،

واعتنى خلفاء چنكىزخان الإسلام بسرعة، وبرزت من بن الأنقاض العدة للمولة المغولية دولة التتار الروسية ، فكان قيامها رمزاً لصولة الإسلام . وكذلك وثب الإسلام في الشرق الأوسط في أثر المغول ، ثم شهض تيمور محاول قتح العالم ، ونهضت معه المولة الممانية التي دفعت حدودها في القرن الرابع عشر إلى أدرنة، وقضت على دولة العرب في موقعة أضرل ومن ثم اكتسحت دولة البلغار: وأسس خلفاء تيمور في القرن السادس عشر بالهند دولة المغول العظيمة ، التي أزهرت في ظلها شعوب خاملة أعا إزهار، حتى عملت فرنسا وانجلترا على تقويض صروحها عا بذلتاه من الحهود في سبيل اغتصاب الهند، وكان للإسلام أيضاً منعة وصولة حيا كان مماليك مصر يشملون الخلافة برعايتهم ، بل لقد نال ذلك الإسلام فورزاً باهراً في القرن الناسع عشر في الصن وفي أرجاء إفريقية ي

وكانت منطقة النفوذ الإسلامية فى الغرب خلافة قرطبة الأموية التي أسمها الأمر عبد الرحمن الأموى عقب انتصار أبي العباس السفاح أول خلفاء العباسين على مروان الثاني . واستطاع ملوك الطوائف أن يقاومو1 الإسبان زمنا عوازرة الدول الربرية، التي قامت على دعائم العنف والبطش كالدولة المرابطية التي نشأت في الصحراء ، ودولة الموحدين التي نشأت في بلاد السوس . بيد أن تلك الدول اضمحلت وعفت آثارها قبل القرن الرابع عشر ، ولم يبق بالأراضي الإسبانية سوى فرع من النصريان يرعى في غرناطة مهداً للفنون والعلوم والآداب. ولم يبق كذلك بيد سلاطين مراكش وبني مرين سوى بلاد ضئيلة في الحنوب مثل رنده . وتفككت عرى دول المرابطين والموحدين الزاهرة ، ونشأ على أنقاض بني مرين ملوك فاس ، بنو حفص أمراء تونس وبنو عبد الواد أمراء تلمسان ، وعدة أمراء صغار ورثوا ملك الدول العربرية الكبرى، حتى كان لكل بقعة أومدينة مهمة أمرها الحاص، محارب جاره أورثيسه المزعوم . بيد أن إفريقية الإسلامية لم يعتورها عارض من عوارض ذلك الانحطاط الذي كان الغرب وقتتُذ يتخبط في ظلماته ، إذ أنها بالرغم من اضمحلاها كانت أعرق حضارة وتفكيراً وتربية .

في تلك الآونة التي أخذ يبهار فيها سلطان الإسلام، ولد بتونس مؤرخ هو إحدى تلك الرعوس المفكرة المبتدعة في التاريخ العربي الفكرى. في سنة ١٣٣٧ اكتحلت عينا أبي زيد عبد الرحمن بن خلدون في تونس بروية ضياء العالم. ومنذ عهد عقبة القائد الشهر الذي كان الفرنسيون أول

من دنس مسجده، كانت إفريقية ( وهي الإسم العربي لتونس ) مهدًا للعلوم والمعارف، وقد حافظت حتى العهد الأخمر على الاستثثار بذلك الفخر أشد المحافظة . على أن هيبتها السياسية كانت قد تقلصت سراعا منذ أمد طويل، فقد اغتصب الأغالبة ولاية تونس نحو سنة ٨٠٠ م وأقاموا دولتهم على أسسالعنف والقوة، كما انتزع ابن طولون الذي عينه العباسيون خاكما لمصر سنة ٨٦٨ م ولايتها منهم وأسس بوادى النيل.دولة مستقلة . وتسربت من هاتين الدولتين نزعة إلى النوسع والفتح في مناطق البحر المتوسط، فبسط الأغالبةسيادة الإسلام على صقليةو سردانية، وهددوا رومة وعاثوا في سواحل إيطاليا وبروﭬانس ، ونقذوا إلى وادى الرون شمالا حتى سقطت چنيف في أياسهم فعلا ، ولعل الأغالبة قدروا في صراعهم الانتقام لمز ممة عرب الأندلس على يد كارل مارتل . كذلك قامت في إفريقية دولة الفاطمين الشيعية التي كان قيامها على يد عبيد الله الإسهاعيل المهدى حادثة مدهشة فذة في حوادث التاريخ. على أنه سرجان ما انقضي العهد الذي كان الإسلام ينفذ فيه إلى أقطار الفرنجة ، والذي استطاع فيه مغامر كعبيد الله أن يناهض خلافة بغداد مناهضة خطرة .

ونشأ أمراء بنى حفص على أنقاض اللولة الموحدية التى سادت أشتات المنطقة الغربية زمنا قصيراً، وتوطدت دعائم ملكهم بتونس، وكان كبيرهم شيخ هنتانة أبو حفص عمر اللك كان قد عينه الموحدون حاكماً لإشبيلية والأندلس الغربية، وحفيده أبو زكريا حاكم إفريقية الذى استقل بولايتها سنة ١٢٣٩م. ولم يك لقب السلطان وقت مولد ابن علمون إلا صورة براقة في غير البلاد التي افتحها الرك. وكانت السلطة الحقيقية في بد رجال من البطانة والحكام طالما ثاروا على ملوكهم . وفي عهد بي حفص أخفق لويس التاسع ملك فرنسا في الحرب الصليبية السابعة . ويتقسب مؤرخنا إلى أصل من أصول حضرموت في جنوب بلاد العرب : وكان جده قد استقر أولا بملينة قرمونة ، ثم انتقلت أسرته إلى إشبيلية حيث سمت آمالها وأمنياتها ، وفاز أفرادها ممناصب هامة في إدارة الحكومة والحيش ، ولبثوا يشاطرون هنالك مصبر اللولة المتقلب . فلما تقوضت دعائم دولة الموحلين هاجرت الأسرة إلى سبتة ، ولما سطع نجم أن حفص رحلت إلى تونس واتخذتها مقاما لكى تستظل في منفاها مجابته ، ونقلد جد المؤرخ وظيفة الحاجب (رئيس الوزراء) للأمير أبي حفص ، ثم صار وزيراً لحلفه المستنصر . أما أبو المؤرخ الموكر عمد فانخرط في سلك الخدية أو لا ، غير أنه ما لبث أن تفرغ للدرس العلوم واختص بدرس الشريعة في عصر أزهر فيه درسها حيى صار من كبار فقهائها وعائها .

في تلك البيئة ، وفي مهد هذه التقاليد نشأ عبد الرحمن . وكان من الواضح بادئ ذي بدء أنه سيعتنق الحياة الحكومية . ولم ترق له الحياة المسكرية، فانكب على طلب العلم بشغف أو دعمقيه أبوه، وألني في تونس ومكاتبا الشهيرة وعلائها الأقطاب فرصة يانعة للإتفان . وكانت معاهد العلوم الإسلامية في ذلك الحين تفيض على طلابها من علب مناهلها أيما إفاضة ، وكانت التربية الإسلامية قد أتخذت في ذلك الحين أيضا صبغة

مدرسية تامة ، ولكن ميدان التعلم بنَّى شاسعا مَّر امى الأطراف مثلها كان فىالغرب، بالرغم من سيادة الميولُ المحافظة وضغطها : وقد عصف ذلك بنقائص عقلية مصفدة، فأدى إلى أن يتخذ و الإحماع ، وهو التوفيق بن الآراء العلمية المختلفة أهمية خاصة ، وأن تعتور العقائد الثابتة تغييرات عديدة . ولما كان ارتباط الشريعة الإسلامية بالدين شديداً ، فإن العلوم القانونية لم تتعدد حدود التفكير المدرسي الديني . لكن ذلك لم يمنع تسرب نفود المدنيات الأجنبية ، الذي كان ينمو كلما أخضعت شعوب جديدة رغم اشتداد حملات المدرسة المحافظة . ونشأت في ظل الدولة العباسية تلك الملنية التي تعرف بالمدنية الإسلامية . وكان لامتراج الحضارة الإسلامية ببقايا المدنياتالقدىمة، ولاسها بتلك التي برزت من مدينة حران السورية، أهمية خاصة ، فمنها كانت تنسرب بدائع الحضارة اليونانية إلى نظم القرن التاسع . وكذلك كان تأثير مدرسة جندسابور الباهرة في فارس، وهي التي كان الملك العظيم كسرى أنوشروان يدعوإلها منذعهد يوستنيان تلامية أفلاطون المنفين من أثينا . ولم يستطع مفكر أن يبتدع شيئاً جديداً يضيفه إلى عُرات الحضارة القدعة . كما عرفت منذ عهد المأمون العباسي ، بل قلما نبع مفكر حركابن-خرم ، قبل انفجار ثورة المرابطين المتعصبين وإن كان فلاسفة كابن رشد وموسى بن ميون وابن طفيل نبغوا في عهد الدولة العربرية ، ونشروا تلك الأفكار التي تأثرت مها أوربا في القرون الوسطى أعا تأثىر .

وتأهب ابنخلدون لدرس العلوم والمعارف أهبة أعجب لها أساتذته

ودرس الشريعة ومشكلاتها العويصة على نمط التقاليد الأندلسية . وكانت أساليب قرطبة الشهيرة للمرس العلوم الدينية ، لم تزل حتى القرن العاشر أبدع الأساليب وأحما ، وكان المسلم الإسبانى لا يكتنى بدرس النظريات المحرَّدة ولا يقنع إلا بالتطبيق العملي ، فسلك ابنخلدون تلك الطريق ، وماكاد يختم دروسه الحارة المستفيضة، التي شفعها محفظ القرآن ودرس الكتب المعتبرة وأمهات الرسائل، حتى دخل ميدان الحياة العملية وهو لم بجاوز العشرين من عمره ، فعن أمينا (سكرتبراً) للسلطان أبي إسحاق ، ٱلذي استولى على عرش تونسُ بعد أن هزم الْأَمْرُ أبا الحسنُ المريني في القروان سنة ١٣٤٨ . على أن اضطراب شنون بني حفص وكفاحهم المستمر ضد من ناو أهممن متغلبي النواحي المجبورة لملكهم، حمل ابن خلدون على أن يفكر في البحث عن العمل في بلد آخر، فسافر إلى فاس وتقدم إلى السلطان ألى عنان المريني فعينه أمينا لشئونه . وكانت فاس ـــ التي لاتزال إلى الآن مهد الدعوة إلى دراسة الشريعة بالأسالب المحافظة -لعهد بني مرين ، مركز أ ممتاز أ لبث العلوم والمعارف. وانتهز ابنخلدون الذي سر بذكائه غور المعرك السياسي في ذلك العصر الفرصة الأن يعقد روابط علمية هامة . على أنه سرعان ما اضطر إلى أن يعانى تقلبات البلاط الإسلامي، ومفاجآت السياسة، فإن علائقه بأمر بجاية الحفصي جعلتهموضعاً للريب فقبض عليه وأودع السجن . فلما توفى السلطان أبو عنان أطلق القائم بشئون الدولة سراحه وأعاده إلى منصبه . ثم رقاه السلطان الحديد أبوسالم أميناً لديوانه ورثيساً لمحلس شوراه . ولكن الخلاف دب بينهوبين الوزير عمر الذي تجرد لمناوأته، فلما أضنته المنازعة والمقاومة، اعتزم مغادرة فاس ورحل إلى غرناطة التي كان ملكها محمد الحامس قد عينه المرينيون بتلخل ابنخللون ، حاكماً لرنده إحدى ولاياتهم كي بجعلها قاعدة للعمل على استعادة ملكه . وهنالك ارتبى ابن خلدون إلى أنهى المناصب وانتدب سفىراً إلى إشبيلية ليصادق على معاهدة صلح عقدت مع بطرس القاسي ملك قشتالة . ولكن سرعان ما ثار الحلاف بينه وبهن الوزير ابن الخطيب، وهو السياسي الحازم والمؤرخ البارع الذي ما زالت موَّلَهَاتِهُ للآنَ أَصِدَقَ مصدر لتاريخ الدولة النصرية . فاضطر ابن خلدون إلى مغادرة غرناطة التي بهرته علومها وفنونها الزاهرة، بالرغمين تدهورها السياسي، وعاد إلى إفريقية وانتظم في خلمة الأمير أني عبد الله الحفصي حاكم بجاية ، فلما قتل أبا عبد الله ابن عمه الأمير أبو العباس حاكم قسنطينة واستولى على مجاية ، التحق ابن خلمون نخدمة السلطان أبى حو حاكم تلمسان أحد أمراء بني عبد الراد ، وسعى لديه فى العمل على انتزاع مجاية من أنى العباس، مو كدا له تعضيد قبائل عدة ، وعقد بينه وبين أبى إسمق أمير تونس محالفة هجومية . ولكن ذلك المشروع انهار لأن أمير تلمسان اشتغل مخلافه مع عبد العزيز المريني سلطان فاس ، فسعى ابنخلدون في تركه واستأذنه فىالسفر إلى غرناطة . وفى أثناء مسىره قبض عليه بأمر سلطان مراكش ، ثم أطلق سراحه بشفاعة أنى حمو \_ فأقام في فاس حتى توفى عبد العزيز ونشب العراك بن الطامحين إلى عرشه. ثم عاد إلى غرناطة . وهمنا يبدأ عهد جديد في حياة ابن خلدون يتفوق فيه الدرس والبحث العلمي على مهام السياسة والدولة . لم يتم إلا قليلا في غرناطة حتى اتهم بالاشتر ال فى التآمر على خصمه ابن الحطيب. فعاد إلى تلمسان و إلىخدمة أمير ها مرغماً مثالمًا ، ثم عهد إليه الأمر بأن يسعى فى اسمالة بعض القبائل العربية القوية فانتهز الفرصة للفرار ، وأقام أعواما أربعة فى قصر منعزل تحفه السكينة المقدمة ، وهنالك بدأ كتابة مؤلفه التاريخي العظيم .

وإذكان وضع هذا المؤلف يتطلب المراجعة في مكتبة عظيمة ، فقد سافر ابنخلدون إلى تونس حيث رحب به السلطان أبو العباس وأكرم مثواه، وقدر مشروعه العلميبالرغم من دسائس البلاط والبطانة، ولكن ريبا معيناحل السلطان على أن يقصيه عن جانبه، وأن يدفع به إلى البعثات والرحلات المتكررة ، حتى أن المؤرخ لم مجد شيئاً من الحرية التي كان ينشدها لإتمام مشروعه العلمي، فانتحل الحج عذراً للسفر، واستقل مركبا إلى مصر فىسنة ١٣٨٧م، فرحببه طلبة العلم هنالك وبدأ إلقاء محاضراته في جامعة الأزهر الطائرة الصيت عندئذ ، ثم عنن أستاذاً للتعلم في ذلك المعهد العالى . وأخبراً أسند إليه منصب قاضي قضاة المذهب المالكي . فني ذلك المنصب تجرد ابن خلمون لمحاربة البدع الدينية والخروج على الفرائض، فثار عليه حماعة من المتعصبان الذين تأثر ت مصالحهم الشخصية بتشدده، وأضمروا له العداوة والبغضاء . وأراد الشعب القاهري ــ ذلك الشعب المرح المولع باللهو الذى وصفت لنا قصص ألف ليلة وليلة كثيراً منصوره وعواطفه في عهد الماليك ــ أن يتخلص من المغربي الأجنين: فاستقال المؤرخ من منصبه وتفرغ إلى الدرس ثانية . وذهب ليقضى بقية أيامه في قرية من أعمال الفيوم فيسكينة لم تتخللها سوى رحلة إلى الحجاز لقضاء مناسك الحج . وفى سنة ١٣٩٩ م عين ابن خلدون قاضيا للقضاة مرة أخرى فعاد إلى سابق جهوده فى الإصلاح ، حتى توفى معضده وصديقه السلطان برقوق سنة ١٤٠٠ م ، ففقد منصبه مرة أخرى . وكان نماليك مصر قد اعتروا أنفسهم حماة الإسلام ضد المغول منذ

وكان مماليك مصر قد اعتبروا أنفسهم حماة الإسلام ضد المغول منذ انتصار المظفرقطز على هولاكو فى عن جالوت بالشام سنة ١٢٦٠م ، واقتاد قائدهم الشهير بيىرس الذى انتزع أنطاكية من الصليبيين سنة١٢٦٨ شخصاً زعم أنه من سلالة العباسين يسمى أبا القاسم أحمد ، واعترف به رئيساً روحيا . فلما اعتنق المغول الإسلامكان التنافس بيهم وبن المصريين اللدين استأثروا بتراث العباسيين وحمايتهم، وتأثر تيمور لنك بذلك التنافس فظهر في سوريا سنة ١٤٠٠ م على رأس أجناده التتار غازيا لدولة تيموجن . فهرع إلى لقائه السلطان فرج، واصطحب معه ابنخلدون ولكن القتال لم ينشب بن التتار و المصرين، إذ نمى إلى السلطان أن القلاقل دبت في أنحاء مصر فعاد أدراجه إلى القاهرة تاركا السوريين إلى قضائهم. ورفضت الحامية المصرية في دمشق التي كانتيمور لنك محاصرها أن تفاوضه فانسل ابنخلدون سرآ إلى المعسكر التترىء وقابل تيمورلنك وقدم إليهُ القسم المتعلق به من تاريخه العام . ثم أوفده الفاتح إلى القاهرة مع نقر من العلماء . وبينما اتجه تيمور إلى الكرجوالأناضول حيث هزم بايزيد المثماني فى أنقره فى ٢٠ يوليه سنة ١٤٠٢م شر هزيمة وأسره ، عاش ابن خللون فى القاهرة عالما وفقيها ضليعاً، وعين مرارا أخر فىمنصب قاضى القضاة حتى توفى فى الرابعة والسبعين من عمره فى ١٥ مارس سنة ١٤٠٦ .

### - Y -

من شاء أن يفهم مؤلف ابنخلمون وأن يدرك سرعبقريته وابتكاره، فعليه أن يتلمس ذلك السر فيحياة المؤرخ وأقواله المقترنة محوادث-عياته وتقلباتها ، وأدوار رفعته ومحنته ، إذ من القواعد الثابتة أن بجرى تطبيق العمل على النظريات: وأن هذه ترجع إلى ظروف الحياة اليومية . على أن ابنخلمون لم يتجشم كبير عناء في ذلك التطبيق، لأن ما أخرج للناس بعضه مستمد من رسوخ قدمه في العلم و ذكائه الحارق في النفاذ إلى أغُّواره، وبعضه مستمد منمشاهداته وملاحظته للمؤثر اتالتي تتأثر سامن عادات الشعوب وأخلاقها ، وبعضه أثار اضطرابات في أعماق نفسه . فقد رأى ِ ودرس كل شيء، ولم تحمد نار فؤاده الملتب ، أوتهدأ ثائرة حياته الحافلة بمختلف الحوادث، إلا بعد أن ارتوى من مناهل المشرق وألم بمعارفه، وأغدقت عليه مصر والمغرب من كنوزهما أبما إغداق . كان هوى العلم وظمأ المعرفة، يدفعانه إلى اختبارالأمور وتمحيص الحقائق ، وقد نبذ غهار الحياة السياسية ليغوص في محار الدرس ويعالج صنوف التأليف، وماكاد يتنفس نسيم الراحة ، حتى برز إلى ميدان الاختبار والتحصيل العملى . وللسنىن الأُخرة الَّتي قضاها ابن خلدون بمصر مزية خاصة ، فقد تولى هنالك منصب قاضي القضاء مراراً ، غير حافل بماكان يثيره الحصوم في وجهه من المتاعب والصعاب، فلم تثنه دسائسهم أو نحيفه نضالم بل سرعان ما تبين السلطان علمه وفضله حيى دعاه إلى القضاء فلي الدعوة . ولم تدفع المؤرخ إلى تقلد مناصبالسلطة والحاه عوامل مادية، بل كان الدافع شغفه بتحقيق المعارف النظرية في عالم الحقائق الوحشية، وإثبائها بالتجارب الحسية.

ولذلك المزج بين العلم والحقيقة العملية أثر ظاهر فى مؤلف ابنخلمون، بل هو منشأً السراعة الرائقة التي امتاز بها المؤرخ ، بعد أن ألقت به غار الحوادث إلى خدمة كل ملوك عصره فى إفريقية والأندلس . على أننا نلاحظ أنه لم بجد ثمة مجالا يتسع فيه الإعراب الحق عما فى نفسه وسريرته . كان ابنخلمون إذا عني مسألة سياسية، محرص على ألاً يتكبد في نجاحها أقل غرم . وكان عرضة للتأثير والاسمالة ، بعيداً عن حياكة اللسائس . وكان الإخلاص والثبات علَّى المبدأ أهم صفاته . وكان إذا ما جني ثمار عمله بجنها بمهارة خارقة، لم تتوفر في رجل من معاصريه . وقد نظيم لوالفه معيناً لاينضب من العلوم والمعارف التي كان يستقمها من حميع المصادر ، من الكتب العديدة ، ومن كل مصدر أو شخص احتك به ، من كل مسافر أو تاجر أوموظف: وكانت هذه المصادر تتقاذفه من كل ناحية ، فيعمها ويصوغها في قالب في رائع الفصاحة . وكان إماماً للغة لايترك فرصة تعرض لصقل عبارته الحضرمية ، فخوراً بعبارته العربية النقية . وقد تكللت جهوده في ذلك السبيل بالنجاح الباهر ، فقد كتب مؤلفه بالرغم من سرعة وضعه بأسلوب بديع وبيان ساحر .

من ذلك المعترك شاد ابن جلدون حصنا شائماً من العلم المتين ، والابتكار المطبوع . رغب المؤرخ المغربي عن المعرفة العامة الشائمة ، وأبي إلا أن يشق لنفسه طريقاً محدثة لم تطرق من قبل في عرض الوقائع ، والمتنائج التاريخية، نسقها بأسلوب طريف خاص به . وإن في لهجة التشاوم السائدة في أسلوبه ، وطريقة تدليله، لحجة دامغة على أن الظروف العملية للعصر الذي عاش فيه قد اقتعته بانحطاط الحياة العامة للفرد واللولة وأميار

دعائمها . كان المنظر الحارجي القصور المغربية براقاً أوخلابا تزهو فيه المعلوم والآداب ، ولكن سلطان الإسلام في المغرب كان يسر إلى التفكك والاضمحلال سبراً سريعاً مستمراً ، وكان البربر الذين تولوا الزعامة في المغرب مكان العرب، قد وصلوا عندئذ إلى ذروة بجدهم ، الزعامة في المغرب التي استأثر بها المرابطون والموحلون حينا إلى بهايها ، وألى ابن خللون ذلك الاضمحلال الذي كان يرقبه بعن ثاقبة ، محوطا بسياج من أنقاض السيادة الغابرة ، فكان يتألم لتداعي صروح الهيبة العربية أنما تألم . ولم يرق له أويرضه مدفوعا بالنزعة القومية، أن تتقدم المشوب الركية إلى زعامة الإسلام ، فقد كانت عربية ابن خللون أشد في أمار التحصيل الفي والتأثير النفسي . ولا يعترض على ذلك بانتسابه إلى أصل عربي نزح إلى الأندلس ، فإن اللماء العربية انسابت إلى عروق الغرب . وابن خللون عربي أندلسي صمم .

وعلى ذلك فهو رأس مبتكرة ومثل أعلى فى الآداب العربية . وقد اعتبر محق أنه أمام لمدرستى ميكافيللى وفيكو . ولأن كتب ابن خلدون تاريخ الرومانواليونان والقوط ، وألم بذكر الفرنج وتحليل نفسيتهم ، فإن العالم الغربي يضع اعتباراته دون سواها عما تداوله العالم الإسلامى ، موضع الاحترام ، فقد رفض منها الحانب الخرافى ، وتحرر من أصفاد التقاليد الإسلامية فى درس شئون المدولة والإدارة وغيرهما .

وقد حرر ابن خلدون ذهنه كذلك من القيود الفكرية التى ارتبطت فى عصره بالعقائد العربية الصحيحة، وكان آخر نجم سطع فى سهاء التفكير الحر . بيد أنه بجب ألا تقع فى نفس الحطأ الذى ارتكبه ابن خلدون، وهو المبالغة فى تقدير النرعة الحنسة . إن بن أعلام الآداب العربية رجالا ينتمون إلى شعوب مختلفة ، وإن صولة اللغة العربية بعيدة الأثر ، حتى فى نقس الشعب العربي الصميم ذاته ، ولاغرو فهى أصل دين عالى هوالإسلام ، بل هى أعرق فى ذلك مما كانت عليه اللغة اللاتينية بالنسبة النصر انية ، لأن كانت موثر الها أبلغ وأنفذ . كان كل مسلم متوسط التربية ، ملا على الأقل بأصول اللغة التى نزل بها القرآن ، وكان كل من يعنى بدرسها محاول أن عتلك ناصيها وأن يكتب بها وينظم . وكان متوسط التربية فى الشرق أرقى بكثير منه فى أوربا فى القرون الوسطى . ولئن قيل بأن المغول لم يسحقوا نظم التربية والمعارف العامة تماما ، فإن عواصف العصر المغولى يسحقوا نظم التربية والمعارف العامة تماما ، فإن عواصف العصر المغولى وما جرته من الويل كانت لها آثار بعيدة الغور .

وقد كانت الحوادث العاصفة التي شهدها ابن خلدون أو اشترك فيها ، دفاعا له إلى أن يتلمس من خلالها عوامل ارتفاع الدولة أو سقوطها . ويرى المؤرخ أن الحوادث التارغية تعرض حالة ثابتة . ومع اعترافه من الوجهة النظرية بإمكان انحرافها، فإن افتراض ذلك لايتعدى ثبوت الحوادث السياسية ، وهي حالة لم توجد في نظره . أدت به ملاحظاته ومشاهداته إلى أن يتكر صراحة ثبوت الحالة السياسية ، وأن يرى أمامه مقياسا ثابتا للرفعة والهبوط. وفي رأيه أن سلطان أسرة معينة لايدوم في الغالب إلا أجلا قصراً ثم يتلوه دور الاضمحلال لتلك الدولة القوية وقدرهذا الأجل بنحو مانة وخسين سنة ، واستنتجمن درس بهضة الدول المرابطية والمهدية (الموحدية) والمرينية ، أن الدول الركية التي بهضت فى عصره لن تعمر أكثر مما عمرته تلك الدول الإسلامية .

وكذلك يرى ابن خلدون أن كل شيء يتبع مجراه الأبدى ، فن البداوة والتجول ، تتحول الحاعات إلى الثبوت ، ثم تأتى الحضارة والرفاهية ويعقبها الاتحلال .

والحتى يقال إن قواعد ابن خلدون الفلسفية رائعة باهرة . فهو كسليل حق للمدرسة الإسلامية ، قد نظم معارفه المكتسبة عن طريق الاختبار والتجربة، إذ لاريب أن الحوادث قد أملت عليه أسلوبه وطربةته . وتبقى تلك الأصول صحيحةطبيعية بالنسبة للدول الإسلامية وحدها، لأن المؤرخ وإن يك قد امتزج شخصياً بأبناء قشتالة وحادثهم في تاريخ الفرنج وأحوالم ، فإن معارفه بالنسبة للعالمغير الإسلامى بتميت ناقصة مبتورة . بيد أنه يرى حوادث الدول العربية والبربرية حاسمة قاطعة . ويعتقد أن عاطفة الاجهاع هي أول عامل يقرب البشر بعضهم من بعض . ومنها تبرز الأسرة فالحاعة فالحنس. ومن الحنس تتكون الدولة . وفي الحنس أو اللمولة لابد أن تسود على الأفراد عاطفة القرمية أوالحنسية . ومن هنا تطرق ابن خلدون إلى فكرة و الوطنية ،، التي هي في رأيه قوام اللولة وعمادها . ولقد درس باعتباره عربيا معضلة تلكالدو لالعربية، الَّي تُنهض فجأة ثم تنهار دعائمها كذلك ، وانهى إلى أن البربر والبرك يقرنون بأيناء الصحراء الذين قهروا العالم . أما الأخلاق فقد صورها المؤرخ أدق تصرير. وقد ضرب لنا مثلا حقاً بعرب شبه الحزيرة، الذين بهضرا بعد محمد، مستمسكين محياة البداوة والتقشف، ثم أضمحلوا بعد ذلك، ليوضح كيف مجب أن يستمسك بعرى القومية من يريد من الشعوب أن يظفر بهيبة العالم . وذهب إلى أن العرب لاتقوم دولهم إلا بزعامة نبى أوموثرات فكرية دينية . وتاك نظرية توثيد صدقها حوادث التاريخ. فمن الغريب المدهش إذن أن يشهد المرء دولا جديدة تقوم فى الحجاز والحزيرة وغيرهما، على دعامة فكرة الوطنية العربية . ثم أنه لاريب فى يطلان هذا الزعم وقد محا أثره فصل سوريا ، وجهود تبذل فى أن تحل بفلسطين أقلية يهودية مكان أغلبية عربية . على أن تقدير ابن خلدون لنفسية العرب لم يكن فى جميع الأحوال خلواً من الحقيقة والصدق.

وكما أن ابن خلدون يقدر أهمية الدين بالنسبة للعرب و بهضهم، فإنه لم يجرده كذلك من الأهمية بالنسبة للدول عامة، وهو ما ينتظر من كاتب مسلم . بيد أنه إذا كان قد وجه من الصغ مايعر به عن أهمية الدين، فإن تلك الصيغ أكثر تعييراً عن الطبيعة مما يدل على أنها لم تصدر من أعماق سريرته . وإنك لتشعر بذلك عندما تقرأ ماكتبه عن المقارنة بين أهل البدو وأهل الأمصار ، فقد ذكر أن أهل البدو أقرب إلى الحير والشجاعة من أهل الحضر، وأعجب باستعداد أهل البدو للنبوغ في العلوم والفنون، وذهب إلى أن الصفات العربية القديمة لم تك تنقصها آية من آيات الحضارة الى أزهرت في غرناطة والقاهرة . وهذه ثغرة بين النظر والتطبيق في فلسنة ابن خلدون .

ولقد رسم ابنخلدون قاعدة ثابتة لرفعة الأسر واضمحلالها ، لأن الدولة والملك فىنظره كما هما طبقاً للتعالم الإسلامية أصلان\لاينفصلان^

 <sup>(</sup>١) ولكن تامت بالأندلس في إشبيلية وقرطة جمهوريات أرستوتراطبة صغيرة
 لآماد تسمرة

وهذا سبب تفريقه الحاد بن مهام الحلافة الدينية والسلطة الدنيوية (السياسية)، والظاهر أنه يرى المثل الأعلى لذلك في الدولة الأمرية. فقد قامت من بعض الوجوه بمناوأة تعاليم محمد. ووثبت مع العباسين نزعة دينية، استباحوا معها أن يقذفوا الأمويين بعد سقوطهم بكل إثم وتقيصة، ونزح عبد الرحمن الأموى إلى إسبانيا فيقيت هنالك التقاليد العربية القديمة حية زاهرة ، حتى نزحت الأتدلس عبا ثوب المشرق ، وعفت آثار الجداوة حيناً ففذت إلى على الإسباني تلك الأفكار الحرة الى سادت حيناً في البلاوة حيناً ففذت إلى ما للسلم الإسباني تلك الأفكار الحرة الى سادت حيناً في البلاط الأموى .

وقد انتقص ابن خلدون من بين صفات الملك العربي الذي تعتبره الرعية محوطا يبعض الحواص الدينية خاصة الاستبداد ، وقال إما علامة من علامات سقوط الدولة ــ وهذا الرأى يشبه نظرية أرسطوني الاستبداد وقد كان ابن خلدون ملما بفلسفته تمام الإلمام .

ومما يستدعى النظر ويستحق الإعجاب، ملاحظات ابن خللون عن تأثير الحو، وظروف الحياة فى تكوين أخلاق البشر وأبدانهم . فقد ذكر أن الربرى يعيش فى الصحراء عيشة العربى ، بينا يتخذ فى مرتفعات جبال الأطلس صفات خاصة، ويبتى محتلفا عن العربى تمام الاختلاف . وقارن بين مميزات الزنجى والمصرى وغيرهما . أما فصوله الحغرافية فلا تكاد تحتلف عما كتبه العرب فى القرون الرسطى، على أنه كتب فصولا كثيرة عن إدارة الدولة تشهد بعظيم كفايته العملية . وقد أوضع كذلك يعية المال وبعد أثره فى قوى الدولة الداخلية . وذكر كيف يقضى سوء الإدارة المال وبعد أثره فى قوى الدولة الداخلية . وذكر كيف يقضى سوء الإدارة المالية والإسراف ، دائماً على الدولة ابالهناء، وذلك حيا تضعضع

القوى العسكرية والمالية وتشتد زيادة السكان ، وتختني الرغبة في التغلب على شعوب همجية جديدة، وكيف أن عملية التحول من البداوة إلى أرقى درجات الحضارة ، والاستحالة من هذه إلى الاضمحلال ، عملية أبدية ، وأنها في نظره لاتستمر بالنسبة للدولة أكثر من ثلاثة أجيال أو أربعة ي وقد يلوح للألماني في الوقت الحاضر أن مثل هذه المبادئ الفياضة البالتشاوم ليست على الإطلاق من مبتكر اتمفكر أجنى ، فإن الإمراطورية الألمانية لم تعمر إلا أجلا قصراً ، ثم ذوى غضمًا غض الإهاب إلى عالم الفناء بسرعة خارقة . فهل يجبأن نبحث لتلك المأساة عن أسباب غير التي أوردها الكاتب العربي عن سقوط المرابطين ، والموحدين ؟ إن مبادئ ابن خلمون تقدم الآن إلى المتأمل فرصة صادقة : يقف مؤرخ الحضارة الإسلامي العظم وحيداً في المشرق لم يعقبه خلف ولم ينسج على منواله ناسج . ويطبق ماكان يشعر به أويدعو اليه على أوريا في القرن التاسع عشر أصح تطبيق وأتمه . وتدوى ميول المفكر والسياميي الإفريقي في معترك الحوادث مهما كانت وجهتها، دويا يتردد صداه في عالم أفكار عصرتا . والظاهر أنه ليس للإنسان أن يؤمل أن يظفر من ذلك التكرار بنهاية أو غاية . على أنه ليس ثمة من ضرورة لأن يستسلم المرء إلى استنتاجات المؤرخ الفياضة بالويل ، وفي وسعه أن يقتطف من رياض مؤلفه هتافه المقدس : ﴿ إِنَّ العَاطَفَةَ القوميَّةُ وَالوطُّنيَّةُ الصَّحِيحَةُ والعزيمة الرامحة تستطيع أن تهدى شعباً هوى إلى ظلمات القدر الحائر، ،

## ابن خلدورن

بقلم الملامة المؤرخ الإنجليزى أرنولد توينبي Arnold Toynbee

من کتابه

A Study of History, Vol. III.
The Growth of Civilisations
(Oxford University Press 1956)

P. 321 — 328 مترجمة بقلم المؤلف

#### ان خلىوت

يقول الأستاذ تويني في بحثه المشار إليه بعد أن تحدث عن توكو تيلوس، وإكسنوفون، ويوسيفوس، ومكياڤيللي، وبوليپيوس ولوردكلارندون، وآخر عضو من نجومنا المؤرخين ، هو عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرى المولود بتونس ( ١٣٣٢ – ١٤٠٦ م ) وهو عبقرية عربية ، استطاعت أن تحقق في فرَّرة هدوء ، استمرتُ أقل من أربعة أعوام ، من أربعة وخمسن عاما من حياة ناضجة عاملة 1 عمل الحياة ، في صورة قطعة من الأدب ، عكن أن تقارن بعمل ثيوديد ( توكوتيدوس ) أو عمل مكياڤيللي ، وذلك من حيث عمق الأفق واتساعه ، ومن حيث القوة العقلية المحضة ، وإن نجم ابن علمون ليبدو أكثر تألقاً إزاء كثافة الظلام التي خيمت أمامه . ذلك أنه بينها نجد ثيوديد ومكيافيللي ، وكلار ندون ، كلهم نماذج ساطعة لأوقات ساطعة ، إذا بابن خلدون بيدو وحده نقطة الضوء الوحيدة في ذلك الأفق ، وأنه بلا ريب هو الشخصية البارزة في تاريخ حضارة ، كانت حياتها الاجماعية على العموم ( منعزلة ، مسكينة ، قذرة ، متوحشة ، قصرة الأمد ، وأنه في الميدان الذي اختاره لنشاطه العقلي ، ليبدو أنه لم يستوح أحداً من أسلافه ولم بجد أقرانا بن معاصريه ، كما أنه لم يشعلْ شرارة إلهاممجاوبة فى أحد من خلفائه . ومع ذلك فإنه فى المقدمة التى وضعها ( لتاريخه العام ۽ ، قد ألهم وصاغ فلسفة للتاريخ ، هي بلا ريب أعظم عمل من نوعه ، ابتكره أى عقل فى أى عصر أو فى أى بلد ، ولقد كانت تلك الفترة الهادثة الوحيدة القصيرة من حياة نشاط عملى ، هى التى أمدت ابنخلدون بفرصته ، ليصوغ فكره الحالق فى شكل أدبى .

ولد ابن خلدون العالم العربى فى عصر ، كانت الحضارة العربية الناشئة تكافح فيه (كما تبن عبثا) لكى تحقق النظام خلال الفوضى ، التي ورثما من عهد انتقال حديث ، وقد كان هذا العهد ( منذ نحو ١٢٧٥ – ١٢٧٥ م) تقيجة الأميار الحلافتين العباسية والأموية ، وهما اللتان كانتا آخر شكلين المدولة السورية العامة . وفي المهاية الفريية المدولة السورية المهارة – في شهال إفريقية وفي شبه الحزيرة الإيرية – كانت الآثار الأخيرة للنظام القدم ، قد اكتسحها سيل من العربر ، انحدووا من ثلاث قارات : الأشتورية الأوربية ، والفرنج عبر جبال العربية والبدو الإفريقيون من الصحراء ومن أعالى الأطلس ، وهم الذين جعلوا من أنفسهم أفضل طوائف العربر ؛ والبدو الأصيويون من وهاد شهالى الحزيرة العربية ، وقد كانوا أشد هولاء بربرية وتخريبا .

وقد وقف ابن خلدون فى موطنه على عيث أولئك البربر من تاريخ أسرته ، ومن تجاربه الحاصة . كان بنو خلدون أسرة ناجة من أشراف إشبيلية ، نزحت من الأندلس إلى إفريقية ، قبل مولد ابن خلدون بنحو قرن ، وذلك توقعاً لسقوط إشبيلية فى أيدى القشتالين . وقد استطاع عبد الرحمن أن يقارن فى إفريقية وهى موطن الأسرة الحديد ، ظروف جيله كما شهدها ، يأوصاف إفريقية فى العصور السابقة ، وهى المى قرأها فى المؤلفات التاريخية ، وقد تأثر بلا ربب بعظم الفرق بين الحاضر

والماضى ، واقتنع بأن الفرق نحو الأسوأ ، الذى حدث فى القرون الثلاثة الآخيرة ، كان من صنع قبائل العرب البدو ، بنوهلال وبنو سُلميم ، وهم الذين أطلقهم الدولة الفاطمية المصرية فى سنة ١٠٥١ م ، نحو المغرب الثائر .

يقول ابن خلدون فى مقدمته : « وكذلك إفريقية والمغرب لما جاز إليها بنو هلال وبنو سليم منذ أول المائة الحامسة وتمرسوا بها الثلثائة وخمسين من السنين ، قد لحق بها وعادت بسائطه خرابا كلها بعد أن كان ما بين السودان والبحر الرومى كله عمرانا ، تشهد بذلك آثار العمران فيه من المعالم ، وتماثيل البناء وشواهد القرى والمداشر ه(١).

كان ابن خلدون يشعر بالفرق بين هذه الغزوة العربية المخربة ، و الحركة التي حملت أجداده قبل ذلك بنحو ثلاثة قرون أو أربعة ، على الهجرة من حضر موت إلى الأندلس . ذلك أن هوالاء المبعوثين من قبل الدولة الأموية ، قلموا إلى المغرب لا المتخريب ، ولكن التعمير ، وقلموا ليحلوا عمل الحاميات الرومانية السابقة والموظفين الرومانيين السابقين ، ولكى يستر دوا المجتمع السورى القديم ، في عهده المتأخر ، السلطان الاستعارى السابق ، الذي جرد منه ملى ثمانية أوسعة قرون من الحكم الأجنبي .

يقول ابن خلدون : « ثم جاءت الملة الإسلامية ، وظهر العرب على سائر الأم بظهور الدين ، فسارت فى المغرب ، وافتتحوا سائرأمصاره ومدنه . ولم يسكنوا بأجبالهم فى الحيام ، ولانزاوا أحياء ، لأن الملك

<sup>(</sup>١) المقدمة ص ١٣٦ فى القصل المعنون يرفصل في أن العرب إذا تظلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب ي

الذي حصل لهم بمنعهم من سكني الضاحية ، ويعلل بهم إلى المدنو الأمصار ، فلهذا قلنا إن العرب لم يوطنوا بلاد المغرب، ثم إنهم دخلوا إليه في منتصف الماثة الحامسة ، وأوطنوه ، وافترقوا بأحيائهم في جهاته 애. إن أولى الفقرتين اللتين اقتبسناهما هنا من تاريخ ابن خلدون ، تقع فى فصل رمما كان أقسى الهام للحكم البدوى لسكان الحضر ، يصوغه قول شاهد من الطراز الأول ، ولكن الفكرة التي كانت تختلج في ذهن ابن خلدون من جراء جزعه من العيث الذي قام به البدو بالمغرب ، لم تقف جاملة هنا ، بل مضت قُدُما محركة منز ايلة ، لتتأمل الفرق بن طريقة الحياة في البدو وفي الحضر ، ولكي تحلل طبيعة كل مهما ، وتدرس الحاعة ، أو عاطفة الضان الاجتماعي (العصبية) ، التي هيرد البدوى النفسي على تحدى الحياة في الصحراء ، ولتجد رابطة بين السبب والمسبب ، بن العصبية وإنشاء الدولة ، وبن إنشاء الدولة ، والدعوة الدينية ، ومن ثم يتسع نطاقها ، حتى تحتضن أخبراً في حلم رائع ، قبامالدول وسقوطها، ونشوء الحضارات ونموها ، والهيارها، والحلالها. هذه النوحة الشاعة مزالتفكير ، بساقها الباسقة ، وفروعها المنتظمة المَّاثلة ، وأعضائها الدقيقة المنسقة ، كانت هي الثُّرة المحتملة للبذورالتي كمنت في عقل عبدالرحمن الفتي ، تحت تأثير التباين بن الحاضر والماضي فى وطنه إفريقية . على أن ابن خللون لم يبدأ حياته بالحلوس لكى ينظم هذه الأفكار المتفتحة ، فقد كانت ثمة مهمة تبدو أحق بالعناية ، هي أنْ يوضع شيء من أسباب النظام للحياة الاجهاعية المضطرمة المنحلة ، في إفريقية المعاصرة . وكانت هذه هي المهمة التي رأى القتي أنه مدعو إلىها

<sup>(</sup>١) كتاب المبرج ١ صر ١٢،

بياعث من تقاليد أسرته ، ومنحاجنه الشخصية لمل كسب عيشه . وهكذا ، ألني عبد الرحمن بن خلمون نفسه فى سن العشرين سائراً فى أثر أسلافه ، بالانتجاس فى السياسة المحلية، كرجلحاشية، ووزير دولة .

وإن قصة المغامر العربى، كما يدونها في ترحمته ، عن حوادث حياته مدى الاثنين وعشرين عاما التالية، لاتذكر طالب التاريخ الحديث الغربى الذي يقرآ القصة في سنة ١٩٣٥، بشيء أكثر من حياة سياسي صيني عدث من الطراز الغربى، مدى نفس الفترة ، التي مضت منذ اضطرام الثورة الصينية . فلقد كانت في الواقع حياة و لقاء بالليل ، ورحيل في المساح ٤ . ذلك أن ابن خلدون ، خلال تلك الفترة ، ن اثنتين وعشرين عاما ، التحق مخدمة سبعة أمراء مختلفين على الأقل ، وقد كان ارتحاله عن كل من أو لئك الأمراء مفاجئاً وعنيقاً . وفي إمارة وطنه تونس ، عن كل من أو لئك الأمراء مفاجئاً وعنيقاً . وفي إمارة وطنه تونس ، عن كل من أو لئك الأمراء مفاجئاً وعنيقاً . وفي إمارة وطنه تونس ، عن اضطلع بأول أعماله ، لم يبق أكثر من بضعة أسابيع ، ثم نواه بعد ذلك يبدو خلال فرات قصيرة ، أحيانا في فاس ، وأحيانا في غرناطة (. حيث قام مخدومه يإرساله في سنة ١٣٦٣ ، في سفارة إلى بلاط بطرس القاسي بإشبيئية ) ، وأحيانا في هذه المدينة أو تلك من مدن إفريقية بفرس كل هذه التنقلات ، كان ملاذه الوحيد الهادئ هو الأخر .

وفى ربيع سنة ١٣٧٥ ، كان ابن خلدون قد استقر فى تلمسان فى كنف أميرها، ليقوم بالتدريس العام بدلا من الاشتغال بالسياسة ، بيد أنه خطر لهذا الأمير أن يرسل ضيفه العلامة فى مهمة سياسية إلى قبيلة عربية بدوية فى الداخل<sup>67</sup>.

 <sup>(</sup>١) هي قبيلة ، الزواودة ، ، وكانت قد حدثت وحشة بينهم وبين أبي هو أمير
 تلمسان ، ثم رأى أنه في حاجة إلى استثلاثهم (كتاب المعرج ٧ ص ٤٤٤) .

يقول لنا ابن خلدون فى التعريف : ﴿ فَاسْتَدْعَانَى ﴿ أَعْنَى أَمْرِ تلمسان ، وكلفني بالسفارة إلىهم في هذا الغرض ، فاستوحشت منه ، ونكرته على نفسى لما آثرته من التخلى والانقطاع ، وأجبته إلى ذلك ظاهراً ، وخرجت مسافراً من تلمسان حتى انتهيت إلى البطحاء ، فعدلت ذات الىمن إلى منداس ولحقت بأحياء أولاد عريف قبلة جبل كزول ، فلقونى بالتحف والكرامة ، وأقمت بينهم أياما ، حتى بعثوا عن أهلى وولدى بتلمسان ، وأحسنوا العذر إلى السلطان عني في العجز عن قضاء خدمته، وأنزلوني بأهلي في قلعة أولاد سلامة من بلاد توجين، التي صارت لهم بإقطاع السلطان ، فأقمت بها أربعة أعوام ، متخلياً عن الشواغل ، وشرعت في تأليف هذا الكتاب وأنا مقم مها ، وأكملت المقدمة على ذلك النحو الغربب الذي اهتديت إليه فَىٰ تَلَكَ الْحُلُوة ، فسالت فها شآبيب الكلام والمعانى على الفكر حتى امتخضت زبدتها ، وتألقت نتائجها . ولما نزلت بقلعة ابن سلامة من أحياء أولاد عريف ، سكنت بقصر أبي بكر بن عريف ، الذي اختطه بها ، وكان من أحفل المساكن وأوفقها ، ثم طال مقامى هنالك ، وأنا مستوحش من دولة للغرب ، وتلمسان ، عاكف على تأليف هذا الكتاب ع(١٠).

وهذا الرضى المرح الذى اكتسب بالحيلة ، قد تحقق فى ظروف مختلفة جداً ، وقبل بروح تختلف جداً عن الرضاءات الثلاثة التى مرت بحياة كلارنلون . ومع ذلك فإن إقامة العربى الوحيدة السريعة فى قلعة

 <sup>(1)</sup> التعريف بابي خلدون . في كتاب العبر ج ٧ ص ٤٤٤ و ٤٤٠ . وقد أتينا هنا بالنص الأصلى لما أو دد الإستاذ توينبي مترجماً عن هي سلان .

ابن سلامة ، أسفرت عن عمل عبقرية أعظم من أى شىء نتج من الإقاماد المتعاقبة التى قضاها الإنجليزى الهادئ فى چرسى ومدريد ومونبلييه وذلك بالرغم من أن الأربعة أعوام التى قضاها ابن خلدون فى العزلة . كانت هى الحادثة الوحيدة من نوعها فى حياته الطويلة كلها . ذلك أنه ماكاد يغادر أسوار قلعة ابن سلامة الصديقة ، حتى عاد ينغمس فى تيار الحوادث ولم يستطيع بعد ذلك قط أن يتخلص منها .

ولم يتضح من رواية المؤلف ما إذا كانت رغبة الدرس أووحشة السأم، هيمائي جذبته ثانية إلى العالم، ولكن اللمىلاريب.فيه ، أنه لم يكن مثل كلارندون مجيبا لدعوة الواجب العام .

فهو يقول لنا في التعريف: « وقد فرغت من مقدمته (أي كتاب العبر) إلى أخبار العرب والبربر وزنانة ، وتشوفت إلى مطالعة الكتب والدواوين التي لاتوجد إلا بالأمصار ، بعد أن أمليت الكثير من حفظى وأردت التنقيح والتصحيح . . فحدث عندى ميل إلى مراجعة السلطان أبي العباس والرحلة إلى تونس حيث قرار آبائي ومساكهم ... فبادرت إلى خطاب المسلطان بالفيئة إلى طاعته ، والمراجعة ، فما كان غير بعيد وإذا مخطابه وعهوده بالإذن والاستحثاث القدوم ، فكان الحفوق المرحلة ، فظمنت عن أولاد عريف، (١) .

ومن ذلك الحريف ، خريف سنة ١٣٧٨ ، حتى وفاته فى ربيع سنة ١٤٠٦ ، أعنى بعد ذلك بنحو ثماتية وعشرين عاما ، لم بجد ابن خلدون قط ملاذا يستطيع أن يتحرر فيه ذهنه من المشاغل . فلم تنجح

<sup>(</sup>١) كتاب العبرج ٧ ص ١٤٥.

تجربته فى العود إلى الحياة العامة فى بلده . وبعد أربعة أعوام ، غادر تونس إلى الإسكندرية ، ولم يعد بعد ذلك قط إلى وطنه المغرب . وقد حاول ابنخلدون ، حتى فى مجتمع مصر الأكثر استقراراً ، أن يذكي شيخوخته بكثير من الفرص والتغييرات ، التي كانت تمتع شبابه في للغرب المضطرُّب ، ولم تفعل المكانة الشخصية المرموقة التي وصل إلمها إلا أن زادت من أعدائه . وفي العشرين عاما الي انهت بوفاته في سنة ١٤٠٦ ، عن ست مرات لأحد مناصب القضاء الأعلى الأربعة ، بالقاهرة ، وعزل خس مرات يجوت في النهاية ظافراً بشغل منصبه ، وذلك لعشرة أيام من تعيينه . وكان فى كل مرة تولى فيها المنصب يخجل زملاءه وخصومه ، بأن يكشف بقسوة عن تقاضهم الرشوة في تنفيذ القانون ، وعن جهلهم به ، وهو إذلال مزدوج لّم يكن بوسعهم أن يصفحوا عنه . ولم يقفُ الأمر في حياة الفيلسوفُ المغربي بمصر ، عند هذه الحصومات القضائية . ذلك أنه قبيل عزله الأول ، فقدت أسرته وسائر ما مملكه في البحر ، وذلك عند مقدمها من إفريقية لتحلق به مستقره الحديد عصر ، وفي الفترة التي مرت بن توليه منصبه القضائي للمرة الثانية ، وتوليه إياه للمرة الثالثة ، وقع بدمشق لقاء بينه وبين تيمورلنك ( تيمور الأعرج) ، فكانت مغامرة أعظم وأبعد ملى مْن لقائه أيام شبابه ببطرس القاسى ، قبل ذلك بسبعة وثلاثان عاما .

تلك هي الظروف المضطرمة ، التي حقق فيها عبد الرخن بن خلدون وعمل الحياة ، الذي أقدم عليه ، حينها بدأ بإملاء مقدمته الفريدة خلال استقراره الحالق بقلعة ابن سلامة . أما مهمة كتابة و التاريخ العام ، الذي كان ينتويه ، فلم تحقق إلا بعد أن تلت و المقدمة ، سنة مجلدات أخرى. وفى وسعنا أن نفتر ض أنهذه الستة أسباع من الكتاب، ماكانت لترى الضياء قط ، إذا لم يكن تأليف المقدمة الناجح ، خلال هذه الأعوام الاستثنائية الأربعة من الهدوء ، قد أمد الفيلسوف بدافع للكتابة . استمر خلال الأعوام التالية المليئة بالاضطراب . وبجب أن نزيد بأن القيمة النسبية للأجزاء الختلفة من المؤلف، باعتبارها و قنيات خالدة ، لا يمكن أنْ تقاس بأى مقياس كمي ، وأنه إذا كان الخلف قد ووجه بالاختيار القاسى بنن فقد الحزء الأول وحده من تاريخ ابنخلدون . أو إنداذ المقدمة مم تضحية الستة أجزاء الأخرى . فإننا لن نتردد في تضحية الأجزاء الستة، التي عني المؤلف بوضعها بعدخروجه من قلعة ابن سلامة . وذلك لكي تحتفظ بالحزء الواحد الذي أنتج في ذلك المقر الهادئ. والحقيقة أن • عمل الحياة » بالنسبة لابن خلدون . هو العمل الذي أتمه فى الأعوام الأربعة التي خصصت للإنتاج من بين نصف قرن أنفق في دوامة من النشاط في الحياة العامة. ولم يكن خروج الفيلسوف العظيم من عزلته القصرة هو الفصل الثانى من حياة عملية . ينافس فها مجالات التفكير في الأولى . فن ناحية نجد ابن خلدون الذي غادر قلعة ابن سلامة في خريف سنة ١٣٧٨ ، يسترد في تونس والقاهرة ، دور السياسي المضطرم ، الذي حصل على حريته بنزعة غريبة من بلاط تلمسان في ربيع سنة ١٣٧٥، ومن ناحية أخرى نجد رِجل الأعمال العابر ، يعود من عزلته، وقد تحول نهائيا إلى الفيلسوف الحالد ، الذي ما زال تفكيره يحيى فى ذهن كل من قرأ المقدمة .

## فهرست الموضوعات

## الكتاب الأول

## حياة ابن خلدون

### ١ – في المغرب والأندلس

India
ممعه الفصل الأوكر بريشأة ابن خلمون ١٤
(١) أسرته ۱۲ ۱۱ اسرته
(٢) نشأته الأولى ٢١ ٢١
الفصل الثانى : ابن خلمون فى بلاطفاس ٢٤
(١) إفريقية في القرن الثاءن الهجرى ٢٥
(٢) ِ ابن خلدون والسلطان أبوعنان ۲۳
الفصل الثالث: رحلة الأندلس بي ٢٤
الفصل الرابع : ذروة المغامرة ١٠٠ ١٠٠ ١٠٠
الفصل الحامس : العزلة والتأليف ١٢٠ ١٢٠
٧ ـــ اين خلدون في مصر
الفصل السادس ببكولاية التدريس والقضاء ٧٢
(١) ابن خلدون في القاهرة ٢٣
(٢) ولاية القضاء الأولى ٢٨
الفصل السابع : في دمشق و في معسكر تيمور لنك ٨٧
(١) ابن خلدون وتيمور ١٠٠ ١٠٠

## - Y1A --

منمة الفصل الثامن تركين خلدون والتفكير المصرى ٩٨
(١) الخصومة بينه وبينالكتابالمصريين
(۲) این خلدون واین حجر ۱۰۱
(۳) این خلدون والمقریزی ۱۰۵
(كخة) مقامه بمصر وقبره ۱۱۳
الكتاب الثاني
تراث ابن خلمون الفكرى والاجباعي
الفصل الأول : علم العمر ان كما يعرضه ابن خلفون ١١٦
(١) علم العمر أن البشرى ١١٨
(٢) مقلْمة ابن خلمون
الفصل الثانى : علم السياسة والملك قبل ابن خلدون ١٣٤
(١) ابن قتيبة والفارابي ١٣٦
(٢) رسائل إخوان الصفا ٢٠٠٠
(٣) الأحكام السلطانية للماوردى ١٣٩
(٤) سراج الماوك الطرطوشي ١٤٠
(٥) الفخرى لابن الطقطتي ١٤٢
الفصل الثالث : كتاب العبر والتعريف وآثار ابن طلمون الأخرى ١٤٦
(١) كتاب العبر أو تاريخ ابن خلدون ١٤٦
(٢) التعريف أو ترحمة آبن خلدون لنفسه ١٥٧
(٣) لباب الحصل (٣)
(٤) الحلل المرقومة ١٦٦
(٥) شفاء السائل بند بند بند ١٦٩

مغمة	and the sale of the sale
	الفصل الرابع : ابن خلدون والنقد الحديث
۱۷۰ .	(١) ُفيلسوف التاريخ
١٧٨ .	(٢) فيلسوف الإجباع
. ۲۸۲	(٣) ابن خلدون الاقتصادى
١٨٨ .	(٤) الفيلسوف الحامع
111	الفصل الحامس: ابن عُلْلُونَ ومكياڤيللي
148	(١) كتاب الأمير
	(۲) مكياڤيللى وتُراث ابن خلدون
	ملاحق
7.7	١ بيان فهرسي عن كتاب العبر ١
418	٢ - تراجم ابن خلدون بأقلام معاصريه
	ترحمة الحافظ ابن حجر ألله المستعدد المستعدد
44.	دُ شمس الدين السخاوي
YYY	۱ این تغری بردی
177	ا بن الخطيب ابن الخطيب
YYV	٣ - ثبت الصادر ٢٠٠٠
	رسائل غربية عن أبن خلدون
137	١ آراء حول نظرية ابن خلدون التاريخية بقلم العلامة ألتامير ا
	٢ - نظرية ابن خلمون في للسائل الإفريقية للفيلسوف أورتيجا
	٣ ــ ابن خلمون مؤرخ الحضارة العربى فى القرن الرابع عشر
779	للاستاذ فون ڤيستدنك
	<ul> <li>٤ - ابن خلدون للأستاذ أرنولد توينبي</li> </ul>
	ال عرف مين عرب رود وي

#### فهرست البلدان والأماكن

07307137713701301731773 171: 32 يستويا : ۱۹۸ بسکرة: ۲۲۱(۵-۷۵)۵۲۱ و۲۲۱۲۲ بنداد : ۲۷۰ بلاد الحريد: ۲۲۲ ، ۲۲۲ البلد الحديد : ٢٩ ، ٠٠ بولدنيا: ٢٠٤ 70 6 01 6 0A 6 Yo : 40 4 بيت المقدس : ٨٨ بيت غم : ٨٨ يروث: ۲۰۷ ين القصرين: ٧٩ ، ١١٢ تام ت : ۲۴ ، ۲۲۱ تسة : ۲۱ YIT: June 14.10 : 01-174479 CT : DL.J. 417444447 4 TY40V-0Y441 £747£7VV¢7V7¢7V1¢7Y1¢716 741 6 Y4Y ترجين : ۲۹ ، ۲۹۳ توزر : ۲۹ ۵ ۸۸ ۵ ۲۵۲ 4Y-- 1060262462162 - CT16T. Clos Clyscits Cliticalcut POISTISTAISOITSOTTSOTTS ATTYLETUS TYS ATT A CALL OF STATE OF ST AAY > YPY - FPY الجاسر الأزهر: ٢٧٩ ، ٢٢٩ ، ٢٧٧

YADLYYA اشيلية : ١٩٠١٨،١٦ ، ١٩٠٤٨،١٦ ter soly state tale clos 47.86179-177679670677670 إلبرة: ٨٤ الرية: ٢٣ ، ٨٤ الإسراطورية الألمانية : ١٨٥ ، ٢٨٦ الأناضول : ١٧٩ ، ١٧٨ العلقراء ووو €79677609607600-£167V670 CTTTCTTICTIOCIVICITACIOA أنطاكية : ٢٧٨ أتقرم : ۲۷۸ ( 197 ( 198 ( 198 ( YY : Ulle) YVY 4 Y-Y باب المحروق: ١٠ باب النصر: ۲۲۰ ، ۲۲۷ ، ۲۲۷ ، ۲۲۰

اسانيا : ١٧٩ ، ١٥٢ ، ١٦٤ ، ١٨٩

جامر عمرو : ۲۲۹،۲۲۹ حال الأطلس: ٢٨٥ جبال الرئيه: ١٢٩ ، ٢٨٥ حال عارة: ٣٥ حل تام ١ : ١٢٧ حيل طارق : ۲۶ ، ۸۵ المزائر : ٢٤ × ١٢٢٠٥٤ د ٢٤ ؛ ١١٢٠١٠ ألحزائر الشرقية ، ١٢٥ جزيرة الروضة : ١١٣ الحزيرة العربية : ١٢٨ ، ٢٨٩ الحمهوريات الإيطالية : ١٩٣ جناسابور: ۲۷٤ مَنْف : ۲۷۲ الحجاز : ۲۸۷ ، ۲۷۷ حران: ۲۷٤ حضر موت : ۱۹ حلب : ۸۱ ، ۸۸ ، ۹۱ وألحأنقاه الصلاحة : ١١٣ خانقاه بيرس: ١١٤ ، ١١٨ خزانة جأمع القروبين : ٢١٣٠٢٠٨٠١٦٨ خزانة الرباط: ٣١٣ دأر الكتب المرية: ٧٧ ، ١٦٩،١٦٠ ، \*1\*\*\*1\*\*\*\* 445: : VV) \$ A & A & A & A & C VV : . 544 4 TYACTT - CT 1 Y C 1 7 Y C 1 ألديار المصرية: انظر مصر ر باط أني مدين : ٥٥ 444 : A1 : V\$ : 147 : FVY رومة: ۲۰۲، ۲۰۴، ۲۷۲، ۲۷۲ الريدانية : ١١٣ ازاب: ١٤٤ YYY : 87 : 77 : 70 : 4 ...

سردائية : ۲۷۲ 17:3 الرقنة : ٢٢ المودان: ۲۹۰ سوريا : ۲۱۱ ، ۲۶۹ ، ۸۷۲ ، ۱۸۲ 178677: 4-4-(1776) - 0699 (90 CAX CVV : , 121) A773477441747777777 YYA الشرق الاسلامي: ١٤٩ المعيد: ۲۲ ، ۲۲۴ صفاقص : ۱۲٦ صقلية : ۲۰۲ ، ۲۰۲ ، ۲۲۱ ، ۲۷۲ المنن: ۲۷۰ طرايلس: ١٧٤ طنيحة : ٥٨ الم أق : ١٢٨ عن جالوت : ۲۷۸ \* YSYSYAS قارس: ۱۲۹ ، ۱۷۶ 6 171617.61746177610767. CTTOCTTICTIOCTTTCT.VCT.T \*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\* فرنسا : ۱۲۹ ، ۲۷۰ النسطاط: ١١٣ فلسطين : ٢٨٤ قرنتزا: ۱۹۳ ، ۲۰۴ ، ۲۱۲ قينا: ١٧٥ : ٢١٢ القيوم : ۲۷۷ ، ۲۱۷ ، ۲۷۷ قابس: ۱۲۱ ، ۱۲۱

1 1th 6: 350 550 AF0740 AP01010 القامرة: ۲۷-۲۷۶۲۲۶۶۸ ممروم 477047.74107410.412.4179 c YT. CYY4CY1YCY.461111442 OTT > FTT : AVT > 3 AT > FFT E4.-AACVYCYECYYCOTCLO: MAA قر الليل: ٨٨ 41.A 6 1.0 6 1 . . 69A 6 9069Y قبة الصالح: ٢٢٣ 4101610Y6Y1161YY611161.9 قرطة: ٥٧٧ 44144717471041774177-104 قرمونة: ١٧ ، ٢٧٣ \* قسطنطينية : ۲۰۳ ، ۲۱۳ \*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\* قسنطينة : ۲۸ ، ۲۸ ، ۲۸ ، ۱۹ ، ۱۹ ، ۱۹ ، ۲۸ ، ۲۸ ، سطمة به لاق : ١٦٠ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ 1776178 المغرب: ۲۹-۲۱،۱۹ ، ۲۹-۲۲،۲۹ ئشتال : ۱۹ ، ۲۹ ، ۲۶ ، ۷۶ ، ۳۸۲ VY223-F22F22 CATCATCA تعبية الحبراء: ٤٣ -A46A76A76V7674678677604 القمير: ٨٣ قفسة : ۲۱ ، ۲۲۱ -- 10 . clavelyAclyoclyaclyy القامة : ١٤٨ 47.467.261776104-10Y610Y قلعة سلامة : ۲۲ ، ۲۹۲ - ۲۹۲ \*/ Y > Y / Y > / Y Y > Y Y Y > P Y > / X Y Y > P Y > / X Y Y > / X Y > القبروان: ۱۲۵ ، ۱۲۹ ، ۲۷۵ 7406741674. 12,6: 41 المنرب الأوسط: ٤٢-٢٦، ٢١، ١٥، ٥٥-كنسة القلمة : ٨٨ aV المنرب الأقصى: ۲۲-۲۲-۲۸، ۵۰۱ و ۱ مالقة : ١٨ Y - Y - 179 - 119 المتحف البريطاني ٢١٢ ، ٢١٣ مقرة المبوقية : ۲۲۲،۱۱۳،۹۷ ، ۲۳۰ للدرسة البيبرسية : ٢٢٣ مكتبة الأزهر : ٢١٢ المدرسة الصالحية : ٢١٨ د ١١٢ ع ٢١٨ مكتبة الاسكوريال: ١٩٤، ١٦٦، ١٦٦ مدرسة صرغتيش : ۲۲۴ ، ۲۲۴ مكناسة : ٨٥ المدرسة الظاهرية : ٨٣ طيلة : ٢٦٦ المدرسة المادلية : ٨٩ الهدية: ١٢٤ - ١٢٦ الدرسة القمسية : ١١٣ ٥ ٨٧ ٥ ١١٣ ٥ الموصل : ١٧٤ 777477 ميورقة: ٢٣ النيل: ٨٢ : ١١٢ : ١٢٤ مرج فرناطة: ٤٨ : ٤٨ ، ٨٤ وادى آش : ٢٤ مرسي هنن: ۵۵ ؛ ۲۲

414 : Jell

المسجد الأقصى: ٨٨

#### فهرست القبائل والطوائف

إخوان الصفاء ١٣٦-١٣٦ اللولة الأسية: ١٤٨٤١٤٢٥١٤٤٤ Y4 - 6 YA 0 الأدارية: ١١٩ الدولة الحقصية : ٢٠ ، ٢٥ ، ٢٩ ، ١٧٩٠ الإسان: ۲۱ ، ۲۷۱ الدولة المرابطية : ١٩ ، ١٩ ، ٢٧١ ، ٢٨٢ الأغالبة : ٢٧٢ الإفرنجة، القرنج: ٢٨٢، ٢٨١، ٢٨١، ٢٨٩، الدولة المرحدية: ١٩ ، ١٥ ، ١٥ ، ٢٦ ، ١٥ ه ١٥ ، 7A747716177 آل اليت : ١٢٠ ، ٢٢٥ 184:189:174:37-78:19 الرومان: ١٤٨ ، ٢٨١ YSECTASCYATETALCIOT-74£610.61£V617£67767£:006; السلاجقة: ٧٩ ، ١٤٨ بتوالأحر : ٨٥١٤٨٤٥٣٠ الصليبون: ۲۷۸ ، ۲۱۱ بنو حقص : ۲۷۱،۲۹،۲۹،۲۹،۲۰ منياجة : ١٥٠٤١٢٤ Y 7 Y النجم: ۱۲۸ : ۱۲۲ ، ۱۲۲ ىتو خلدون: ١٦-١٦ ، ٢٩ ، ٢٩ ، ٨٤ ، ٨٨ بنوربيمة: ١٧٤ المرب:۲۲۰۰۲۷-۲۶۰۲۷ ۱۲۳۰۲۷ ۱۲۳۰ بتورياح : ۱۲۳ ، ۱۲۴ ، ۱۲۹ 4117 4 177 - 174 6 174 4 17V بتوزغيَّة : ۱۲۳ ، ۱۲۹ ، ۱۲۹ المرب الستمرية: ١٥٠ يتوسليم : ۲۲۰ ، ۲۲۱ ، ۲۲۸ ، ۸۲۸ : ۲۹۰ المرب المائية : ١٧ ، ١٧ يتوعباد : ١٩ يترالمياس: ۹۱ ، ۲۷۱ ، ۲۷۸ ، ۲۸۸ البلد الذي يا ١٩ - ١٥٣ - ٢٧١ الفاطبيون : ١٠٨ : ١١٩٤ : ٨٤٨ ع ٢٢٥ يتوعيد ألثومن : ١٩ ، ٨١ يتو عبد الراد: ۲۷۹،۲۲۱۱،۵۵۱ القرس: ۱٤٨ - ۱٤٨ 147: 147 بتوعلى: ١٧٤ ، ١٧٤ القراطة: ١٤٨ / ١٤٨ ت مرتف: ۲۹۴ ، ۲۹ ، ۲۹۴ و ۲۹۴ كتامة : ١٥٠ بنو غانية : ١٢٧ - ١٢٧ الرابطون : ١٩ ، ١٥٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ېتومرين : ۲۹۵۲۲۹۵۲۹ د ۲۹۵۲۲۹۵۹ 140 : 33 AND LYALAN مند أوة : ١٧٤ - ١٥٠ ن ملال : ۱۲۳ ، ۱۲۹ ، ۱۲۸ ، ۱۲۸ ، ۲۹۰ المرل: ۹۰ ، ۲۷۰ ، ۲۷۸ ، ۲۸۲ المالك: ۲۷۷ ، ۸۷۸ TAT : TYY : 1AT 177 c 171 : dl dl الملاقة الساسة : ٢٧٤ ، ١٤٢ ، ١٤٨ ، ٢٧٤ الملافة الفاطمية : ١٢٣ ، ١٨٥٠ اليونان: ٧٤٧ ء ١٤٨ ٩ ٢٨١ دول الماليك الممية: ٥٨ ١ ٩٨

## فهرست الأعلام

-1-

أبرأهيم بن أبي العباس : ٦٦ ابراهيم بن الحباج : ١٦ ، ١٨ ايراهيم بن زرور : ٤٨ أبراهيم الباعوني : ٢٣٥ اين أن عارة : ٠٠٠ ابن أبي عرو : ٣١ أين الأثر : ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٨٨ ابن الأحر : ٢٦ الإزرق: 110 اين لياس : ۹۲ ابن بطوطة : ٧٣ ابن تافراكين : ۲۲۸،۲۳۰،۵۲۰،۲۲۲ این تفری بردی : ۲۱۴،۱۱۰،۸۰،۷۵ YYY اين تومرت ، المهدى : ١٢٠ ابن جابر الوادي آشي: ٢٢٥، ٢٢٠، ٢٢٨: ابن الحاجب : ۲۲۹ ، ۲۲۸ اين حجر المبقلاق: ٥٧ - ١٥ ١ و ١ - ١ -\*124.1271127812401317 (ین سزم : ۱۱ ، ۱۷ ، ۲۷۴ ابن خاتمة الأنصاري : ٣٣

اين الحليب لسان الدين: ۲۷ ، ۲۸ ، ۲۸ ، ۲۸ ، ۲۸

Year oake-/rarelayerare

471041714174417741784178

ابن الخلال ، نور الدين : ۲۱۷ المراهد و و ۱۹ د ۱۹ د ۱۹ د ۱۹ د ۱۹ د المحالف 13303-45300-2774-44304-0.134.144-114.114-1.Yelo V7/207/247/203/273/-/0/2 701-1713461346177-101 37730773077377737706778 \* 74724472PY أين خلكان : ١٤٨ اين خير المكتدري : ۲۸ ، ۲۱۹ ، ۲۲۹ این رشد: ۱۲۶۱۹۴۱۹۴۱ یا ۲۷۴ اين زورك يهه ، وه أين سينا : ١٧٧ ابن طفیل : ۲۷۲ ، ۲۷۴ ابن الطقطق : ١٤١ - ١٤٣ : ١٩٦ این طولون : ۲۷۲ أين عبد البر : ٨٨٧ ابن عبد الحكم : ١٤٨ ، ١٥٨ این مریشاه ؛ ۹۳ الامرة: ١٢٠٨٦، ١٠١١١٢١ اين العنيد : ١٤٨ اين قاضي شيبة : ١٠٠ أبن قتيبة ألدينوري : ١٣٦ ، ١٩٦ اين مالك : ٢٢٨ أبن مرزرق : ۲۹ ، ۲۹

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

أبو ميد البكرى: ٢٥٨ أبو عبَّان السابوش : ٢٢٧ أب عنان ، السلطان ؛ ۲۹،۲۸،۲۳ و۳۰ أبو فارس بن أبي اسماق : ٢٠ أبو للنعيم رضوان : ٤٢ ، ٣٤ أبر يحيى الحياني : ٢٠ ، ٩ ، أتوكار لورنتس: ١٧٩ أحدين أني سالم: ٨٥ آدم سميث : ١٧٤ أرسلو: ۲۰۸، ۱۷۷، ۱۶۶، ۲۰۸، اعاق بن الستنصر ٢٠٠ إسكنادر السادس : ٢٠٠٠ YAY 6 YAY 6 YV. 6 1YA 6 1YT إساعيل بن الأحر : ٢٠ الأصبالي: ٢٢٧ أفلاطون: ۲۷۴ ، ۲۷۴ الإقنهسي، حال الدين: ٢١٧٠٩٧٠٩٥ 440 [كمنوقون: ٢٨٨ ألتامبرا، راقائيل: ١٨٤، ١٨٤ ألطنيفا الحوياني : ۲۲۹،۲۲۱،۲۱۵ ألفونسو البادس: ١٩ أماري : ۲۱۱ ( ۲۸۱ الإمامة : ١٣١

ابن مقلم الحنبل: ٩٣ ، ٩٧ ابن القفم: ٢٥٨ ، ٢٥٨ ابن مشام : ۱۹۸ این ملول یا ۱۰۲ أن أعمال ۽ السلطان ۽ ٢٨ ٢٧٠ ، ٤٠٠٠ 053661347736775KY أبو اصاق الشرازي : ١٦٦ ، ١٦٨ أبو يكرين غازي : ٩٥ ، ٨٥ ، ٩٠ أبو الحسن بن أن بكر : ٢١٩ ، ٢٢٤ أبر المسالرين: ٢٩٠٢٦، ٢٩٠٢١) أبر حو عمو سهرين مبدالر حُنْ : ٢ ٤ ٢ ٧ ٥ ٥ ٧ ٥ ١ \*\*\*\*\*\*\* أبر زكريا ، أمر بحاية : 44 أبه زكريا الحفص : ۲۰ ، ۲۰ أب زيان ۽ عم أبع سالى، السلطان: ٢٥ ، ٣٦ ، ٢٨ - ٠٠ ، أبو سميد البراذمي : ٢٧٠ ، ٢٧٨ أبو معيد امير تلسان : ٣٠ أبو سبيد المريقي ، السلطان : ٧٦ أبن الماس والسلطان : ( ه ه ۲ ه ه ۶ \*\*\*\*\*\*\*\*\*\*\* أبوعبدالله بن القصار : ٢٢٠ أبو عبد الله بن جابر: ٢٢٨ ابو عبد الله الحياني : ٢٢٠ ، ٢٢٨ أبو عبد الله عبد ، أمر بجاية : ٣٣ ، ٤٨

\*\*\*\*\*\*\*\*\*\*

أمية بن عبد القاقر : ١٨

أوجنت کوئت : ۱۹۴ ، ۱۸۰ ، ۱۹۰ ، ۱۹۰ أورثيبا ، شوسه : ۲۹۷،۲۲۲،۱۹۵ ، ۲۲۸ أورسيوس ( هرشيوش ) : ۱۶۷ لوشم**ا**ين ، آفنيس : ۲۸۷ ، ۲۲۷

#### ب\_ت

باكونىن: ١٨٧ باية يد السَّاقي : ٢٨٧ الحاري : ۱۸۸ بدر آلاين آليش ۽ ١٠٤ - ٢١٠ ٢١٠٠. للساطىء جال الدين : ٩٧٤٩٦ ، TTT C TIA البشيش، حال الدين: ١٠٧٥-١٠٤) TYTOTIACTIOCITYCLLY بكل ، توماس : ١٩٠ بل، ألفرد: ٢٠٨، ٢١١ اليلافري : ۱۹۸ ، ۱۰۹ البلقين ، أبو الركات : ٣٧٠ يوكاشيو : ۲۲ 144 + 141 + 144 AAY برنس برچس : ۱۸۷ ۵ ۲۴۷ بيرس: التامر: ۲۷۸ بيدرو (بطرس) القامي : ٢٧٦٠٤٨-٢٧٢ TAP . YAY بری زاده : ۲۱۱ تاج الدين بن الطريف : ٢١٨ تاشفين بن أبي الحسن : • ؛ العباني ، أبو عبد الله : ١٣٧

ج- ز چاتىر : ١٨٨ جنفر البرمكي : 119 المال بن ظهيرة : ٢٢٥ حِيلُونُئش ۽ لدائيج : ١٧٨–١٩٠٠، ١٩٠٠ 404 C484 CA.A چکيز خان ۽ ۲۷۰ الماكر بأمر بأمر الله : ٢١٩ ، ٢٢٥ حييب بن أرس : ٢٢١ ، ٢٢٨ المروب إلصابية : ٢٧٠ الحسن بن حس : 44 – 44 <del>-</del> الحسن بن محمد بن خلدون : دُمِ النسن بن الوزان : ۲۰۶،۲۰۳ الحسين بن على : ٢١٩ ، ٢٢٤ خالد بن بكر بن مثان : ١٦ - ١٨ خالد بن خلدون : ۱۸ خالد بن ميّان بن هائي : ١٦ الليلب التدادي : ۲۷۷

السيوطي: ١٥٨ الثاملين: ٢٢٨ شاه ملك : ٩٠ شاستر : ۱۸۸ شيت تاتانيل: ٢٧٦ ، ١٨٨ ، ١٩٠ شیز اری بورسیا : ۱۹۸ ، ۲۰۰ الشيعة : ١٣١ ، ١٦٥ المالم حاجي : ٨٤ السحابة : ۲۱۹ ، ۲۱۹ صلام ألدين : ١٤٥ - ٨٦ - ١٤١ طارق بن زیاد : ۱۷ الطري : ۱۸۸ م ۱۸۸ الطرط شي، أبو بكر: ١٣٩-١٤١-١٩٦١ Yes الطامر بر توق: ۲۰۸۰۸۸۰۸۱ د۲۰ ATTSCTTSCTTSCTTSTTSTTSTTSTTS YYA الساسة أعت الرشيد : ١١٩ عبد المبارين النعان : ٩٠ عبد الحبيد الكاتب: ٢٢٩ عبد الرحن الأموى : ۲۷۱ ، ۲۸۵ عيد الرحن بن محمة : ١٤١ عيد الرحن بن يفلوس : ٨٥ ، ٩٥ عيد المزيز بن أن العباس : ٢٠٩ ، ٢٠٩ عد النزيز الريق : ٤٥-٥٩،٥١ ٢٧١ عداقت الرئيس: ٢٤ عبد الله بن الحجاج : ١٨ عبد الله بن على : ٣٩

171 . 341 خوری ، چ: ۲۱۲ داروين : ۱۷۹ در باو: ۱۷۳ دمومیان ، جودقری : ۲۱۱ Y11 4 107 : 46 24 دي يوير : ۱۷۱ ، ۱۷۸ دى ساسى ، سافستر : ١٧٣ دى سلان: ١٧٤، ٢٠٩، ٢١١٠ ٢١٢، ديودور السقل : ١٨٨ ريرا: ۱۸۲ 114 : 400 : 114 ارکراکی: ۲۲۴،۲۱۰۲،۱۰۲۱ روزنتال والوين د ۲۱۱ روز نتال ، فرانز : ۲۱۲ الزجاحي: ١٣٣ 19 : 45 s a til : 19 زيدان ۽ سراي، ۽ 177

ميتسر ، هر پرت : ۱۹۰ السفاوي ، څس الدين : ۲۲،۵۱،۷۵،۷۶ ۲۰۱۵ - ۲۰۱۱ ۲۲۱ ۲۲۱ ۲۲۲ - ۲۲۰ ۲۲۰ السيد ، الملك : ۲۲۰ ۲۲۲ السيد ين عيد العزيز : ۲۲۰ ۵۸،۵۸

س ۔ ف

ملیمان بن دارد : ۹۰ میبویه : ۱۳۳

ميدون: ۲۱۱

عبد أقدين محبد، الأسر: ١٨ عبد المؤمن بن على: ١٢٥ عبد المهيمن الحضرى: ٢٣٢٠٢٢٨ ٢٢١ عبد الواحد بن أن حقص : ٢٥ مبدأة المدي: ٢٧٧ الجريز باقت ١٣٣ السبية : ١٩٤ - ١٣١ - ١٣١ - ١٩٤ عقبة بن نائم : ٢٧١ عل بن إعماق بن غائبة : ١٢٥ ، ١٢٦ عرين أبي محسى : ٢٨٠ هر ين حقصون : ۱۸ عرين ميداقه : ٢٩-١٩-١٤ ٧٤ ٤٥٤ TVOLYTTOO هر بن محمله بن خلفون : ۲۱ میسی بن ابر اهم ۱٤۲۰: النزالي، أبر حامد: ١٩٦٤١٧٧٤١٤١ الناراني، أبر نمي : ١٣٦ ، ١٣٨ فيتر الدين ألر أزى: ٢٢٢ - ١٦٤ ، ٢٢٦ ، قرج بن لب : ١٦٨ فرنائدر الكاثوليكي: ١٩٩ فريرو : ۱۸۲ ، ۱۸۲ الفضل بن أن الحسن : ٧٨

المينتان : ۲۰۲

القارمين: ١٣٣

فر مان : ۲٤٩

فلنت، الأستاذ: ٢١٢

777

277

الفتاء الكبير: ٢١ ، ٢٢ قون ڤيسندلك : ١٨٥ فرن کرمر : ۲۱۱ - ۱۸۲ : ۱۸۲ ۲۸۱۱ تا فون هامار : ۲۱۱ ، ۲۱۱ فيثاغورس: ١٧٧ فكو : ع٧١٠١٨١ ، ٥٨١٠٢٨٢ : « گ ق-م. القلقشندي ، أبو المباس : ١١١ کاتر میر: ۲۱۰۴۲۰۹۲۲۹۲۲۹۲۲ كارل مارتل: ۲۷۲ کاسلس کی : ۲۱۲ كريب بن خلنون : ۲۴۱،۱۹،۱۹، ۲۴۱ کے ی آنوشہ وان یہ ۲۷۴ كلارتاون ، لورد : ۲۹۱،۲۸۸،۱۹۱ كلوزيو ، استفانو : ٢٠٢٠١٨٧،١٨٦ كلمنضوس السابع : ٢٠٤ کونسدیر ان : ۱۸۷ لاچان : ۸۹ لانثي: ٢١١ لور نزو دی مدینشی : ۱۹۴ لويس التاسم : ۲۷۳ لين يروڤنسال : ۲۰۸ لشن: ١٨٠٠ ليون الماشي : ٢٠٤ الأمون: ١١٩ ، ١٧٤ ماركى ، كارل : ١٨٧ ماملی : ۲۹۲

مالك ، ألامام : ٨٣ للاوردى ، أبو الحسن : ١٩٦، ١٣٩ المتنبى: ٢٢١ ، ٢٢٨ محمد بن إبراهيم الآبل : ١٩٤٤ ٢٢١ ٢٢١٥ محمد بن سحر : ۲۲۸ محمد بن خلنون ، أبو بكر : ٢٠ ، ٢٧٣ محمد بن سعيد بن برأل : ٢٢٧ ، ٢٢٠ ٢ محمد بن الشواش الزواوي : ۲۲۰ ، ۲۲۸ عد بن عبد السلام: ٢١٥، ٢٢٠ ، ٢٢٨ ، عمد ين عَبَانَ : ٨٥ محمد بن عریف : ۲۲ عبد الني بالله : ٣ و و و و و و و د و و و و و و و و و و Av-Liellicklathery عمه بن محمه بن خلمون : ۲۰ - ۲۲ - ۲۰ محمله بن محمله بن محمله بن خلفون : ۲۰ معمد بن ملكشاه : 121 مروان آلثانی : ۲۷۱ المتشرقون: ٢٢٥ ، ٢٤٢ ، ٢٤٢ المستنصر الحقمي : ٢٠ ٢ ٢٧٢ المنتصر الفاطمي: ١٢٣ السعودي: ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٩ ، ١٧٧ ، مسعود ين ماسي ۽ ٢٤ ۽ ٨٠ المتلفر قطئ يهوو المتبدين عباد : ١٩

المرى ، أبو الملاء : ١٨٧ ، ٢٧١ ، ٢٧٨

المزين باديس: ١٢٣

المقرى ، شهاب الدين : ۲۴۵

المتریزی ، تنی آلدین : ۲۰۱۹ و ۱۰۱۹ و ۱۰۱۹ و ۲۰۱۹ و

ن-ي

الراقش د ۱۶۸ ، ۱۹۸ يعتوب بن عبد الحق : ۲۵ ، ۲۹ ، ۲۰ وائل بن حجر : ۱۹ ، ۲۲۰ ، ۲۲۱ يعقوب المصور : ١٢٥

الیاژوری ، آبو محمد : ۱۲۳ ينمر اس بن زيان : ٢٥

ټاکوت الحبوی : ۱۵۷ يحيى بن إمحاق بن خائية : ١٢٧ ، ١٢٧

يحيى بن محمه بن خلدون : ۲۱،۰۵۱ و.. 30437407

يحيى بن المستنصر : • و

يوسف بن تاشفين : ١٩ يشبك الحاجب: ٨٩

يوسف بن عبد المؤمن : ١٢٥

يلينا الناصري : ٨٤ يومتنيان : ۲۷٤

يوسف أبو الحجاج : ٢٤

يوسيفوس : ۱۹۱ ، ۲۸۸

# IBN KHALDUN HIS LIFE AND WORK

## By MOHAMED ABDULLA ENAN

orish Empire in Spain" "Age of the Almoravides and umentos Moros en España y Portugal" "Decisive Lis in the History of Islam" etc.

